محتويات العدد السابع

محمد الغزالي

* ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في 30 محرم 1341هـ الموافق 22 سبتمبر 1917م بقرية "نكلا العنب" مركز ايتاي البارود بمحافظة البحيرة بمصر.

* تلقى تعليمه الأولي والثانوي في معهد الإسكندرية الديني.

* التحق بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر سنة 1356هـ/1937م وكان الشيخ عبد ا يد اللبان عميداً للكلية ومن أساتذته فيها الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد يوسف موسى والشيخ محمد غلاب.

* عين سنة 1362هـ/1943م إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء، بالقاهرة.

* كان الشيخ الغزالي من أوائل الأعضاء البارزين في جماعة الإخوان المسلمين وكان مقرباً للشيخ حسن البنا، وفي أوائل الخمسينيات عمل في مجالات الحركة الإسلامية دون انتماء لجماعة من الجماعات.

* ترقى الشيخ الغزالي في مناصب وزارة الأوقاف فعين مستشاراً في المساجد ثم واعظاً في الأزهر الشريف ثم وكيلاً لقسم المساجد ومديراً للمساجد ومديراً للتدريب في عام 1391هـ/1971م عين مديراً عاماً للدعوة والإرشاد، وفي نفس العام انتدب وكيلاً لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.

* أعير أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة 1397هـ/1977م.

* عين سنة 1401هـ/1981م وكيلاً لوزارة الأوقاف، لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.

* عمل بجامعة قطر، كما عين رئيساً للمجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينية/الجزائر إلى أن استقال سنة 1401هـ/1989م.

* للشيخ الغزالي في مجال التأليف دراسات متنوعة تنتشر بين الجماهير وتعدت مؤلفاته إلى أكثر من خمسين كتاباً كان أولها "الإسلام والأوضاع

الاقتصادية"، وآخر ما صدر له كتابه عن "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" في 3 مجلدات، كما ترجمت بعض أعماله إلى عدة لغات.

* زار الشيخ الغزالي معظم الدول العربية والعديد من الدول الأفريقية والآسيوية والأوروبية والأمريكية للمشاركة في نشاطات الدعوة الإسلامية.

* رأس الشيخ الغزالي – في السنوات الأخيرة- ا لمس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة.

* انتقل الشيخ إلى رحمة الله في 19 شوال 1416هـ الموافق 9 مارس 1996، أثناء مشاركته في ندوة فكرية بالرياض، ودفن بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

شيخنا محمد الغزالي رحمه الله
وصفحات من حياته

رئيس التحرير

حين يذكر الشيخ محمد الغزالي تتبادر إلى الأذهان جملة خصال قل أن تتوافر كلها أو تجتمع بجملتها في عالِم معاصر، ومن هذه الخصال الحميدة:

1- الاجتهاد القائم على سعة الإسلام ومرونته ومقاصد شريعته وكليات مصادره، وغاياته العليا.

2- السماحة والاعتدال اللّذان ينبهان بوضوح إلى الفهم الدقيق لـ "وسطية الإسلام"، والإدراك العميق لقيمه العليا (التوحيد والعمران والتزكية)، والفقه المستفيض في معيار الإسلام الأساس (العدل) الذي منه انبثق "الاعتدال"، واشتقّت "الوسطية".

3- الغيرة الصادقة على "الأمة القطب" التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلاً عن دمه وجسده، غيرةً على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها ومستقبلها ووحد ا.

4- القدرة النقدية، والطاقة العقلية، والمعرفة المتنوعة الواسعة، والذكاء الخارق اللماح، والطاقة المتجددة المتطلعة –على الدوام- إلى معرفة الجديد والمزيد ف يكل ما من شأنه أن يخدم هذه الأمة وقضاياها المتشعبة.

5- الحب والوفاء لربه ولنبه ودينه وأمته ورفاقه وتلامذته، يساعده على ذلك قلب كبير نقي من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية، خالص للإيمان والحب والوفاء.

ذلك إلى خصال أخرى كثيرة تحدث عنها المتحدثون من محبيه وتلامذته وعارفي فضله قبل أن يرحل عن دنيانا وبعد ذلك.

ولا أود أن أعيد شيئاً مما قالوه، ولكنني أود أن أفتح صفحات معدودة من حياته الحافلة، لأنّ فيها من الدروس والعبر ما هو جدير بالإذاعة والإشاعة.

وسأبدأ بالعلاقة الوثيقة التي ربطت بين الشيخ الغزالي و "المعهد العالي للفكر الإسلام"، وما كان لها من أثر في بعض توجيهاته الفكرية.

بدأت صلة الشيخ الغزالي بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي بعلاقات الصداقة الوثيقة والحميمة التي ربطت بينه وبين رجال المعهد ومؤسسيه قبل أن يؤسس رسمياً في الولايات المتحدة الأمريكية.

فالشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي قد اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين الشيخ –رحمه الله- منذ أن ترجم إلى اللغة الإنجليزية كتابه، من هنا نعلم الذي رد الشيخ فيه على كتاب **من هنا نبدأ** للشيخ خالد محمد خالد –رحمهم الله جميعا-. يقول الشهيد الفاورقي: "كنت قد اطلعت على الكتابين: **من هنا نبدأ ومن هنا نعلم**، وأعجبت برد الشيخ أسلوباً ومضموناً، وقررت أن أترجم الكتاب لقراء الإنجليزية ليعرف الأمريكان موقف المسلمين الحقيقي من الشيوعية والاشتراكية ونحوها، ففعلت ذلك بعد استئذان الشيخ الذي سر بذلك وسعد به".

وحين استشهد الدكتور الفاروقي غيلة عام 1986م نعاه الشيخ الغزالي إلى الأمة في بعض الصحف التي كان يكتب لها، وذكر أن الشهيد كان صديقاً عزيزاً له، وأنه أول من قدمه إلى قراء الإنجليزية في ترجمة كتابه ذلك، وأشار إلى خسارة الأمة باستشهاده.

كما أن علاقة مودة وإخاء كانت قد ربطت بين الشيخ رحمه الله والأخ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان قبل سفر الشيخ إلى السعودية، وزادت تلك الصلة وثوقاً بعد ذلك واستمرت حتى وفاة الشيخ عليه رحمة الله.

أما كاتب هذه السطور فقد بدأت علاقته بالشيخ في وقت مبكر امتد من أيام دراسته فيه الأزهر واستمر حتى وفاة الشيخ رضي الله عنه.

العودة إلى مصر

وحي لاحظ بعض المهتمين ما كان يجري في مصر وفي العالم العربي من اضطراب فكري مع فقدان المرجعية الرشيدة، والفراغ الكبير، كان الشيخ الغزالي في مقدمة الأسماء القليلة التي تحضر إلى الذهن لشغل ذلك الفراغ وملء موقع المرجعية.

وكنا نرى أن ذلك يمكن أن يتم بعودة الشيخ إلى مصرن، وتبوئه موقعاً ملائماً يتيح له ملء هذا الفراغ.

كان بغض محبي الشيخ وتلامذته يرون أن لا يعود الشيخ من الجزائر إلى مصر إلا شيخاً للأزهر أو مرشداً عاماً للإخوان المسلمين. فمنصب شيخ الأزهر خاصة بثقله التاريخي، وسمعته الدينية حين يحتله شخص بوزن الشيخ الغزالي ومستوى حضوره ستعود إليه مكانته في الداخل وفي الخارج، وسيتمكن من استقطاب البقية الباقية من العلماء ليعطي للأزهر من جديد آفاقه العالمية، ووظيفته القيادية. وصفات الشيخ ومناقبه الشخصية، وقدراته الخطابية والكتابية وسمعته وصيته، كل ذلك سيكون رصيداً فعالاً في تحقيق هذا الهدف، وفي تحريك كثير من المؤسسات الإسلامية الأخرى التي قد يسهم تحريكها في إعادة مصر لممارسة أثر إسلامي مهم في الداخل وفي الخارج؛ وقد يقضي ذلك على الكثير من أسباب التأزم بين الإسلاميين والنظام داخل مصر.

وحين بدأ بعضهم مساعيهم الحميدة لإقناع القيادة السياسية ذه الفكرة تضافرت عدة تيارات متذرعة بأسباب عديدة لإحباط هذه المحاولة: منها أن تاريخ لشيخ الحافل بالكفاح على جبهات عديدة أوجد كثيراً من المخاوف من أن الشيخ قد يحرك كل هذه المؤسسات إلى ألفت أن يكون على قمة الهرم فيها رجال لا تتجاوز اهتماما م الدائرة العلمية المتخصصة بكثير. أما الشيخ الغزالي فمن المتعذر لشخص مثله أن يحصر اهتماماته ذه الدائرة، فطبيعة الداعية فيه والهموم التي يحملها، وتتبعه لقضايا الإسلام والمسلمين في سائر بقاع الأرض، كل ذلك سيتغلب على طبيعة المنصب، فهو من تلامذة الحركة الإصلاحية الذين لم يكونوا يعرفون الفواصل بين الشأن الدعوي والشأن السياسي والاجتماعي، فكل هموم الأمة همومهم، وكل ثغورها يجب أن تجد من يقف عليها.

ولم ينس له بعض المعارضين لتسلمه المشيخة آنذاك ملاحظاته حول الدستور المصري، فقد كان من أبرز أسباب خلافه مع نظام يوليو في مراحله الأولى تعطيل دستور 1923م؛ فهو لم يقتنع بما اقتنع به بعض قادة الإخوان آنذاك، من أن تعطيل الدستور قد تم لأن رجال الثورة يريدون وضع دستور يجسد المبادئ والقيم الإسلامية ويسهم الإخوان أنفسهم في صياغته. حتى بعد أن تم تشكيل لجنة الخمسين عضواً لوضع الدستور الجديد لم دأ مخاوف الشيخ، وأشار إلى خطورة أن تبقى البلاد بدون دستور ولو ليوم واحد، ودافع عن كثير من مواد ذلك الدستور

المعطل، كما اعترض بعد ذلك على ما أُدخل على الدستور من تعديلات في عهد رئيس مصر الراحل أنور السادات. ولم يتردد الشيخ في إبداء اعتراضه المعلن وموقفه المعارض لزيارة الرئيس السادات إلى القدس، ولم يخف نقده لقانون الأحوال الشخصية الذي صدر في عهده.

كذلك اعتبرت أجهزة الأمن الشيخ محرضاً على مظاهرة إسلامية انطلقت من الأزهر وبقيادة بعض شيوخه رداً على مظاهرة علمانية مؤيدة لقانون الأحوال الشخصية في الأزهر آنذاك، ولم ينس له بعضهم نقده اللاذع للممارسات والأخطاء الحكومية التي أدت إلى هزيمة عام 1967م، مما دفع الرئيس الراحل أنور السادات إلى إصدار أمر باعتقاله أثناء وجوده خارج مصر في الجزائر للمشاركة في ملتقى إسلامي فيها.

المهم أن هذه الأمور –كلها- مع طبيعة المرحلة ومتغيرا ا المختلفة حالت دون قبول فكرة تعيين الشيخ الغزالي –رحمه الله- شيخاً للأزهر الشريف.

الغزالي ومنصب المرشد

أما الاقتراح الثاني فقد حالت دون قبوله –كذلك- بعض الأسباب؛ فالاقتراح كان يستند أساساً إلى كون الشيخ واحداً من أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين الأحياء في ذلك العهد، وإلى أن مكانته العلمية، وشخصيته وسمعته سيكون عائدها خيراً على كيان الجماعة وسمعتها، وأن تسلمه لقيادة الجماعة قد يسمح بإيجاد علاقات طبيعية مفتوحة مع نظام الحكم في مصر ومع النظم الأخرى خارجها. وقد يسمح كذلك بانفتاح الجماعة على التيارات السياسية المختلفة،وينقي سمعة الجماعة من سائر ما علق ا أثناء اختلافها وصراعا ا مع نظام الرئيس جمال عبد الناصر. وكان هناك اعتقاد بأن صفات الشيخ وطبيعته المنفتحة ستسهل إعادة توحيد الصفوف الإسلامية في مصر وبناء الجبهة الداخلية، وتنهي مرحلة الفصام بين رجال الفكر والدعوة، ورجال الفقه والحركة.

أما الاعتراض على هذه الفكرة فقد كان يستند إلى أن الشيخ الغزالي وأن كان مِن أعضاء "الهيئة التأسيسية للجماعة"، إلا أنه ليس الأسن بينهم؛ فالأستاذ محمد حامد أبو النصر –رحمه الله- كان أسن منه. كما أن فترة سجنه لم تطل كما طال سجن غيره بسبب تخليه عن معارضة الرئيس عبد الناصر. وقد اعتبر اختلافه مع المرشد حسن الهضيبي –رحمه الله- وفصله من الجماعة عام 1953م بعد سبعة

عشر عاماً من العمل داخلها، دليلا على عدم الانضباط، وعدم الالتزام بالقواعد التنظيمية.

ومع أن ذلك -كله- قد نوقش، وبين الذين تبنوا فكرة ترشيح الشيخ الغزالي لمنصب "المرشد" ضعف ما ذكر من اعتراضات، و افته أمام الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تجنيها الجماعة، بل والعمل الإسلامي بصفة عامة من اختياره مرشداً للجماعة، إلا أن المحاولة أخفقت، وانتهت بالرفض التام. ولم يشفع للشيخ تتلمذه المخلص على الأستاذ الشهيد حسن البنا، وانفعاله الكامل بشخصيته، حتى إنه ليكاد يتمثل شخصيته فضلاً عن هضمه لفكره، واستيعابه لعلومه وآدابه. وهؤلاء كان من بينهم من إذا جلسوا مجالس المراجعة لتاريخ الأمة كثيراً ما يتمنون لو أن أمير المؤمنين علياً جاء بعد أمير المؤمنين عمر دون فواصل، ويؤكدون أنه لو حدث هذا لتغير تاريخ الأمة، ولتغير حالها. ومع سائر الفوارق التي لا تحصى، هل لنا أن نقول: لو أن رجلاً بوزن الشيخ الغزالي -رحمه الله- تسلم زمام إرشاد هذه الجماعة خلال السبيعينات وما تلاها لكان الحال غير الحال ولكن قدر الله وما شاء فعل.

تتلمذه على دروس الشهيد حسن البنا

قد لا يدري الكثيرون أن خطب الشيخ الغزالي ودروسه في الأزهر وفي جامع عمرو بن العاص وغيرهما من المساجد في القاهرة وغيرها من مدن مصر، ومحاضراته في الجيش المصري قبل 1973م وفي طلاب الجامعات المصرية، وكذلك دروسه في جامعة أم القرى وفي الجزائر، ما كانت إلا تلخيصاً دقيقاً لدروس الشهيد حسن البنا خاصة، ودروس قادة التيارات الإصلاحية من أواخر القرن الماضي وأوائل هذه القرن، مع ما يضيفه الشيخ من فيض علومه وصائب فكره، ولذلك كان -رحمه الله- ينفعل بما يقول أكثر مما ينفعل به سامعوه!!

الشيخ والمعهد العالمي للفكر الإسلامي

وكان يمكن للشيخ - بعد إخفاق المسعيين الآنفي الذكر- أن يعيش خارج مصر أستاذاً في جامعة من الجامعات، يبث أفكاره وتجاربه وخبراته بين طلابه ومريديه فيمتلئ وقته، ويشعر بالسعادة التي يحتاجها ليستمر في حالة الإنتاج والعطاء. إلا أن القائمين على أمر المعهد رأوا أنه لا بد من البحث عن بديل للشيخ، والعمل على استقراره في مصر، بحيث تهيأ له في حدود الإمكانات المتواضعة للمعهد سبيل البقاء فيها. فالجميع كانوا يعرفون مزايا الشيخ ويقدرو ا، ويدركون أن فاعلية هذه المزايا ستتضاعف أضعافاً كثيرة بوجوده في مصر، فهناك ارتباط وثيق

بين شخصية الشيخ الغزالي وشخصية مصر، وعبقرية الرجل وعبقرية المكان –كما يقول عالم الجغرافيا المصري جمال حمدان- وكلفني مجلس أمناء المعهد بالعمل على تحقيق ذلك فسافرت إلى الشيخ وفاتحته بالأمر، شرحت له أبعاده كلها.

فهش رحمه الله لذلك وبش، وقدر العرض كثيراً ودعا للمعهد وللقائمين عليه، ورأى المعهد وفكره امتداداً حقيقياً لمسيرة الحركة الإصلاحية. وتم التفاهم على جدول زمني يعود الشيخ فيه إلى مصر، ليكون رئيس ا لمس العلمي لمكتب المعهد فيها، وواحداً من أبرز مستشاريه وموجهي مسيرته. وقد كان "ا لمس العلمي" لمكتب المعهد في القاهرة يضم نخبة من المفكرين، لا على مستوى مصر وحدها، بل على مستوى أعم وأشمل. فقد كان هذا ا لمس يضم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو ا د، والأستاذ المستشار طارق البشري، والأستاذ الدكتور محمد عمارة، والأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا، والأستاذ الدكتور جمال الدين عطية، ثم انضم إليه الأستاذ الدكتور سيد دسوقي حسن والأستاذ الدكتور علي جمعة عبد الوهاب والأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري، والأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين، يضاف إلى هؤلاء مجموعة من الأساتذة الخبراء الذين للمجلس أن يدعوهم للاستماع إلى آرائهم إذا ما عرضت أمور تحتاج إلى خبرات أو تخصصات إضافية.

وكان هذا ا لمس يجتمع شهرياً –أو كلما دعت الحاجة- في مكتب الشيخ الغزالي الذي يقع تحت منـزله، وقد كانت تلك مرحلة إنتاج خصب على مستوى الندوات والمحاضرات والبحوث، وكان الشيخ واسطة العقد في كل تلك النشاطات قَلّ أن يتخلف عن ندوة أو محاضرة أو لقاء.

وفي هذه المرحلة أعد الشيخ دراساته القيمة في كيفية التعامل مع القرآن، وكيفية التعامل مع التراث الإسلامي، وقضايا الفنون وموقف الإسلام منها، وكثير من القضايا الأخرى.

وصدر له عدد من الكتب المهمة هي: كيف نتعامل مع القرآن والسنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، والتفسير الموضوعي، وتراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، وما يقرب من ألف محاضرة ومقالة كبيرة وصغيرة. وقد كان أهم ما تميز فكر الشيخ الغزالي به في هذه المرحلة أن صار فكراً كثيراً ما يتعرض للحوار والمناقشة الجماعية من خلال لقاءات المعهد وندواته ومجالسه، قبل أن يصوغه الشيخ ويضعه في قالبه الأخير.

وهذه ميزة لم تتوافر لفكر الشيخ في كتبه الأخرى إلا في فقه السيرة، وما ورد فيه من الأحاديث، ودراسات محدودة أخرى جرى إعدادها أثناء التعليم والتدريس، سواء في السعودية أو في الجزائر أو في زياراته لقَطَر.

وفي تلك المرحلة المباركة من عمر الشيخ، أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء. فقد قرر المعهد تنفيذ مشروع لتسجيل خبرات جملة من أعلام العصر وخلاصة تجار م في الحياة بالصوت والصورة، على أن يتم استخلاص تلك الخبرات والتجارب بحوارات علمية مكثفة يقوم ا أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث من يجري الحوار معه وإنتاجه العلمي. وتقرر البدء بكل من الشيخ الغزالي والدكتور زكي نجيب محمود. وجمعت كتب الشيخ وقدمت موعة من أفضل المفكرين لدراستها أولاً، ليقوموا بمحاورة الشيخ في أفكاره، ويتتبعوا مسيرة حياته العلمية والفكرية ويبرزوا جوانب من مقومات شخصيته ومكونا ا. وكان من بين من حاوروا الشيخ الأستاذ المستشار طارق البشري، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا، والأستاذ الدكتور محمد كمال إمام، والأستاذ الدكتور جمال الدين عطية، والأستاذ الدكتور محمد عمارة، والأستاذة صافيناز كاظم. وقد أربت هذه التسجيلات المصورة على خمس عشرة ساعة تولت بالتحليل والحوار أهم جوانب حياة الشيخ الحافلة؛ ولعل من أهم ما ورد فيها أ ا عالجت "ما وراء" فكر الشيخ الذي دون في كتبه ودروسه ومقالاته. كما أ ا تعرضت لتقديم تفسيرات مباشرة وصريحة لكثير من الأحداث والمواقف التي لم يعرف المتصلون بحياة الشيخ أو معظمهم تفسيراً صريحاً لها.

وقد اشتملت تلك التسيجلات على نوع من ممارسة النقد الذاتي، المراجعات التي لم تعد معطيات عصرنا تسمح ا أو تتسع لمثلها حيث ساد التعالم الكاذب، والإصرار على المواقف حقها وباطلها؛ لكن الشيخ –رحمه الله- رجل أواب، سرعان مايرجع إلى الحق أو الصواب أو الرأي الراجح إذا عرفه. فهو يروي قصة رجوعه عن نقد بعض الصحابة –رضوان الله عليهم- الذين اشتهروا بمعارضة الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه، فيقول: "دعاني الباقوري يوماً لمنـزله، وكنت صديقاً له، فما أن جلست حتى قال: "ما الذي بينك وبين عمرو بن العاص يا شيخ محمد؟ فقلت: ليس بيني وبينه شيء اللهم إلا أنني أخطب في جامع عمرو الجمعة. قال الباقوري: دعك من هذا واستمع لرؤياي هذه، ولك –بعد ذلك- تأويلها. ثم قال الباقوري: "رأيت فيما يرى النائم وأنا في منـزلي هذا أن منادياً ينادي: الوالي

قادم، الوالي قادم! فتساءلت: ومن هو الوالي فأجابوا: عمرو بن العاص. فدخل فنظرت إليه فهبته، ثم قال عمرو: قل للشيخ الغزالي: إني قد عفوت عن انتقاصه ونقده لي لأنه قد عمر مسجدي". يقول الشيخ الغزالي: فأجهشت بالبكاء، وأدركت أن في الرؤيا إشارة إلى شيء كان في نفسي، وكنت أصرح ببعضه أحياناً، وهو كراهتي لمحاربي علي ومخالفيه من الصحابة، وبخاصة معاوية وعمرو. وبعد أن فرغت، قلت للباقوري:إنني أعلن أمامك توبتي ورجوعي عن ذلك: فكل من صحبوا رسول الله -ﷺ- يجب أن يتركوا لله ولرسوله، فذلك هو الأولى والأليق بنا، ولا ينبغي أن نضع مسؤولية خيبتنا وتراجعنا عليهم". وما يدريني ما أكون لولا عمرو لعلني لو لم يدخل عمرو مصر ويفتحها بالإسلام وله، أكنت الآن من المسلمين؟".

تعميره مسجد عمرو بن العاص

كان مسجد عمرو بن العاص-فاتح مصر- في مدينة الفسطاط جنوبي القاهرة، في منطقة شعبية عرفت "بمصر القديمة"، أحيط بالمباني العشوائية المتواضعة ومصانع الآجر ومدابغ الجلود فأصابه إهمال شديد، وبقي مجرد أثر من الآثار الإسلامية في مصر. لكن مسؤولية إدارة مسجد عمرو بن العاص بقيت منوطة بوزارة الأوقاف، فهيئة الآثار ترى الأوقاف مسؤولة عنه وعن ترميمه والمحافظة عليه، وتتوقع منها أن تتولى ذلك، حتى كاد أول جامع في مصر أن يضيع ويندثر. ولما تولى الدكتور عبد الحليم محمود –رحمه الله- وزارة الأوقاف كان الشيخ الغزالي معه مديراً عاماً للمساجد. فاستدعى الدكتور عبد الحليم الشيخ الغزالي وطلب منه أن يتولى خطابة الجمعة في جامع عمرو، وفي هذا يقول الشيخ الغزالي: "فقلت للشيخ عبد الحليم، وكان رجلاً صالحاً: لقد كنت أخطب في الأزهر، ثم منعت من الخطابة فيه، ولا مانع لدي من أن أعود للخطابة فيه". قال: "فأطرق الشيخ عبد الحليم قليلاً، ثم قال: أريدك أن تخطب في جامع عمرو بدءً من الجمعة القادمة". يقول الغزالي: "كنا في يوم الثلاثاء، فقلت له: أعطني فرصة حتى أهيئ الجامع، يقول الشيخ الغزالي: "فذهبت إلى المسجد فوجدت الأتربة المتراكمة والقمامة قد بلغت في بعض جوانبه ما بين الأرض والسقف، فدعوت طلابي الذين كنت أدرس لهم في الأزهر –وكانوا حوالي خمسين- وأخبر م بما جرى، وطلبت منهم مساعدتي على إعداد جامع عمرو لصلاة الجمعة، فتم ذلك في وقت قصير. وبعد أن سمع طلابي في جامعة القاهرة وغيرها احتجوا أنني لم أشركهم مع طلاب الأزهر في هذا الخير.

وبعد أن صليت الجمعة الأولى أدركت أن الله –تعالى- قد ألهم الرجل الصالح الشيخ عبد الحليم محمود ليعمر هذا المسجد المبارك ويحييه، ليكون شاهداً على عراقة انتماء هذا البلد وشعبه إلى الإسلام، وصدقه في حمل رسالته.

وقررت أن أجعل من خطبتي فيه سلسلة متصلة من التفسير الموضوعي لآيات الكتاب الكريم، وأن أبدأ من أول القرآن وأستمر حتى ايته إن شاء الله ومد في الأجل. ولم تمض جمعتان أو ثلاث حتى صار الجامع الكبير يضيق بالمصلين على اتساعه، وكان كثير من المصلين على اتساعه، وكان كثير من المصلين يأتون من خارج القاهرة في سيارات نقل يستأجرو ا". ويقول واصلت ذلك حتى بلغت سورة النساء. وفي تلك الفترة كان قانون "الأحوال الشخصية" يعرض على البرلمان، فظن أنور السادات أنني تعمدت تفسير آيات من هذه السورة في هذه الفترة لبيان مخالفات هذا القانون لأحكام القرآن، فمنعني من الخطابة في وقت كان عدد المصلين قد قارب خمسة عشر ألفاً أو يزيدون".

وهنا قرر الشيخ الهجرة إلى مكة المكرمة، حيث عمل أستاذاً في أم القرى، ومتحدثاً في الإذاعة، وكاتباً في كثير من ا لات والجرائد السعودية حتى بلغت أحاديثه المذاعة ألف حديث، معظمها مسلسلات في إذاعة القرآن الكريم.

الشيخ الغزالي والجيش المصري

الشيخ الغزالي شاهد على مراحل حرجة من حياة مصر وجيشها وشعبها (سنة 1948، 1956، 1973م)، ويرى في منتسبيه –جنوداً وضباطاً وضباط صف – عناصر مخلصة مستعدة للتضحية والبذل والفداء، وله رأي في قيادات الحروب الثلاث الأولى. ويرى في هزيمة 1967م هزيمة كبرى وعاراً ألحقته "القيادة الغافلة المخدرة" –حسب تعبيره- بجيش وشعبٍ لا يستحقان ذلك منها، وقد منحاها كل الولاء والتأييد. ويرى في استبداد القيادة وإهمالها لأبسط قواعد الشورى أو الديمقراطية أسباباً مباشرة في الهزيمة، وقد كتب في ذلك وتحدث باستفاضة. وفي معرض الحديث عن حرب العاشر من رمضان سنة ثلاث وسبعين، يرى أن من أهم أسباب النصر في الانطلاقة الأولى للحرب تلك الروح المعنوية الإسلامية العالية التي استطاع أن يبثها في أبناء القوات المسلحة خمسون مرشداً من أفضل وأعظم الدعاة والخطباء الأزهريين، كان على رأسهم الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ الغزالي نفسه. فهؤلاء المرشدون هم الذين استطاعوا تعبئة أبناء القوات المسلحة تعبئة نفسية عالية جعلت من كثير منهم نماذج يمكن أن توضع بجانب تلك النماذج الحية التي

تتابعت قوافلها منذ عصر النبوة حتى يومنا هذا. لقد كان يقول لأبناء الجيش المصري مثلاً: "... الإيمان مواقف، وهناك أناس متخصصون في الهروب من المواقف إلى مواقف أخرى، هي الباطل بعينه وإن لبست أحياناً ثوب التدين؛ فالفرار من الجهاد لا يغني عنه المكث في صحن المسجد". ويقول: "إن أزمة الشهامة دليل على فتور روح التدين والرجولة وانطلاق السعار الحيواني دون قلق، والأمر يحتاج إلى معالجة سريعة؛ فإن استقرارا المنكر على هذا النحو إيذان بالانحدار والضياع وتتابع الهزائم المذلة".

لقد استطاع الشيخ الغزالي ورفاقه أن يعيدوا بناء نفسية المقاتل المصري بناءً إسلامياً، وأن يبثوا في شرايينه الدماء التي كانت تحتاجها معركة الأمة مع أعدائها ومنتهكي حرما ا، وغاصبي أرضها، ومهددي أمنِها.

رحم الله الشيخ الغزالي وتقبله في الصالحين، فالحديث عنه طلي، والذكريات معه تترى.

لقد فقدت فيه الأمة علماً من أعلامها النجباء، وفقد فيه المعهد الموجه الفاعل، والرائد الأمين.

ووفاءً لذكراه وعرفاناً لفضله، فقد رأت إدارة مجلة إسلامية المعرفة وهيئة تحريرها إصدار عدد خاص عنه للحديث عن شخصيته وعلمه وجهاده في سبيل إصلاح شأن الأمة وتجديد ثقافتها واستنهاض طاقا ا كي تستأنف مسير ا الرسالية قائمة بالعدل شاهدة على الناس بالحق.

وقد أسهم في مادة هذا العدد كوكبة من أبناء الأمة ذوي تخصصات علمية واهتمامات فكرية متنوعة، فكانت إسهاما م جميعاً إبرازاً لجوانب وأبعاد في شخصية الشيخ وفكره تنم كلها عن ثراء مسيرته وتنوع عطائه وغزارة تراثه العلمي، ونحن لا ندعي أن مادة العدد قد استنفدت دراسة كل الجوانب والأبعاد في شخصية الشيخ وفكره، فما نقدمه هنا ليس إلا فتحاً للباب ولفتاً للانتباه حتى يقوم المهتمون بمسيرة الفكر الإسلامي والدارسون لقضاياه بدراسات أكثر شمولاً تنظر إلى إسهامات الشيخ الغزالي في علاقتها وتفاعلها مع غيرها من الإسهامات وفي سياق حركة التجديد الفكري والإصلاح الثقافي والاجتماعي التي انطلقت منذ منتصف القرن الماضي.

وقد حظينا في هذا العدد بنشر مقالة دبجتها يراع الشيخ في الأيام الأخيرة من حياته هي مقالة الإسلام والثقافة العربية في حياتنا المعاصرة، كما حظينا بنشر مقتطفات من مذكراته التي هي الآن قيد الإعداد للنشر في كتاب.

ألا جزى الله الشيخ الغزالي عن الإسلام وأمته بخير ما يجزي به عباده الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

طه جابر العلواني

بحوث ودراسات

نظرات في تراث الشيخ محمد الغزالي

يوسف القرضاوي*
إعداد: بدران بن الحسن**

الغزالي رجل الدعوة

عرفت في الشيخ الغزالي أنه رجل دعوة قبل كل شيء، الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها، الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل جهده وجهاده، أخلص دينه لله، فأخلص الله لدينه، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله عز وجل.

وقد أهل الشيخ للدعوة –بعد دراسته الأزهرية المعمقة- حفظه لكتاب الله من لصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، يقول: فقد كنت أقرأ في كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب علي، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأنا أتناول الطعام. وللقراءة أهمية خاصة لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين.

إن القراءة –أي الثقافة- هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدوداً صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيراً ما يكون قصور الفقهاء والدعاة راجعاً إلى فقههم الثقافي. ولا بد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء: يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ

---

* دكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة الأزهر 1393هـ/1973م، رئيس مركز بحوث السنة بجامعة قطر.
** طالب بقسم الماجستير كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

في الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها.[1]

مرتكزات الفكر الدعوي عند الغزالي

أول هذه المرتكزات وأعظمها: القرآن الكريم، والسنة النبوية هي المصدر الثاني للشيخ، ومرتكزه الثالث: التاريخ الإنساني العام، والتاريخ الإسلامي وقمته السيرة النبوية، فهي بداية التاريخ الإسلامي، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارئ جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه، وأحداثه، ومراحله وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجعها، وتخلف الأمة وغلبة أعدائها، وأسباب ذلك.

ومرتكزه الرابع: الثقافة العامة، الثقافة الدينية، والإنسانية، فقد تخرج في كلية أصول الدين، وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهرياً متمكناً متفوقا، وأكد ذلك بدراسته في تخصص الدعوة والإرشاد. ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته في مختلف حقول المعارف.

ومرتكزه الخامس: الواقع، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، الواقع المحلي والإقليمي والإسلامي والواقع الدولي.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

1- **العقل العلمي المبصر:** في بواكير ما كتب الشيخ نقرأ في الإسلام والأوضاع الاقتصادية هذه الفقرات تحت عنوان (قيمة العقل في الدين): "إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!

[1] من أجوبة الشيخ في كتاب: علماء ومفكرون عرفتهم، للأستاذ محمد ا ذوب.

فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿إِن فِي خلْقِ السماواتِ والْأَرضِ واخْتِلافِ الليلِ والنهارِ لَآياتٍ لِّأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (آل عمران:190).

والعقول الذكية وحدها التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزعات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿أَفَمن يعلَم أَنما أُنزِلَ إِلَيك مِن ربك الْحق كَمن هو أَعمى إِنما يتذَكَّر أُولُو الْأَلْبابِ﴾ (الرعد:19).

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال والأنذال، من المصلحين أو المفسدين: ﴿لَقَد كَانَ فِي قَصصِهِم عِبرةٌ لِّأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (يوسف:111).

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة. ﴿يؤتِي الْحِكْمةَ من يشاءُ ومن يؤت الْحِكْمةَ فَقَد أُوتِي خيراً كَثِيراً وما يذكَّر إِلا أُولُو الْأَلْبابِ﴾ (البقرة:269).

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية، ليس أمراً هيناً؛ فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف، والنظر في الجديد نظرة تلطف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطويف في آفاق العوامل المادية والأدبية، هذه جميعا وسائل لترقية العقل الإنساني، ثم هي بعد وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه".[2]

2- **النفس الشاعرة:** لم يقل الشيخ الغزالي الشعر كلاماً موزوناً مقفّى، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذي يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى في كل نبتة في الأرض، أو نجمة في السماء، روحاً توحد الله، ولساناً يسبح بحمد الله.

من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص، وأسلوبه الأصيل، لا يقلّد أحداً، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو في العلم أو في الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ.

ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيراً من الأسماء المعروفة.

---

[2] محمد الغزالي: الإمام والأوضاع الاقتصادية، ص 105-106.

3-**الروحانية الدافقة:** ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالي: الروحانية الغامرة الدافقة وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدث الناس عن الله جل جلاله، ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم ـدي كتابه الكريم، وهدي رسوله العظيم ﷺ.

وهذه الروحانية الداقة الصادقة لها مصدر فذّ أوحد، هو حسن معرفة الله تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأ ا رأي عين.

الغزالي بين العقل والقلب؛ يشيد الغزالي بالعقل، وينوه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحملون الدين وزر بلاد م وغباو م، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة (البله)، في حين يجعل القرآن أهل الجنة هم (أولي الألباب)!

إضافة الجانب الرباني إلى علم التوحيد؛ وهوي يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب

الإيماني في نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق التي يكون الإيمان بدو ا صفراً.

وهو لهذا يرى أن تدخل في علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين في التصوف على أ ا مراحل للطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أ ا من مرققات القلوب، ومكا ا الأول –في رأيه- في علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدا ا.

الغزالي... رجل القرآن

الشيخ الغزالي رجل قرآني، فهو مع القرآن أبداً، يديم القراءة له، والتأمل فيه، والتدبر لآياته، حفظ القرآن حفظاً جيداً منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عيه آية بأخرى، وهو يتلوه آناء الليل، وأطراف النهار، ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصحفه صدره.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه، وكأنه جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ –منذ المراحل الأولى- وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معاني جديدة، يتخذ منه حجة في معركته ضد الظلم والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبي الفياض، وتعبيره البياني النابض بالحياة.

الدراسات القرآنية للشيخ:

وللشيخ في الدراسات القرآنية المحض جملة كتب منها: نظرات في القرآن وهو كتاب يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد. والمحاور الخمسة للقرآن الكريم، وهو من كتبه الأخيرة، التي بين فيها المحاور الأساسية التي تدور حولها سور القرآن وآياته. وهي: الله الواحد... والكون الدال على خالقه... والقصص القرآني... والبعث والجزاء... والتربية والتشريع.

ومنها: التفسير الموضوعي للقرآن، وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين، وهو يحاول أن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوساطها، وأن يتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها. وله في هذا المقام نظرات جديرة بالتأمل.

ضرورة العناية بالقرآن الكريم:

وفي مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه، يقول: الذي أراني مضطراً إلى النبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإن ناساً أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجوراً، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماس، وبردوا حيث تجب الثورة!

إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة...

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وا بيارها، نير الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهدة القيامة وما وراءها، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلككله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتممة لهداياته فقد أوتي رشده.

الغزالي... والسنة النبوية

القرآن الكريم هو المصدر الأول لفكر الشيخ الغزالي الدعوي والإصلاحي، والسنة هي المصدر الثاني، فهو يعتبر السنة ضرورة لفهم القرآن، فهي الشرح النظري، والتطبيق العملي له، وهو يحتفل احتفالاً خاصاً بالسيرة، باعتبارها الجانب العملي من السنة، حيث جعل الله نبيه (الأسوة الحسنة): وهي تمثل الإسلام مجسداً، والقرآن حياً، في مواقع ومواقف، تراها الأعين، وتلمسها الأيدي، ويتعظ ا الخاص والعام، وفي هذا صنف كتابه القيم: فقه السيرة.

زوبعة كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث

هذا الكتاب الذي أهاج عليه خصومات الكثيرين واستثار أقلاماً عدة لترد عليه بقسوة وحدة، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق (العقلانيين). ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم أو منطق الدين نفسه،حسبما يراه.

والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق.

وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة، وإن ثبتت في الصحاح، لا يعني بحال إنكار السنة بوصفها أصلاً ثانياً، ومصدراً تالياً للقرآن، ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كباراً مثل أبي حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة، لردهما أحاديث صحاح في العبادات أو المعاملات لم تثبت عندهما. بل لو صح ذلك لا ـمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأ ـا ردت على بعض الصحابة أحاديث رووها وسمعوها بآذا ـم من النبي ﷺ، لأ ـا –في رأيها- مخالفة لما جاء في القرآن. فا ـمتهم بأ ـم لم يحسنوا أن يسمعوا، أو لم يحسنوا أن يحفظوا.

والواقع أن، معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديداً عن فكره، لب هو مبثوث في مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب، مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج.

منـزلة السنة من القرآن

وقد تعرض لذلك مبكراً في كتابه: فقه السيرة مبيناً مكانة السنة من الكتاب حيث أكد أن القرآن هو قانون الإسلام، وأنّ السنة هي تطبيقه، وأن المسلم مكلّف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه –في ذلك- لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة الله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس، قال الله عز وجلّ:

من يطِعِ الرسولَ فَقَد أطَاع الله ومن تولى فَما أُرسلْناك علَيهم حفِيظاً (النساء:80).[3]

وأبرز كتاب تناول فيه الشيخ الغزالي صلة السنة بالقرآن ومنـزلتها منه هو كتاب ليس من الإسلام، الذي يقول فيه إن القرآن الكريم يحتل بالنسبة للمصادر الأخرى منـزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها. ولذلك فقد تضمن القرآن

[3] محمد الغزالي: فقه السيرة، ص 44-46.

أصول الإسلام، فمنه تؤخذ الصورة العامة لما لا يتم إلا بمعرفة السنة، وفهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سبق من أجلها التوجيه النبوي.

وينتهي الشيخ إلى أننا نستطيع أن نقول إنه ليست هناك سنة تعارض حكماً قرآنياً ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة.

ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال، بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التي وردت في موضوع واحد ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل ا من الكتاب الكريم، ولن نعدم هذه الصلة.

السنة حق:

ويزيد الشيخ ذلك إيضاحا في الكتاب نفسه فيؤكد تحت عنوان (السنة حق) إنه إذا صح أن الرسول ﷺ أمر بشيء، فإن طاعته فيه واجبة، وهي من طاعة الله. وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم.

والمسلمون متفقون على إتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتاً ودلالة تفاوتاً لا محل هنا لذكره.

وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها في مضا ا... وللناقد البصير، أن يتكلم في حديث ما من ناحيتي متنه وسنده، وأن يرده لأسباب علمية يبديها.

وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر، فإن الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها.

وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تجحد؟

وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أُدركت تفاصيلها إلا من السنة؟

إن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام. وإنكار المروي من سنن الآحد –لمحض الهوى- عصيان مخوف العاقبة.

ويذكر الشيخ أنه تعقب طائفة من منكري السنن، فلم ير لدى أكثرهم شيئاً يستحق الاحترام العلمي.

ومن ثم فالطعن –هكذا خبط عشواء- في الأسانيد والمتون كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محل الريبة والازدراء.

وهذا –فوق أنه غمط للحقيقة ا ردة- يعرض الإسلام كله للضياع.

إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا.

وفي الوقت ذاته يؤكد الشيخ قاعدة أصولية مهمة للتعامل مع السنة، فهو يرى أن صحبة الحديث لا تتأتى من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضاً من انسجامه مع ما ثبت يقيناً من حقائق الجين، فأي شذوذ فيه، أو علة قادحة، يخرجه من نطاق الحديث؛ على أن ا ام حديث بالبطلان مع وجود سند صحيح له لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية دقيقة.

وأكثر الظلم الذي وقع على السنة أصا ا من أن حديثاً من الأحاديث قدر له أن يعمل في إطار معين، فجاء بعض القاصرين وحرفه عن موضعه بالتعميم والإطلاق.[4]

الغزالي... والفقه

مرتكزات فقه الغزالي

ومما نجده من أقضية فقهية في مؤلفات الشيخ الغزالي في مختلف شؤون الحياة، يتبين لنا أنه لا ينطلق في فقهه هذا من رأي محض أو هوى متبع، إنما ينطلق من مرتكزات أو أصول يستند إلها، ويعول في الاستنباط عليها.

1- **الكتاب والسنة معاً:** أول هذه المرتكزات أو الأصول هو: النص المعصوم، الذي جاء به الوحي الإلهي، ويتمثل هذا النص في القرآن والسنة جميعاً. فالقرآن هو المصدر الأول، هو أصل الأصول، المقطوع بثبوته وتواتره اليقيني؛ والسنة هي البيان النظري والتطبيق العملي له.

والبيان لا يجوز أن يناقض المبَين، لهذا يرفض الشيخ الغزالي كل سنة تناقض القرآن، ولا يتكلّف أو يتمحل في تأويلها.

2-**اعتبار المصالح ما لم تعارض النص:** ومن مرتكزات فقه الشيخ الغزالي: أنه يأخذ بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتباراً، بشروطها المعتبرة شرعاً، وأولها ألا تعارض نصاً صحيحاً صريحاً. والفقه الصحيح –كما يقول الشيخ- هو أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهمها ثم في تحقيقها، ناشدين إرضاء الله وخير الأمة. على أن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة.

---

[4] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص 29-43.

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار.[5]

3- **احترام المذاهب دون تعصب:** ويقوم فقه الغزالي أيضاً على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة وغير المتبوعة، دون تعصب لها أو لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قمماً عالية في رسوخ العلم، وفي تقوى الله، وفي الصلابة في الحق، والشجاعة في الرأي.

وهو ينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج في هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، مساوين رؤوسهم برؤوسهم، قائليه: هم رجال ونحن رجال!

والشيخ يحترم المدرستين الشهيرتين في تراثنا الفقهي: مدرسة الأثر ومدرسة الرأي، كما يقال في الاصطلاح المأثور. ويرى أن مدرسة الأثر لا تهمل الرأي ولا إعمال العقل في فهم النص والقياس عليه، كما أن مدرسة الرأي لا تهمل الآثار والسنن والمرويات.

وقد يميل الشيخ في كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأي في اجتهاداتها، المعتمدة على عمومات القرآن وظواهره، كقولهم بوجوب الزكاة في جميع الزروع والثمار مما يؤكل ومما لا يؤكل، وهو ما رجحه شيخ المالكية في عصره القاضي أبو بكر بن العربي.

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الإسلامي الشهيرة التي قامت في القرنين السابع والثامن على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها (مدرسة الموازنة والترجيح)، ويقول عنها: أنها أفادت من الرأي والأثر معا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أزكى وأقدر.

ويرى أن آراء ابن تيمية في مسائل الطلاق –مثل عدم إيقاع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة، والطلاق البدعي ونحوه- أحب إليه، وأصح حجة من غيره، وأحفظ لكيان الأسرة في عصرنا.

إن الإسلام صائغ أولئك الرجال كلهم من القدامى والمحدثين، وهم لم يصوغوه.

---

[5] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 44-49.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأ ا من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكي يدعم مسيرتنا العملية، ولا يضيرها أبدا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص؛ هكذا يقرر الشيخ في مواطن كثيرة من كتبه.

4- **الفقه** في **خدمة الدعوة:** ومن منطلقات الشيخ الغزالي في الجانب الفقهي: أن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية المبتسرة للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين.

ومن هنا يرفض التقليد الأعمى والمطلق للأئمة السابقين، لا سيما من أجل العلم، بل عليهم أن يستكملوا نقصهم العلمي، وأدوا م الثقافية، حتى يبلغوا الدرجة التي يتمكنوا فيها من النظر والترجيح بين الأقوال، وأن يجتهدوا لزمنهم وبيئتهم كما اجتهد الأولون لأزما م وبيئا م.

ويرى الشيخ أنه لا بد للفقيه المعاصر أن ينظر في الميراث العلمي للعلماء المتقدمين في أعصار الإسلام المختلفة، نظرة جديدة، في ضوء مقررات الكتاب والسنة، ومقاصد الإسلام وكلياته القطعية، ويأخذ من أقوال الشراح ويدع، فالنصوص معصومة، ولكن أفهام الشراح وأقوالهم في تفسيرها غير معصومة.

وينكر الشيخ الغزالي محاولة من يريدون رفع الخلاف، وجمع الناس على رأي واحد –هو بالطبع رأيهم- مع وجود الخلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة، بل منذ عصر النبوة! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة! ولا تنقصه!

كما ينكر بشدة تضخيم الخلافيات، وشغل لناس ا، والتشنيع على المخالفين فيها، يقول: إن العقائد والعبادات الرئيسة والسنن العملية جاءت كلها عن طريق التواتر القاطع، وإن أصول الدين وأركان الطاعات وقواعد السلوك لا يرتقي إليها لبس أو تفاوت، وإنما يحدث الخلاف في أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل.

الغزالي... مصلحاً مجدداً

الغزالي ا دد:

روى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري: أن الشيخ الغزالي أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر.

والإصلاح الذي يؤمن به الغزالي ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وفي خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة من العناصر:

1- تجديد الإيمان وتزكية الأنفس:

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع في كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعي بأنه الهدف الأساس للدين كله، وأنه شرط ضروري لكل إصلاح حقيقي.

وفي مقدمة كتابه علل وأدوية يقول: نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات، وترهب ا ـرمين، ولكنها –قبل ذل- تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عز وجل، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوبا خالية من الله عز وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي!

ولقد أقام نبينا ﷺ حضارة حققت الغاية من الجود الإنساني، وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي، وما ألهم من هدى. وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسة في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدي.

إنني أود أن أفهم المؤمنين أن الحياة في سبيل الله، كالموت في سبيل الله –جهاد مبرور- وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين! وأن الواجد الذي ينـزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينـزل عن شيء؛ لأنه لا يملك أي شيء.

الحاجة إلى تصوف نقي:

مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب...

وتحت هذا العنوان يقول الشيخ في كتابه ركائز الإيمان بين العقل والقلب:

"والإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية"، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وأفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح... ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية" ... والدين الحق شفاء من العل جميعاً، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

"والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟ وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعمته؟

"كيف نجعل اليقين ينـزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟ كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

"كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته... وكيف نجعله هيابا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه...

"كيف يشهد المرء ربه في مجالي السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل".

وبعد أن يعرج الشيخ على ما قدمه الفقهاء والمتصوفة والمتكلمون في شرح حقائق الإسلام وتقريبها للناس مشيراً إلى مزايا كل فريق ونواقصه، يقرر ما يلي: "إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم".[6]

2- الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

حرب على الفساد السياسي:

تحدث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه: هموم داعية، فقال: الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة... لأن أهواءهم طافحة، وشهوا تهم جامحة... لا يؤتمنون على دين الله... ولا دنيا الناس... ومع ذلك فقد عاشوا آماداً بعيدة.

[6] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 131-134.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية، يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويراً يثير الاشمئزاز كله... قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده... أهذه الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونـزل على حكمها فيما لا وحي فيه... وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه، وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة. ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندما تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء.

كما اعتبر الشيخ الغزالي ضياع الحرية من وراء التخلف، وغلبة الاستبداد هو السر فيما نحن فيه من تخلف.

3- العدل الاجتماعي

كان الظلم الاجتماعي أول ما لفت نظر الشيخ الغزالي، وشغل قلبه وفكره، فقد نشأ في بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفتيش الخاصة الملكة تتحكم في الفلاحين الكادحين،تحكم السادة في العبيد، وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لقد رأى الشيخ من النقائض التي تقع في مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقواماً يعملون كثيراً ولا يملكون شيئاً قط، وأقواماً يملكون كثيراً ولا يعملون شيئاً قط! وربما وجدت الرجل يقضي العمر الطويل نحول الطين وروداً ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه!

كان الغزالي بقلبه ومشاعره وعقله مع لاطبقات الكادحة. إ ا أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم... احتفى ا الإسلام وعمل على توسيع دائر ا، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. واعتبر الأنبياء عمالاً يأكلون من كسب أيديه، وجعل شرار النسا أولئك القاعدين من غير

عمل، والطامعين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

فكان أول ما خط قلم الشيخ الغزالي عن الإسلام والأوضاع الاقتصادية والإسلام والمناهج الاشتراكية والإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.

4- الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

إن حديث الشيخ الغزالي في مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد. وقد عرفنا من أوائل كتبه الإسلام والاستبداد السياسي وهو مجموعة محاضرات ألقاها في معتقل الطور سنة 1949م.

ولكنه تناول الموضوع في كتب عدة، وبأساليب شتى، لأنه يمثل دعامة أساسية في فكره الإصلاحي والدعوي، وفي فقهه السياسي.

ومن حفاوة الشيخ بالحرية وتقديره لقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها وغلبة الاستبداد عليها هما السر وراء تخلفنا. وفي ذلك يقول:

"بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريباً في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا ا ال.

"وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!.

"أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة، وتجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط خطوة إلى الأمام مقدورة!

"ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لك ذي كفاية أن يعمل وأن ينجح... وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقاً لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في إعلاء شأ ا...

"إن امرأة*" تحكم –ومعها جهاز شوري دقيق- أقرب إلى الله، وأحنى على الناس من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علماً، وهو لا يدري شيئاً.[7]

5- تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشري، إن لم تكن أكثر. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلا بد أن ينهضا بعبئها معاً، وفقاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وهداية السماء التي أوحى بها الله.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، ورد إليها اعتبارها.

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية في شأن المرأة، فإن المسلمين في عصور التخلف والالتزام الحضاري ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيراً من حقوقها، وجعلوها سجين بيتها، جاهلة بدينها ودنياها. ظلمه الكثير من الآباء، وجار عليها المجتمع.

هذا الوضع المزري للمرأة المسلمة هو الذي غاظ الشيخ الغزالي، وعمل على مقاومته، وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

1- التقاليد الموروثة من عهود الانحطاط في الحضارة الإسلامية.

2- التقاليد الوافدة مع الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي.

إذا نظرنا إلى الغزالي الداعية، أو الغزالي المصلح، أو الغزالي المفسر، أو الغزالي الفقيه، نجد أنه في كل مجال من هذه المجالات منصف للمرأة، محام عنها بحرارة.

فهو يرفض حبس المرأة بين جدران بيتها، لا يراها رجل ولا ترى رجلا. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي. يقول: "الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسواراً عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر فالرؤية المجردة محرمة!.

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة الصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤية العادية لا شي فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التي تبحث عن الإثم! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس".

---

*الإشارة إلى أنديرا غاندي.

[7] محمد الغزالي: علل وأدوية، ص 191.

"فالمسجد والشارع وأرجاء ا تمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التي خرج من أجلها".

"وقد تواتر ذلك في حياة السلف الأول، فرئيت المرأة في المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط ا سياج من آداب الإسلام المقررة...".

"إن هناك عقولاً معتلة، تتعشق الآثار المعتلة، وتبني عليها ما وى من أحكام، والإسلام النقي بريء من هذه الانحرافات".

"... فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما في نفوسهم من علل".[8]

ويرى الشيخ أن المسلمين في عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إ م حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق في سلوك الإنسان، فضلاً عما يكون في المسجد من دروس عظات.

وهذا أمر بدا مبكراً منذ عهد الصحابة، حتى إن عبد الله بن عمر ذكر الحديث الشريف: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"،[9] فقال له أحد أبنائه: "والله لنمنعهن، إ ن يتخذنه دخلاً"، يري أ ن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله... وتقول: والله لنمنعهن! والله لا كلمتك أبداً، وهجره حتى مات رضي الله عنه.[10] وهنا يرى الشيخ الغزالي أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابي الفقيه، واتبعوا رأي الابن العاق الجاهل.

يقول الشيخ:

"صح في السنة: أن المرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيتها! ولا ريب أن شؤون الأولاد خصوصاً الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس...

"ونحن موقنون بأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل أحد أبواب المسجد خاصاً بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد. وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء...

---

[8] محمد الغزالي: الحق المر، (القاهرة: دار الشروق)، ج2، ص118-119.

[9] الحديث متفق عليه عند أبن عمد، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، برقم 254.

[10] محمد الغزالي: الحق المر، ج2، ص118-119.

"ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

"بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يبقين على أميتهن الأولى!!

"لحساب من تعود هذه الجاهلية؟.

"وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟...

"... ولم يجيء في أحد الصحيحين ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد... فهذه الأحاديث مردودة كلها... فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة المشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداء...

"وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة.

"وقد يقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فإن الذهاب إلى المساجد ليس استعراضاً للزينات، وبعثرة للفتن! إنه سعي لمرضاة الله، وغرس للتقوى...

"وحجز النساء عن هذا الشر "هو بتنفيذ وصية رسول الله" ... يخرجن تفلات"، أي في ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبخر...

أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام...".[11]

6- تصحيح التدين المغلوط

تصحيح المفاهيم المغلوطة:

كان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التي وجه إليها الغزالي فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التي غلط الناس في تصورها، وأساؤوا في تصويرها.

ومن ذلك مفهوم العبادة. ففي كتابه: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية يقول: "عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أن أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك

---

[11] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص61-64.

واسعاً، وا ال رحباً لفهم الحياة واكتشاف طاقا ا وتسخيرها كلاً وجزءاً لخدمة الدين.

"وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعاً: عملاً صالحاً، وجهاداً مبروراً، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله...

فَمن يعملْ مِن الصالِحاتِ وهو مؤمِن فَلا كُفْرانَ لسعيِهِ وإنا لَه كَاتِبونَ (الأنبياء:94).

"ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا، عجزةً في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منها أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

"وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام!

"ومن قديم رأي نفر من العابدين أن يحصروا عباد م في الصلوات والأذكار، يبدءون ويعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة، فمن ينصر الله ورسله؟ إذا كان أولئك جهالاً بالحديد وأقرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه: وأَنزلْنا الْحدِيد فِيهِ بأْس شدِيد ومنافِع لِلناسِ ولِيعلَم الله من ينصره ورسلَه بِالْغيبِ (الحديد: 25).

"إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئاً، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها ذا العجز المهين؟".

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام:

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي يخل بـ (النسب) التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها كلها في درجة واحدة، لا في المأمورات، ولا في المنهيات، وهو ما أسميناه (فقه الأولويات) أو فقه مراتب الأعمال؛ "فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة"، كما صح في الحديث. ولكن الشيخ يتساءل: "هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كما اتفق؟ لا... إ ا شعب متفاوتة الخطر والقيمة، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه...

"ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال حسية. والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

"وقد كان الخوارج أول من أصيب ـذا القصور العقلي أو ـذا الخلل الفقهي، قاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم! وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك بني أمية!

"وهذا التورم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست له م قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء، ومحدثين يحفظون النصوص ولا يضعو ا مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

"وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساند ا بالنص المحفوظ.

"وهو السر وراء حكام يعملون –حسب المواصفات المقررة- رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر النهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

"وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً، ولا يستفيدون منها خلقاً.

"الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى مشعثون. والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيؤون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط، "ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيؤون ولا يحسنون.[12]

7- تحرير الأمر وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح المهمة عند الشيخ الغزالي: تحرير الأمة من كل سلطان أجنبي يشل إراد ا أو فكرها أو يدها.

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار بأنواعه، كما قاوم عملاءه من بني جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

---

[12] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قر ا الخامس عشر، ص68-70.

قضية فلسطين:

وفي مقدمة القضايا الإسلامي التي تبناها واحتلت بؤرة شعوره، وصميم فكره، وعد نفسه حارساً لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، واهتمامه ا يأخذ وجهتين:

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفاً واحداً، ضد العدوان اليهودي المغتصب.

والثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

توحيد الأمة بعد تحريرها:

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لا بد من العمل على (توحيد الأمة) كما أمر الله سبحانه، فهي أمة واحدة وليست أمماً، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرب بينها. والعقبة الكأداء في سبيل وحد ا هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصاً بين حكامها وقاد ا...

يقول الشيخ: "إن قلبي يتفطر عندما أرى الدم الإسلامي أرخص دم على الأرض... لقد استباحه ا وس واليهود والنصارى والوثنيون والملحدون... وحكام مسلمون!!

"ولا ريب أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسي الجراح، ويهون الكفاح، ويبشر بالصباح...

"ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها...".[13]

تذويب الفرق المنشقة عن الأمة:

[13] محمد الغزالي: قذائف الحق، ص148.

وللشيخ رأي له أهميته في وجوب تذويب الفرق المنشقة عن الجماعة والأمة الإسلامية، يقول:

"في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفا ا الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام، هناك النصيرية، والدروز، والإسماعيلية –الأغاخانية- وأمثال أولئك جميعاً ممن ينتمون إلى الإسلام انتماءً غامضاً.

"وقد يزعمون أ م مسلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتتنكر لهم...

" م سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا سند لها، وهم في نظري ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معاً...

لماذا تمر القرون الطوال وهؤلاء معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

"أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لألوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه..!!

"إن هذا الخطأ لا بد أن يوضع له حد، ولا بد من التعفية على آثاره.

ولدت الباطنية ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجوداً بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائراً جاهلاً وإن لبس برد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البرد...

"ولقد استيقنت –وأنا أقرأ هذه الصحائف السود- أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

"ولقد ض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكساراً تاماً.

"لكن حكام المسلمين –في غيبوبتهم الفكرية- لم يكملوا ما بدأه العلماء ا اهدون، بل لقد خيل إليه أ م جمدوا –عن عمد- بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

"وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي تمده في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

"والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

"نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام –كما يقولون- وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهباً مستقلاً في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيا ا الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم...

"وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام".[14]

8- الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية الشيخ الغزالي جانباً غير قليل، دعوته الدائبة إلى إخراج الأمة من دوائر التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشري الصاعد أبداً إلى الأمام.

إن التأخر ليس طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هي الأمة الأولى في العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضار ا هي الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماءها في كل فرع من العلوم هم قادة العلم والفكر في الدنيا القديمة.

أسباب تخلف الأمة:

صنف الشيخ الغزالي كتاباً في سر تأخر العرب والمسلمين تحدث فيه عن أسباب ا يار الحضارة الإسلامية، وتخلف الأمة، وهي إجمالاً كما يلي:

1- **سوء الفهم للإسلام:** وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخاري عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن...

2- **وقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية:** التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة، والتي تصنع عقولها وأذواقها وإراد ا.

3- **جهل المسلمين بالدنيا:** وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: "قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فتاكة، فأين منـزلة المسلمين من هؤلاء؟"...

إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أموراً بديهية عند أسلافنا.

---

[14] محمد الغزالي: دستور الوحدة بين المسلمين، ص144-146.

4- **انتشار الجبرية في العالم الإسلامي:** فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، والتصوف، وبعض مفسري القرآن وشراح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذا الكون.

5- **تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية:** فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول ﷺ أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا في حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على التكلف والتزيق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة.

6- **وضع المرأة في عصور الضعف:** منعت المرأى من التعليم بناء على حديث مكذوب: "لا تعلموهن الكتابة" وآخر واه جداً: "ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل".

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناء على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن من التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه... وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطاً بالدين، واتصالاً بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية في العالم الإسلامي اضطراباً شديداً.

7- **ذبول الأدب العربي:** فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصورون، كما قل المؤلفون المفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة... وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يثير الاشمئزاز.

8- **سياسة المال في المجتمع:** فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع، وترف مفسد. وعلى الرغم من أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت الرشوة، والبطالة الصريحة والمقنعة، وامتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال، لا يدرى كيف نبتت أصولها.

9- **الفساد السياسي:** ففي الحديث: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"، وما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد الأمر إليهم أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدود.[15]

9- تنقية الثقافة والتراث الإسلامي

ينبه الشيخ الغزالي إلى أن الطريقة التي يواجه ا المسلمون الحياة تحتوي على أغلاط كثيرة.

ومرد ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا ا علماً، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح.

وفي رأيه أن الثقافة التقليدية مسؤولة عن ذلك القصور السائد.

ويرى الشيخ أن ثقافتنا في طورها القائم تحمل أخلاطاً لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز بين الخبيث والطيب. ومن أهم الملاحظات التي يجب الوعي ا:

أ- التقعر فيما وراء المادة: التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسير م العلمية لياً شائناً. والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية وأنه بحسب المسلمين في علم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها... أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه...

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

ب- التنطع فيما يسرره الله: الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، والحقيقة على الظن، والحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، هر نجح سلف الأمة إلا ذا المنهج؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

يقول الشيخ: "والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار

[15] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية...، ص65-92.

المسلمين... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

وقد تأدت هذه المزايدات إلى أضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى..."

ج- توجيه الضعاف للتعليم الديني: يقول الشيخ: "ألف المسلمون أن يحفّظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الضعاف والفقراء وذوو العاهات... وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق أو حسن المظهر وقوة العصبية...

وهذا المسلط يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين...

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخاً راسخاً.

ولكن عدداً آخر –ربما أكبر- آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهناً فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم!

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!"[16]

د- قصور في دراسة التاريخ: يرى الشيخ أن دراسة تاريخ أي شعب إسلامي أمر واجب، "فالمسلمون أمة واحدة غير أني أتممت دراستي الأزهرية التي استغرقت خمسة عشر عاماً دون أن أدرس حرفاً عن المسلمين في جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا نفسها، وشمال إفريقيا وغربنا في العصر الحديث!.

"لم نعرف حرفاً عن الاستعمار الهولندي لجزر أندونيسيا ولا الأسباني لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التي سميت بعد (الفلبين). لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين في فطاني والملايو وسنغافورة... ألخ.

"لقد تبين لي أن دراستنا للتاريخ الإسلامي ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإنساني فوق الصفر بقليل.

---

[16] المرجع السابق، ص71-75.

"إن رسالة محمد ﷺ للقارات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أي سعي للاتصال بهذا العالم الرحب؟...

"إن القرآن يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

﴿أولَم يهدِ لَهم كَم أهلَكْنا مِن قَبِلهم مِن الْقُرون يمشونَ فِي مساكِنِهم إِن فِي ذَلك لَآياتٍ أفَلا يسمعونَ﴾ (السجدة:26).

"الحق أن المشرفين على التعليم من أمد طويل فرطوا في حقوق الأخوة الإسلامية حين فرطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

هـ- قصور في **معرفة الفقه والواقع:** إن التشريع الإسلامي أنفس مواريثنا الحضارية. يقول الشيخ:

"وعلم أصول الفقه هو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرزاق آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا لأنه نتاج إسلامي خالص رائع.

"غير أن علم الأصول في دراساتنا الأخيرة أمسى علماً أثرياً هامداً يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص ولا عام، وقد جدد الشاطبي منهجه في الموافقات، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد فقهية جديرة بالحفاوة! ولكن ذلك كله مهجور في دراستنا.

"والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظري على مخلفات الماضين".

أما الفقه الإسلامي الذي استبحر قديماً وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامي..."

"... إننا نواجه طوفاناً من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامي واحد، بل يجب أن يقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

"ثم إن الخلود لكتاب الله وسنة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعني هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض أيدينا من بعضها إذا بدا ألاّ مجال لبقائه".

و- قصر الباع في **العلوم الكونية والإنسانية:** ومن ذلك: القصور في علوم الكون والإنسان. يقول الشيخ: "وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور في العلوم المدنية

لا يزيد دارسي الدين إلا خبالاً. إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق. ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما..

"والواقع أن تكوين العقل الديني لا يتم إذا كان في عزلة عن الاستبحار العلمي الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم لا تعدو الأبجديات القديمة".

ز- غربلة التراث الصوفي: وفي هذا الصدد يرى الشيخ الغزالي "أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع.

"لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهون فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها. فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟...

"إن الدين يفقد جوهره حين ي علاقته بالقلب، وعلم القلب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

"وإنه لما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصاً بعدما هجرت منهجها الفلسفي وخطت لها مجرى علمياً يحترم الحقيقة ويلتزم ا".[17]

10- ترشيد الصحوة

عنى الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، وهو واحد من أبرز آبائها إن لم يكن أبرزهم، عني ببعثها، كما عني بترشيدها، حتى لا دم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منها ولها.

معالم لترشيد الصحوة:

[17] علل وأدوية، ص181-188.

يقول راسماً بعض المعالم الرئيسة للصحوة المرجوة: "إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذّاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!

"ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدونا يجب أن تتوفر لجبهتنا العناصر الآتية:

أولا: يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا!...

ثانياً: "... يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عده مسلماً! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهواً ولعباً...

ثالثا: يقصى من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجو م ونكوصهم...

"والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفي عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

"والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب.

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء".[18]

الدفاع عن الرموز والأعلام:

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالي: العمل على تجميع الجهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف في وجه الكيد الصهيوني الكر الصليبي، والتهجم العلماني.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضاً، أو يكيد بعضها لبعض، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز في تاريخ الأمة وتراثها الفكري.

---

[18] محمد الغزالي: هموم داعية، ص108-112.

يقول: "إنني لا أجعل عيباً ما يغطي مواهب العبقري، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

وددت لو أُعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف إلجام العوام عن علم الكلام فألفت كتاباً عنوانه: إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستويا هم، وتنفع أمهم م.

وجهة نظر في **أقدار الرجال:**

يقول الشيخ: "أكره التعصب المذهبي، وأراه ضيق عقل قلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

"وأستحب التقليد المذهبي للعامة ولأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول! وأعني الأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه فادح فاضح.

"أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة ويرجحوا دليلاً على دليل ومذهباً على مذهب؛ مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة، وليس هذا تفضيلاً عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننـزل به على قول رسولنا الكريم ﷺ: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه" (وأحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ: ليس منا من لم يجل كبيرنا... الحديث. قال الهيثمي: وسنده حسن).

"واحترامي لك لا يعني أن أسلّم بكل ما تقول، وتخطئتي لإنسان ما لا تعني أني أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفاني".

11- إحياء اللغة العربية

اللغة العربية لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهي اللغة التي شرفها الله تعالى بأن أنـزل ا أعظم كتبه، فخلد ذكرها وعمم أثرها.

وقد ذهب الشافعي إلى أن تعلم اللغة العربية –أو قدر منها على الأقل- فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدي فرائض دينه، وخصوصاً الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام في العالم سبباً في انتشار العربية، وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنو ا في زمن ازدهارها، ولم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التي نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربي شعراً ونثراً، حتى بلغ الذروة في آداب العالم.

وفي عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدا ا. وإن الجهل بالعربية يشيع بين 80 أو 85 في المائة من المسلمين. وأما الجهل ا في أرجاء العالم فشيء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أ ا الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى اليوم الآخر.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

1- تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني، أي يئة معرفة اللغة وإتقا ا لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي ا رد.

2- الجد في محاربة اللهجات العامية –داخل الوطن العربي- وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي المبتدع أخيراً، والذي يسمونه الشعر المرسل.

3- إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلف والمحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء ا يدين بشتى الوسائل...

وقبل ذلك لا بد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة.

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي.

الغزالي... رجل المواقف.

للغزالي مزايا كثيرة، ومن مميزاته المعروفة: أنه رجل موقف.

ومواقفه في حياته كثيرة. أعني المواقف التي يقف فيها عند رأيه متشبثاً به مدافعاً عنه، مهما يكلفه ذلك من تضحية ومكابدات.

ومن تلك المواقف موقف الشيخ الغزالي عندما ذهبنا إلى معتقل الطور، ووجد القادة المسؤولين عن المعتقلين يسرقون أقوا م، ولا يعطو م إلا الفتات، فخطب الشيخ، وقاد مسيرة بعد صلاة الجمعة، تف بسقوط لصوص التجويع، وتلعن

اللصوصية المنظمة، مما أدى إلى مفاوضات مع المعتقلين انتهت بتسليمهم مستحقا م (جافة)، وهم يتولون طهيها و يئتها.

المؤتمر القومي:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه في المؤتمر القومي العام الذي عقد في القاهرة أيام عبد الناصر، في أوائل الستينات، ووقوف الشيخ يدعو صراحة إلى وجوب التحرر من الاستعمار التشريعي، بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وعرج الشيخ في اية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية.

قانون الأحوال الشخصية:

ومن المواقف التي تذكر الشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذي يعرف عنه المصريين بـ (قانون السيدة جيهان)، زوجة أنور السادات، التي كانت متحمسة له، وقد هاجمه الشيخ، في قاعة محمد عبده بالأزهر، ووقفت بجانبه الجماهير.

وكان موقف الشيخ في هذه القضية مماثلاً لموقف شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود –الإمام الكبر شيخ الأزهر- ولذا سقط القانون أو قل أو جمد في عهده، ثمّ وجد من الشيوخ –للأسف الشديد- من أجازوه!

موقف في الجزائر:

ومن المواقف التي تذكر له: موقفه في (ملتقى الفكر الإسلامي) في الجزائر في أواخر الثمانينيات، عندما تحدث الشيخ البوطي عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربا ا، ويكفي الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم، وآفات السياسة... مما أثار الحاضرين في الملتقى وأقلقهم. وكان الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حاضراً، وشعر المشاركون بالحرج، وهنا طلب الشيخ الغزالي الكلمة، وصعد إلى المنصة، وأثنى على صديقه الشيخ البوطي، ولكنه خطأه في توجهه، وإن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنـزل الله، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين.

وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه، وأتى الأمر من بابه، واستراح الجميع لتعليق الشيخ.

الشهادة في مقتل فرج فودة:

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ هو موقف (الشهادة) في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فودة، تلك الشهادة التي أحدثت دوياً، وزلزالاً في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف.

وهنالك للشيخ مواقف عديدة في حياته الحافلة بالمواقف المشرفة لرجل العلم وعالم الدين وحارس العقيدة، وهي أكثر من أن تحصى هنا.

خاتمة

إن هذه الدراسة أثبتت أننا أمام عالم مفكر حر، عاش عمره كله للإسلام، ونذر له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معاركه كلها تحت راية الإسلام، رافضاً كل راية جاهلية، بأي اسم ظهرت، وتحت أي عنوان تزينت للناس، متخذاً شعاره: قُلْ إِن صلاتِي ونسكِي ومحياي ومماتِي لِلهِ رب الْعالَمِين... لا شرِيك لَه وبِذَلِك أُمِرت وأَنا أَولُ الْمسلِمِين) (الأنعام: 162-163).

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبداً: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتى الدين من قبله. كما عاش مؤمناً بأن الله أخذ على حملة الوحي أن يعلنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه، مؤكداً عليهم ذلك في قوله تعالى: لَتبيننه لِلناسِ ولا تكْتمونه (آل عمران:187).

نحسبه كذلك ولا نـزكيه على الله، ورحمه الله وتقبل منه وجعله في الصالحين.

الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر

عمار الطالبي*

-1-

بدأت صلتي بشيخنا محمد الغزالي رحمة الله عليه في الستينات، زرته في بيته مع زميلين في الدراسة، ثم زرته مرة أخرى وهو مسؤول في وزارة الأوقاف، وكان فرع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بالقاهرة قد كلفني بالحصول على مجموعة من الكتب لإنشاء مكتبة لهذا الفرع. ومضت سنوات على استقلال الجزائر، وكان أن دعي الشيخ محمد الغزالي لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنعقد سنوياً في الجزائر، فكانت له صولات وجولات فيما يلقيه من كلمات بليغة، وفيما يناقشه من قضايا المسلمين. في أحد الملتقيات أبرق إليه ابنه بألا يعود إلى مصر لأن الرئيس السادات سيلقي به في السجن، وكان قد حضر الرئيس ابن جديد زائراً ذلك الملتقى في ختام أعماله، فأبلغه وزير الشؤون الدينية في ذلك العهد الشيخ عبد الرحمن شيبان بهذا الخبر، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالي وقال له: الجزائر بلدك، فمرحباً بك داعية إلى الإسلام فيها.

وكانت إذ ذاك المساعي حثيثة لإنشاء جامعة للعلوم الإسلامية في الجزائر. وعلى الرغم مما وجدناه من صدود وعراقيل من عناصر ماركسية ماكرة، ويسارية كائدة، فإن ابن جديد آتاه الله رشده، فأصدر مرسوماً بإنشاء هذه الجامعة، وكان حريصاً أشد الحرص على أن يكون الشيخ الغزالي من مؤسسيها، وكان الشيخ الغزالي في ذلك الوقت أستاذاً زائراً في جامعة الأمير

---

* دكتوراه دولة في الفلسفة الإسلامي من جامعة الجزائر 1971م، أستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر.

عبد القادر للعلوم الإسلامية. وقدم وفد من الجزائر لهذا الغرض –كنت من بين أعضائه مع الأخوين: عبد الوهاب حمودة، وابن عبو- إلى قطر؛ ويشاء الله أن يحضر الشيخ محمد الغزالي حفل افتتاح الجامعة بمدينة قسنطينة سنة 1404هـ/1948م، وكان حفلاً كبيراً حضره رئيس الدولة وعدد كبير من الوزراء وكبار المسؤولين ووالي قسنطينة، وسفراء الدول الإسلامية. وكان الشيخ الغزالي أول المستقبلين، وكان قد تولى رئاسة ا لمي العلمي لهذه الجامعة وتوليت إدار ا، فاستبشر الناس بوجود الشيخ لما عرفوا من علمه ودعوته وفضله، خلال ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تذاع محاضرا ا ف التلفزة الجزائرية.

أقام الشيخ الغزالي أول الأمر في فندق "بانوراما" بمدينة قسنطينة، ثم انتقل إلى منـزل (فيلا) فأصبح جاراً لي، وسعدت أسرتي بجواره كما سعدت، ونعم الجوار جواره، يعمل وكله نشاط وحيوية ويسبقني أحياناً إلى الجامعة مبكراً ويفضل أحياناً أخرى أن يتجه إلى الجامعة راجلاً للارتياض، ولم تكن المسافة بين بيته وبينها بعيدة.

واختار الشيخ لنفسه أن يدرس تفسير القرن الكريم، وكنا أوصينا طلبة الجامعة أن يعودوا إلى تفسير العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (التحريم والتنوير) مرجعاً لهم، فاطلع على هذا التفسير، وقرأ منه وأعجب به، وأعتقد أنه قرأه لأول مرة، كما اطلع على كتابه مقاصد الشريعة، ولفت نظره أن ابن عاشور أضاف إلى مقاصد الشريعة مقصد "الحرية".

وصار في هذه الجامعة موجهاً وأستاذاً، ومفتياً، يزوره الناس للفتوى في الجامعة وفي بيته. ومن أهم ا'ماله في الجامعة وخارجها (لا أريد أن أتعرض للتفاصيل كي لا يطول الحديث) الدعوة إلى الله، وتحليل قضايا المسلمين، ونقد ما يعانون من أمراض ومآسٍ، وأصبح الناس ينتظرون حديث الأسبوعي الذي يلقيه في التلفزة يوم الاثنين، يستمع إليه جمهور الناس، ويفهمونه في مختلف أرجاء البلاد لسهولة عبارته، ووضح فكرته، وصدق لهجته، وحسن استشهاده بالقرآن الكريم الذي يجري على لسانه بيسر واضح، فتفهمه الجماهير بفطر ا

لأنه يخاطبها في أعماقها وينفذ إلى أعماق قلو ا، كما كان يلقي في قسنطينة كل يوم جمعة تقريباً درساً في أحد مساجدها الجامعة، وغالباً ما يكون في التفسير الموضوعي لسورة من السور، ينـزلها على أوضاع المسلمين قديماً وحديثاً، يعرض مفاصلها ووحدات موضوعها عرضاً موجزاً لكنه مستوعب، فتصبح بذلك السورة صورة شمسية، كما يقول، معروضة أمام عينيه، يفصل القول في موضوعها فيرسم بذلك وحدة متكاملة متناسقة، ما يظنه بعض الناس أشتاتاً أو أجزاءاً مفككة.

وكان يفعل هذا أيضاً في جولات يدعى فيها إلى ولايات أخرى في الجزائر غير ولاية قسنطينة، يتنافس الناس فيها على دعوته لإلقاء درس أو موعظة أو محاضرة. وقد سافرت بصحبته إلى عدة ولايات في أعماق الجزائر، في الصحراء وغيرها، وكان لا يرد دعوة وإن شق عليها لسفر أحياناً، وهو في شيخوخته تحسبه شاباً في عزمه وتوكله، ينتقل أحياناً بالسيارة مسافات بعيدة، وأخرى بالطائرة ثم السيارة، وهو في ذلك كله يشعر بسعادة غامرة في دعوته إلى الله، وفي لقائه مع المؤمنين شباباً وشيوخاً، نساءً ورجالاً.

ذا وصل ما انقطع من دعوة الإمام ابن باديس والشيخ الإبراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة والتجديد الذين دعوا في الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي، وجاهدوا في الله حق جهاده، وحسِب الناس أن ابن باديس قد بعث، وأن الإبراهيمي قد عاد.

ومن الأحداث التي شهدها أول مرة في حياته زلزال هز مدينة قسنطينة، فخرج من بيته فزعاً وكان الزلزال قد حدث بعد المغرب، ولم ينس أن يعبر عن هذه الواقعة في تفسيره قائلاً: "وقد شهدت زلزالاً لم يستغرق نصف دقيقة كدنا نفقد فيه وعينا".[1] كما أشار إلى ذلك في تفسيره لسورة الزلزلة: "وقد عاينت زلزالاً من نصف دقيقة طار لها اللب، وهام الناس على وجوههم منه".[2] خرجت زوجتي فرأته خارج منـزله يهرول، فسألته عن حاله، فقال: اطمئني

[1] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1416هـ/1995م، ص367.

[2] المصدر نفسه، ص 535.

لا شر إن شاء الله، وأثّر هذا في نفسه، فألقى حديثاً في التلفزة حول هذا الموضوع، وعتب على الناس مبالغتهم في الهلع، والخروج من ديارهم هائمين، يبيتون خارجها عدة ليال.

ولا أنسى موقفاً اغرورقت فيه عيناه بالدموع، وشهق شهقة عميقة لما أن زرنا مدينة خنشلة المشهورة بحمامها المعدني الطبيعي. وقمنا بزيارة مقبرة الشهداء، وكانت قصتها عجيبة، إذ عثر على حفرة هائلة ألقى الاستعمار الفرنسي فيها جثث ألف شهيد بقيودهم وأغلالهم ولباسهم وأحذيتهم، فنقلوا ودفنوا في مقبرة فيها ألف قبر لألف شهيد تقع المدينة المشار إليها في منطقة الأوراس ا اهدة، وذلك بعد الاستقلال.

وقد عانى شيخنا من عنت جهلة المتدينين وأنصاف المتعلمين وفتيان السوء[3] –كما يسميهم – ممن يتطاول على الأمة في الدفاع عن أحاديث لا يفهمون مرماها، وقد تكون من أوهى المرويات وأضعفها. وكان يفد إليه ويجلي في مجلسه في الدرس أصناف من هؤلاء ممن يفتون بسقوط الزكاة في عروض التجارة، ويزعمون أ م من أهل الحديث وأنصار السنة، وقد أشار إلى ذلك في أحد مؤلفاته الذي دعاه إلى تأليفه في الجزائر أمثال هؤلاء: "وقد ظهرت في الجزائر فتوى لواحد من أهل الحديث حاربناها بقوة قبل أن تصيب الإسلام وأهله بضر شديد... فكيف يزعم زاعم أن عروض التجارة لا زكاة فيها؟! وأين يذهب بقوله تعالى: يا أيها الذِين آمنوا أَنِفقُوا مِما رزقْناكُم (البقرة: 254).، ولكن الشاب المشتغل بالحديث النبوي نادى في الناس ألا زكاة في عروض التجارة، إ لا أصل لها فيما قرأ...".[4] لذلك كله نجده يعنف في الرد على أمثال هؤلاء الذين لا يتدبرون القرآن، ولا طبيعة الدنيا التي نعيش فيها، فإنه لا فقه مع العجز عن فهم القرآن، وفهم الحياة، إذ يختطف أحدهم حكما من حديث منفرد فيشقي البلاد والعباد.[5]

---

[3] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفق وأهل الحديث، القاهرة: دار الشروق، ط1، 1406هـ/1989م، ص15.

[4] المصدر نفسه، ص25.

[5] المصدر نفسه: ص26.

وقد سأله طالب وهو في الجزائر: أصحيح أن موسى عليه السلام فقأ عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه؟ ففكر في الحديث وراجعه في مصادره، وقرر أنه معلول المتن بعلة قادحة، وأنه لا داعي للدفاع عنه، وإن صح سنده،[6] كما فعل الإمام المازري.

ووقعت له نادرة أخرى في الجزائر، أتاه رجل طويل القامة، ضخم الجسم، فقال له: "إنه مسكون... قلت: من يسكنك؟ قال جني عات غلبني على أمري، فقلت وأنا أضحك: لماذا لم تسكنه أنت؟ إنك رجل طويل عريض، فسكت حائراً".[7] وأنقل هنا عبارة له تدل على ضجره الشديد بأمثال هذه الظواهر في المجتمع الإسلامي: "قلت وأنا ضجر: هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟! لماذا لم يشك ألماني أو ياباني من احتلال الجن لأجسامهما؟ إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم"،[8] ولم يأت الشيخ في هذا الإنكار ببدع من القول، فقد حارب المعتزلة وغيرهم من العلماء من قبله هذا ورفضوه. وأغلب ما كتبه وأشار إليه في كتاب السنة النبوية قصة علي في أحاديث جرت بيننا قبل أن يسطرها في كتاب، بل إنه ألقى حديثاً في التلفزة في هذا الإسكان الجني في أجسام البشر.

وقد سعدت أيما سعادة في صحبته في أسفار كثيرة كما أشرت، داخل الجزائر وخارجها، منها سفرنا لحضور مؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان (الأردن) مرتين، مررنا على روما، وبتنا بهذه العاصمة التاريخية، فكان نعم الصاحب في السفر ونعم الملتزم بالأوقات في حله وترحاله، يؤنسك بنكاته ونوادره، ويجعلك لا تشعر بالمسافات في صحبته.

وأشاع المشتغلون بالمرويات الواهية وفروع الفقه بلا فهم في أوساط طلاب الجامعة أن منهاج الجامعة الدراسي مقصود به مضادة الشريعة ومضايقتها، لما أن وجد من بين مواد الدراسة مداخل للعلوم البيولوجية والفيزيائية قصد منها أن يكون للطالب تكوين علمي عام.

---

[6] المصدر نفسه، ص26-27.

[7] المصدر نفسه، ص 26-27.

[8] المصدر نفسه: ص92.

وأذاعوا أن منهاج الجامعة أخذ من جامعة السوربون، وأ ا لا تم بالعلوم الشرعية بقدر ما تم بالعلوم البعيدة عن الشرع، كما أشاعوا أن الجامعة ا جواسيس تابعون للموساد، لأننا جعلنا من بين موادها دراسة اللغة العبرية لمن يتخصص في مقارنة الأديان، يختار بينها وبين اللغة اليونانية، فاستغربوا ذلك، لأ م يتصورون أن هذه الجامعة تقتصر على دراسة الفقه المالكي من مختصر الشيخ خليل وشروحه أو مؤلفات الشيخ الدردير لا تتجاوز ذلك، ولا تعدو أن تكون "زاوية" على النمط القديم.

كما كان في الجزائر فريق من الناس يرون أن الجامعة قنبلة مؤقتة، وأ ا خطر داهم، وهم الذين يحقدون على الإسلام ويمكرون به، فوجدوا سبيلاً إلى نسف الجامعة في مثل هذه العقليات الغبية المتحجرة، ولم يسلم الشيخ الغزالي من أن يهتم بعد ذلك بأنه هو السبب فيما يدور في الجزائر من مشكلات، ا مه بذلك أحد كبار المسؤولين، بل أكبرهم، في وقت من الأوقات، وصرح بذلك في القاهرة في جمع من اليساريين ممن يحترف الكتابة والإعلام والثقافة.

أوعز هؤلاء الذين يريدون هدم هذه الجامعة لأولئك الذين ضاقوا ذرعاً بمنهجها وبمضايقة العلوم الكونية في نظرهم للعلوم الشرعية، ليقوموا ضدها، ويحاربوا إدار ا التي عزمت على أن تقيم قبة فلكية، وكنا فعلاً اتفقنا مع شركة، ورصدت لذلك ميزانية لبناء هذه القبة، وإنشاء معهد للتراث الفلكي الإسلامي، ولدراسة العلم الفلكي الذي أهملته الجامعات الأخرى في الجزائر، فأثاروا الشغب حولها، وساعدهم الوالي على ذلك الذي صادف هواه في كره هذه الجامعة والحقد عليها.

وكان الشيخ الغزالي رحمه الله في ذلك الوقت قد تعب لما أصابه من جلطة في دمه، كما أصابه وصب وضير من اختلاف هذه الجماعات خارج الجامعة، وتنازعها، كل جمع منهم يريد أن يسيطر على الجامعة بما له من بعض الأتباع من الطلبة، وضاق عليه أمره، وشعر بأس شديد، فأفسدوا على الجامعة أمرها ودخلوا مكتب المدير، واحتلوه، وحلا لهم الجلوس فيه والأكل. وفي هذه الفتنة وجد خصوم الجامعة ضالتهم، وحدث قبل ذلك أن زارت الشيخ ابنته حرم

الأستاذ محمد عبد القدوس، وشعرت بما فيه أبوها من ضيق وقلق، وما أصابه من جلطة في دمه، فألحت عليه العودة إلى القاهرة، وإن كان في نفسه عازماً على المضي في سبيل المناضلة والدعوة، فكتب خطاباً لوزير الشؤون الدينية يعتذر فيه عن الاستمرار، وكنت أخبرت وزير التعليم العالي بالأمر، وألححت عليه أن يكتب خطاباً للشيخ يرجوه الاستمرار في عمله حتى لا يجد الخصوم منفذاً للإفساد، ففعل. ولكن الشيخ لم يستطع أن يرفض إلحاح ابنته عليه، وقد أشاعوا أيضاً أنني على خلاف شديد مع الشيخ الغزالي، وأني ضايقته، وفرضت عليه المناهج الدراسية التي استقيتها من جامعة السوربون الكافرة كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وتظاهر الوالي بإقامة حفل توديع للشيخ، وأغرب شيء أنه أعطى الكلمة لهؤلاء الطلبة الذين عبثوا بالجامعة في هذا الحفل، ومنعني من الكلام لأودع شيخنا وأنا في غاية الحزن من أن أمنع من ذلك، وأنا الذي صحبته وعملنا سوياً طوال خمس سنوات بما فيها من سمان وعجاف، وأنا مدير لهذه المؤسسة الرسمية، فانظر واعجب من سلوك الحاقدين المستبدين!!

-2-

وهكذا غادر الشيخ الجامعة بعد خمس سنوات من العمل الدؤوب من سنة 1984م إلى سنة 1989م، وكان ذلك آخر عهد له ـذه الجامعة، ثم غادر ـا من بعده أيضاً مكرهاً، بعد أن نصب وزير التعليم العالي في ذلك الوقت لجنة من أنصاف المتعلمين تشرف على الجامعة، ثم أقالني من هذا المنصب غير المأسوف عليه. وبعد مدة خالفني الدكتور أحمد عروة رحمه الله، فعانى من أولئك النفر ما عانى، وذاق ألواناً من العسف والضيق إلى أن توفاه الله إليه، وأصبحت الجامعة اليوم شبه زاوية كما كانوا يحلمون، وهكذا الصبيانية الدينية تذبح نفسها بنفسها وتدمر ذا ـا بسعيها إلى حتفها بظلفها.

وأثناء وجودنا –ولله الحمد- استطعنا أن ننشئ فروعاً للجامعة، منها معهد اللغة العربية والحضارة الإسلامية بوهران في غربي الجزائر، ومعهد الشريعة بباتنة في منطقة الأوراس، ومعهد آخر في أعماق الصحراء في أدرار في الجنوب

الغربي من الجزائر، بالإضافة إلى معهد أصول الدين في الجزائر العاصمة الذي أنشئ قبل جامعة الأمير عبد القادر تابعاً لجامعة الجزائر سنة 1982م. وكنا على وشك أن نفتح معهداً آخر في "عزابة" شمال شرقي قسنطينة، ولكن لما بدأ شغب المشاغبين يهدد الجامعة، أخبرني وزير التعليم العالي أنه قرر عدم فتح هذا المعهد بعد أن وافق عليه، بسبب الذي حدث، فأوقف ذلك، مع أنه كان يشرف على بناء هذا المعهد وإعداده من أموال التبرعات الشعبية الرائد علي بومنجل ذكره الله بالخير إن كان ما يزال على قيد الحياة، وهو أحد ا اهدين المعروفين بمحاربته للاحتلال الفرنسي، كان رئيس جمعية محلية أسست لهذا الغرض فخاب أمل الجمعية وأمل هذا ا اهد، ولم يتحقق منه شيء إلى يومنا هذا.

-3-

والآن يمكن لي أن أشير إلى بعض السمات البارزة التي اتضحت لي من تعاملي مع الغزالي ومن الحديث معه ومن قراءتي له. إنه كاتب يستعمل عقله، وإن للعقل عنده مكانة متميزة، ولا يسمح لنفسه أن يأخذ بما يخالف العقل، وهذا ا/ر في غاية الوضوح فيما يتحدث به وفيما يكتب. يقول: "إنني بعقلي أدركت أن للكون سيداً أبدعه، ودبر أمره، وأيقنت أن هذا السيد واحد لا اثنان لا ثلاثة...".[9] هذا في أصل العقيدة نفسها فما بالك بغير ذلك، وأنا لا أشك أن مثل هذا الاعتزاز بالعقل والسمو به وتحكيمه في الأمور كلها إنما هو ناشئ من شخصيته التي رباها القرآن، ومن تلاوته له تلاوة واعية، وتدبرها لمعانيه، وهذا ما جعله يعبر عن ذلك بأنه: "ليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاء، ويعرض آيات الله في الأنفس والآفاق لتكون ينابيع فكر يتعرف على الله، ويستريح إلى عظمته كما وقع في هذا القرآن"،[10] بل إنه جعل: "التفكير الواعي العميق أساس هذه الرسالة، سواء فكر المرء وحده أم استعان بأصدقائه، المهم أن يستيقظ العقل النائم فيرى آيات ربه في

[9] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص103.

[10] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 105.

آفاق العالم..."،[11] ويرى "أن التفكير خاصة العقل الحي، وسمة الإنسان الراشد، وكل تدين ينبو عن منطق العقل ويرفض حقيقة الفطرة، فهو لغو من عند الناس، وليس وحياً من عند الله سبحانه"،[12] بل إن "ما خالف العقل لا يكون ديناً ولبعض الناس مرويات لا إسناد لها يجعلو ا ديناً وما هي بدين"،[13] كما أن الدين عنده من جهة أخرى: "علم مقطوع به، والوحي حصانة للعقل وضمانة لأحكامه".[14]

ولكن مع هذا كله فهو يعرف حدود العقل وطاقته: "وطمحت أفكاري إلى حد فوق طاقتها فتساءلت عن هذا العرش والاستواء؟ وكان الجواب: إن الذي يجهل ما تحت قدمه لا يصلح له التطاول، خير لك أن تعرف لماذا وجدت، وأن تحقق الحكمة من وجودك، فهذا أولى بك وهو الذِي خلَق السماواتِ والْأرض فِي سِتةِ أيامٍ وكَانَ عرشه علَى الْماءِ لِيبلُوكُم أيكُم أحسن عملاً (هود:7)، فلأحسِن عملي، ولأصقِل عقلي، ولأزكي نفسي، ولأحقق ثمرة وجودي، فهذا أولى بي، وأجدى علي".[15]

وكثيراً ما ينعى على المسلمين، ويقد مسالكهم، ويحزنه جهلهم بالكون في عصرنا هذا: "والمحزن أن العقل الإسلامي الآن جهول بالكون، تائه عن قوانينه، ضعيف الخبرة ا، والقدرة على استغلالها... والمفروض أن العقل المؤمن أخبر بالحياة، وأذكى في الكون من العقل الملحد، لأن الإيمان بالله يقوم في الإسلام على تأمل للكون، ووعي بآيات الله في آفاقه، إنه لشيء يثير الحزن والقلق أن نجد المسلمين في مؤخرة القافلة البشرية على النحو الذي يقول فيه الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرونَ وهم شهود[16]

---

[11] نحو تفسير موضوعي، ص 334، وذلك في تفسير قوله تعالى: قُلْ إنما أعِظُكُم بِواحِدةٍ أنْ تقُوموا لِلهِ مثْنى وفُرادى ثُم تتفَكروا﴾ (سـبأ: 46).

[12] المصدر نفسه، ص210، في تفسير قوله تعالى: وأنزلْنا إِلَيك الذكْر لِتبين لِلناسِ ما نزلَ إِلَيهِم ولَعلهم يتفَكرونَ﴾ (النحل:44).

[13] المصدر نفسه، ص 416.

[14] المصدر نفسه، ص416.

[15] المصدر نفسه، 175.

[16] المصدر نفسه، ص 471.

وهو يطبق هذه السمة التي اكتسبها من توجيه القرآن، فأصبحت فيه سجية راسخة، تطبيقاً واضحاً في الأصول والفروع، وفي الأحداث والظواهر المختلفة: "إنني أتبع محمداً، لأن كتابه تجاوب مع ضميري! إنني عرفت الله بعقلي بعدما نظرت في نفسي، وفي آفاق العالم الذي يضمني وسائر البشر"،[17] وذلك لأن: "الإيمان الذي يقوم على تخدير العقل، أو تمويته، لا وزن له، ولا خير فيه، ولكن جماهير غفيرة تنحي العقل جانباً، ثم تتكلم، فكيف يسمع لها؟"،[18] فالعقل في نظره "أثمن ما وهب الله للناس".[19]

ونختم سمته العقلية هذه التي صبغت منهجه في أحاديثه وكتاباته بعتاب له، يعتب فيه على أسلافنا في هذا ا ال: "وقد عاتبت أسلافنا على هجرهم للفلسفة القرآنية الدراسة للمادة، وانشغالهم بالفلسفة اليونانية الباحثة في التصورات والأوهام، وإن كان من آبائنا من سد هذه الخلة، لكنهم للأسف قلّة".[20]

وأعترف أني قد استفدت منه هذا الجانب في نظرتي للقرآن، وللأحاديث وخاصة الواهي منها، فاسترحت مما أجده في نفسي منها في قراءتي لبعض نصوص الأحاديث من هذا القبيل، في مجالس كثيرة تجري بيننا فيها أحاديث في هذا الموضوع. وعلى الرغم من اشتغالي بالفلسفة فإني كنت أتوقف عندها، وأتخذ لنفسي فيها مذهب الوقف، حتى أزال عني هذه الغشاوة فصرت إلى ما صار إليه من وضوح في الرؤية إزاء ذلك كله.

وهناك سمة أخرى لمحتها في أحاديثه وكتاباته وهي أنه يتساءل، ويلاحظ، ويتأمل، فهو يمتاز بدقة الملاحظة في الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبتأملاته في ظواهر الكون التي تثير انتباهه، وتفسيره للقرآن، وأحاديثه مليئة ـذا: "إن غزاة الجو –وهم في الطريق إلى القمر- نظروا إلى الأرض وهم على بعد مئات الأميال منها ثم تساءلوا: من يمسكها في مكا ا؟ وأتساءل معهم: من

---

[17] المصدر نفسه، ص 456.

[18] المصدر نفسه، ص 456.

[19] المصدر نفسه، ص 456.

[20] المصدر نفسه، ص 515.

يمسك الماء على سطحها وهو أربعة أخماس الكرة؟ لماذا لا ينسكب في الجو؟ لأن الله جعل الأرض كفاتا،[21] تجذب كل قطرة إليها، أي لطافة سارية في طباق البر والبحر تقوم ذا الصنع الباهر؟".[22]

وهو في ملاحظاته أيضاً يتابع برامج عالم الحيوان والبحار في التلفزة، ويتأمل ويعجب: "إنني أتابع برامج عالم الحيوان وعالم البحار، وأعجب كيف تتكاثر الأحياء، وكيف تتفانى، وكيف يجعل الله طعام طير سارح من دودة ملصقة بظهر حيوان ضخم، يستريح حين يأكلها هذا الطير!!"،[23] ويرمق هذه الظواهر الطبيعية وهو في الطائرة مسافراً، تجوب أجواء الصحراء أو البراري والجبال، وتقطع ركام السحاب في شمال الجزائر وجنو ا، ويسبح الله حين يلحظ جبالاً من السحاب المركوم، تعلوها الطائرة، فيرى السحب تحتها. وهو لا يستنكف أن يأخذ معلومات علمية عن راديو أثناء استماعه له، وينقلها في تفسيره إذا كان مصدر الحديث موثوقاً به علمياً.[24]

-4-

ومن أهم ما استفدت منه شخصياً، وأفاد منه جمهوره في الجزائر، ومن يحبون أن يأخذوا عنه من المتنورين، طريقته في التفسير الذي نحا فيه نحواً جديداً، وسبيلاً ليسلكه من كان قبله في تفهيم القرآن، وقد عبر عن ذلك هو نفسه –كما فعل ابن خلدون في المقدمة في إنشائه لعلم جديد، هو علم الاجتماع البشري- عبر عن ذلك في صدر تفسيره قائلاً: "هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم... قد أرتاد طريقاً لم أسبق إليه، أفتح به باباً من أبواب الخير"،[25] وميز في ذلك بين التفسير الموضوعي والتفسير "الموضعي" أو التحليلي، والتفسير الموضوعي قد يكون هدفه تفسير الوحدة الموضوعية لكل سورة على حدة، وقد يكون تفسيراً لوحدة موضوعية معينة، من خلال القرآن كله، تتبعاً واستقراء.

---

[21] وذلك في تفسيره لكلمة "كفات" التي وردت في سورة المرسلات: 25-26، وأ ا الجاذبية الأرضية: ﴿ألم نجعل الْأرض كِفَاتاً﴾.

[22] المصدر نفسه، ص494.

[23] المصدر نفسه، ص301.

[24] المصدر نفسه، ص191.

[25] المصدر نفسه، ص5.

وهذا الارتباط الحميم بالقرآن ليس شيئاً جديداً طارئاً على حياته، بل إنه لزمه منذ طفولته، وتشربه قلبه منذ نعومة أظفاره: "لقد صحبت القرآن من طفولتي وحفظته في سن العاشرة، ومازلت أقرأه وأنه في العقد الثامن من العمر".[26] ويرى مثلاً أن سورة النساء ربما يخدع عنوا ا بعض الناس، فيظنها قاصرة على شؤون المرأة فيقول: "وقصار النظر يحسبون السورة أجزاء مفككة، وهذا خطأ يحمي الله منه أهل التدبر والاعتبار"،[27] ثم يبين "أن موضوع السورة عام، يتناول ا تمع كله... فحديث النساء جزء من كل"،[28] وهو في ذلك يصور القرآن ومعانيه تصويراً جميلاً متناسقاً: "إن معاني القرآن متداخلة متضافرة تلتقي كلها في سياق واحد، يعمل عمله في النفس، وليست هدايات القرآن فصولاً مقسمة على نحو متميز، وهكذا العالم نراه مصدراً لأشتات العلم، وهو كيان واحد، يستقي منه علماء الأحياء، وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك...".[29] وهذه المقابلة بين آيات القرآن ومعانيه، وآيات الأكوان وتناسقها وغناها، لم يسبق إليه فيما أعلم. ويصف تتابع معاني سورة الأعراف مثلا بأ ا: "مع بدء السورة بدأت عدة معان مجملة، أخذت تتسع كأ ا رؤوس مثلثات تضمنت قواعدها تفاصيل شتى، على أن هذه المعاني لا تسير في تيارات منفصلة، بل تراها وهي تتلاقى، كأ ا ضفائر متناسقة، هدفها جميعاً الإيمان، والعبرة، والاستقامة والوعي"،[30] ولكنه يعود فيصف سورة يس، بأ ا ذات مقدمة وثلاثة فصول،[31] فكل سورة لها معانيها ونسقها وهدفها الرئيس.

وقد يسأل سائل: هل كان الشيخ بدعاً في تفسيره؟ وهل تأثر بقراءاته لتفاسير غيره؟ وإذا أراد أن يستأنس بغيره في معنى من المعاني أو في سياق من السياقات هل يشير إلى ذلك؟ تساءلت هذا السؤال فرأيته يذكر في تفسيره الشيخ رشيد رضا، ويستفتيه : "وبعد إعمال الذهن وإدامة التدبر لم أعد بطائل

[26] المصدر نفسه، ص5.
[27] المصدر نفسه، ص70.
[28] المصدر نفسه، ص70.
[29] المصدر نفسه، ص112.
[30] المصدر نفسه، ص118.
[31] المصدر نفسه، ص340.

فقلت أستفتي صاحب المنار، وأتعرف على رأي الأستاذ الإمام، فوجدت الجواب السائغ"،[32] ونقل عنه أيضاً في تفسير سورة النساء نصاً طويلا،[33] ومن مصادره التي أشار إليها تفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، وأيده فيما ذهب إليه من رأي: "وأنا أؤيد تفسير الفاضل[24]ابن عاشور"،[35] ونقل عنه أيضاً: "وقال ابن عاشور في تفسيره: إن اللقاء هنا الجهاد"،[26] وأخذ عنه كذلك رأيه في تفسير "الرق المنشور" في سورة الطور على أنه صحائف موسى: "وهذا رأي العلامة ابن عاشور"،[37] ووصفه هنا بالعلامة لتقديره لتفسيره وآرائه. وقد رأيت في منـزله في قسنطينة تفسير ابن اجزي الأندلسي التسهيل فسألته عنه، فأثنى عليه لإفادته واختصاره، ولكن لم يذكره، ولم ينقل عنه في تفسيره، ولعله لم يلمح فيه شيئاً جديداً.

وينبغي أن نشير فيما يتعلق بتفسير وحدة السورة الموضوعية إلى أنه ذكر تأسيه بالدكتور محمد عبد الله دراز في تفسيره لوحدة الموضوع في السورة الواحدة: "وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه النبأ العظيم وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد".[38]

وأود هنا أن أذكر بعض الاجتهادات التي صرح أ ا اجتهاداته الخاصة، وأ ا فهم اهتدى إليه، أو معنى أوتيه أو اختاره من بين اجتهادات من تقدمه من المفسرين؛ من ذلك أنه يرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء،

---

[32] المصدر نفسه، ص32، تساءل عن ذكر الحج بعد الحوار مع أهل الكتاب، ولماذا جاء قبله أيضاً الحديث عن الأطعمة المحرمة والمحللة في سورة آل عمران.

[33] المصدر نفسه، ص215.

[24] وقع له سهو في الاسم لأن الفاضل بن عاشور هو ابن أبناء محمد الطاهر، وليس له تفسير، وقد لا يفرق بعض الناس بينهما كما فعلوا في ابن رشد الجد الفقيه وابن الحفيد الفيلسوف.

[35] المصدر نفسه، ص215.

[26] المصدر نفسه، ص321.

[37] المصدر نفسه، ص413.

[38] المصدر نفسه، ص5.

وليسوا كما يرى المفسرون هم الذين استوت حسنا م وسيئا م،[39] كذلك له اجتهاد في أنه يجوز تعدد الأئمة في صلاة الخوف، وأن وحدة الإمام أمر خاص بالرسول ﷺ،[40] كما شك في رأي الجيولوجيين في تحديدهم لبداية الجنس البشري، وذهب إلى رأي غير رأيهم.[41] ويرى أن عيسى عليه السلام جرت عليه سنة الموت فمات، وأن عودته إنما هي إحياء له من جديد[42]؛ وله اجتهاد خاص في سبب شيب الرسول ﷺ من سورة هود، رآه في توجيه الخطاب إليه مباشرة خلال السورة مرات متعددة من أولها إلى آخرها، الأمر الذي لا يوجد في غيرها،[43] وذهب في تفسير يأجوج ومأجوج إلى أ م يعيشون في الصين، وأنه يبدو من جرس الكلمة أ ا صينية،[44] مخالفاً في ذلك ما ذهب إليه ابن عاشور من أ م التتار والمغول، كما ذهب إلى أن الطوفان لم يكن عالمياً وإنما هو محلّي فحسب،[45] وأن انشقاقا القمر الذي ورد في فاتحة سورة القمر إنما هو انشقاق يقع في آخر الزمان حين تضطرب الأفلاك ويتغير نظام الكون.

وله فهم خاص في "الشفق" الذي ورد في سورة الانشقاق: "وقد بجا لي فيه هذا القَسم فهم إن كان حقاً فمن الله وله المنة، وإن كان خطأ فمن نفسي، وأسأله العفو: إن الشفق هنا إيماءة على تاريخ المسلمين، وما يعتريه من عسر ويسر، وهزيمة ونصر... وقد جئنا في أصيل العالم أو في شفقه، والغروب موشك"،[46] وذهب إلى رأي المطلقة طلاقاً بائناً والنفقة عليها؛[47] ولاحظ أن كلمة "القرآن" تكررت في سورة الإسراء نحو إحدى عشرة مرة، فبين السر في ذلك، وهو أمر لم يسبق إليه فيما أعتقد: "إن سورة بني إسرائيل (الإسراء)

---

[39] المصدر نفسه، ص 111.

[40] المصدر نفسه، ص 63.

[41] المصدر نفسه، ص 119.

[42] المصدر نفسه، ص 36.

[43] المصدر نفسه، ص 167، يحسن الرجوع إلى تفسيره لتكون الصورة أكثر وضوحاً.

[44] المصدر نفسه، ص 138، 257.

[45] المصدر نفسه، ص 348.

[46] المصدر نفسه، ص 507-508، يحسن الرجوع إلى المصدر لاستكمال الصورة وما ورد في ذلك من حديث رواه الترمذي لما طالعه الشيخ بدا له هذا المعنى التاريخي.

[47] المصدر نفسه، ص 565-566.

انفردت ـذه الخاصة علّ المسلمين يفقهون أن القرآن الذي صنع أمتهم قديماً، قدير على أنه يصبهم في قوالب السيادة والقيادة مرة أخرى...".[48]

-5-

ومن أهم مواقف شيخنا التي عشتها معه وشاهدته فيها محاربته التي لا هوادة فيها لبعض من يزعمون أ ـم دعاة، ويسمى هذه الظاهرة "بالطفولة" أو "فتيان سوء"،[49] ويقر ـا "بالطفولة الشيوعية" التي نقدها لينين. ويبدو أن الذي دفعه إلى تأليف كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" هو هذه الظاهرة الطفولية في الدعوة والفهم السقيم، والتعلق بالأحاديث وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت، دون النظر إلى القرآن، وهو ما ينبغي أن يدرسوه أولاً، ولذلك قال في أول هذا الكتاب: "وفي هذا الكتاب جرعة قد تكون مرة للفتيان الذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية ثم يحسبون أ ـم أحاطوا بالإسلام علماً، بعد قراءة عابرة أو عميقة"،[50] كما أن: "فيه درساً آخر لأولئك الذين يحاربون الفقه المذهبي ويركنون إلى سلفية مزعومة، عرفت من الإسلام قشوره، ونسيت جذوره"،[51] إذ إن "التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة".[52]

ومعنى هذا أن كتابه هذا صنعه لعلاج ما انتشر من فقه بدوي، وتصور طفولي للعقائد والشرائع،[53] وقد أدى هذا السلوك الذي ينظر إلى النقاب وتصير الجلباب نظرته إلى التوحيد، إلى تخويف الناس من الصحوة الإسلامية، ومكن الخصوم من بسط ألسنتهم[54] الحداد فيها، لا يفرقون في ذلك بين مستنير مستقيم الفكر والعمل، ومظلم معوج الفكر والعمل، وكأ ـم يريدون فيما يرى

[48] المصدر نفسه، ص 218-219.
[49] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص15.
[50] المصدر نفسه، ص 11.
[51] المصدر نفسه، ص 11.
[52] المصدر نفسه، ص 10.
[53] المصدر نفسه، ص 11.
[54] المصدر نفسه، ص 36.

الشيخ الغزالي "نقل تقاليد عبس وذبيان إلى أمريكا"[55] فيما يتعلق بالمرأة، فتجدهم "أرباب لحى"، وأصحاب هامات و قامات، يقعون على أحاديث لا يفهمو ا ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانقباض والخوف.[56] وتكمن وراء هذه القامات والهامات "عقلية طفولية" مخيفة تريد أن تقود الأمة إلى ظلام حالك. وهكذا تظهر في الميدان ظاهرة التدين الفاسد التي تضم إلى الدين ما ليس منه،[57] ففشلوا في عرض الدين، وشوهوا معالمه، وبذلك أصبحت الدعوة الدينية مهزومة في ميدان الإعلام.[58] فالتدين الفاسد يسلك سلوكاً غبياً، ويحسبه صاحبه من الإيمان بالغيب: "وقد رأيت في تجاربي أن الفرق بين تدين الشكل وتدين الموضوع هو قسوة القلب أو رقته، بعض الناس في طباعهم جلافة وقساوة، لا تخفيها صور العبادات التي يستهلون أداءها"[59]، وإذا قسا قلب من يزعم لنفسه قيادة الدعوة، فتلك هزيمة منكرة لا ناصر لها: "وقد لاحظ نقَدة الفكر الديني أن بعض الناس يقصر ثوبه دلالة تقوى، وفي قلبه كبر فرعون:،[60] ومقتضى الإيمان وفي صدورهم صلف وثرة، تستغرب قساوة قلو م، وخشونة جوانبهم":[61] ويسمي هذه الظاهرة أيضاً التدين الجاهل حينما يعتقد أصحابه أن التخلف في الدنيا أمارة التقدم في الآخرة:[62] "وهذا فهم منكر، فإن الدخول إلى الإيمان يكون من باب العلم الحاذق، لا من باب القصور البليد"[63] ولأن: "الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصر الإيمان أبله ولا قاعد"،[64] ويتساءل: "هل الفشل في الأرض هو

[55] المصدر نفسه، ص 51.
[56] المصدر نفسه، ص 108-109.
[57] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص106.
[58] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص138.
[59] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص 73.
[60] المصدر نفسه، ص 116.
[61] المصدر نفسه، ص 443.
[62] المصدر نفسه، ص 331.
[63] المصدر نفسه، ص 331.
[64] المصدر نفسه، ص 331.

طريق النجاح في السماء؟"[65] ويرى أن هذا هو ما أدى إلى فشل إدارة الأديان في الأرض، فإن الإيمان بالله يبنى –فيما يبنى عليه- على التأمل في الكون، ودراسة قوانينه؛[66] ويصور التدين بأنه: "قوة وبصيرة وليس وهناً ولا غباءً"،[67] وهو معنى قرآني خالص، حينما يصف القرآن الأنبياء والرسل بأ م ذوو الأيدي والأبصار.

ويرى شيخنا أن: "نصف فساد العالم يرجع إلى قصور رجال الدين، وتبلدهم النفسي"،[68] وذلك بسبب أنه: "قد تحولت موروثا م إلى دراسات شكلية لا ذب نفساً، ولا تصقل فكراً، إ م معها كالدواب التي تحمل صناديق الكتب ولا صلة لها بما حوت"،[69] وينصح الشيخ الغزالي أنصاف المتعلمين وأنصاف المتدينين "بأن يسكتوا أو أن يستحيوا"[70] إذا تكلموا في الإسلام، ولا علم لهم بالكتاب والسنة، ولا فهم.

إن علة انتشار الإلحاد والمادية إنما هي في نظره: "غياب الوحي الحق، لعجز حملته عن وعيه وتبليغه، وسيادة فلسفات وأديان أرضية، لا تشبع مة العقل، ولا ترضي أشواق الفطرة".[71] ويتساءل الشيخ الغزالي: لماذا لا يتعلم هؤلاء الدين، ويحسنون فقهه والعمل به وعرضه؟: "فإن القادة لا تكون أقل مستوى من المقودين"؛[72] وأنكى من ذلك كله وأدهى، أن يؤدي سوء الفهم، وسوء العمل إلى القتل والقتال، وسفك دماء الأمة: "وفي هذه الأيام النحسات، شاعت الخلافات في أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضا، بل إن حصيلة القتلى في الفتن الداخلية أربى من القتلى في محاربة الاستعمار الصليبي العائد، المتحالف مع اليهود والناقمين".[73]

---

[65] المصدر نفسه، ص 444.
[66] المصدر نفسه، ص 444.
[67] المصدر نفسه، ص 354.
[68] يقصد الديانات عامة.
[69] المصدر نفسه، ص 388.
[70] المصدر نفسه، ص 432.
[71] المصدر نفسه، ص 313.
[72] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 108.
[73] المصدر نفسه، ص 108.

هذا كله تحليل لأمراض الدعاة، وتشخيص لأدوائهم، ونتائج سوء أفهامهم وأعمالهم في ضعف الأمة وتآكلها.

ومن أهم أعماله التي عايشتها، وأفدت منها في حياتي الثقافية ما عالجه في أحاديثه وكتبه، وخاصة كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، من ظاهرة المرويات الواهية، وحملتها من ذوي العقليات الحرفية، ومنقطعي الصلة بفهم القرآن، وجعله مقياساً لما يقبل وما لا يقبل من الأحاديث، يصدرون الأحكام، ويرسلون الفتاوى، فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، ولا زلت أحذّر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل، وحديثهم عن الإسلام جريء، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكا ا من الكيان الإسلامي، المستوعب لشؤون الحياة". [74]

وكان شديد الحرص على: "شدة الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها، مستغرقون في شؤون أخرى، تعجزهم عن تشرب الوحي". [75]

وقد انتشرت أحاديث بين الشباب يأخذون منها أحكاماً سيئة، إن قبل سندها افتراضاً، فإن متو ا لا يصح قبولها؛[76] وهو يسلك في ذلك مسلك عمر بن الخطاب ﷺ ومنهج أبي حنيفة في الأخذ بظاهر القرآن وعمومياته، وتقديم ذلك على أحاديث الآحاد، وتقديم الرأي القوي على الروايات المشكوك فيها.[77] ويقوم منهجه على منع التناقض بين القرآن والسنة أو فهمها على غير وجهها، ونفي التناقض بين ذلك كله، وبين الواقع التاريخي الثابت.[78] ولذلك فهو يرى أن "من لا فقه لهم يجب أن يغلقوا أفواههم لئلا يسيئوا إلى الإسلام، بحديث لم يفهموه، أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضده"[79]وهو يشبه الذي يخوض فيميدان التدين وكانت بضاعته في الحديث مزجاة بالذي يدخل السوق

---

[74] المصدر نفسه، ص 22.

[75] المصدر نفسه، ص 24.

[76] المصدر نفسه، ص 30.

[77] المصدر نفسه، ص 32.

[78] المصدر نفسه، ص 50.

[79] المصدر نفسه، ص 52.

وليس معه إلا نقود مزيفة،[80] أو "شيكات"[81] لا رصيد لها. ولهذا وجبت اليقظة على الدعاة، فلا ينخدعون بالآثار الواهية أو الأحاديث الموضوعة، وأن يعرفوا المعاني الصحيحة لما صح منها، فلا فقه بلا سنة، ولا سنة بلا فقه.

ومن المآسي التي نبه إليها "أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه، لتكون دينا مع الدين"،[82] وهذا ما أدى إلى مسالك معوجة، كما لا حظ الشيخ: "وقد رأيت في هذه الأيام من يسمي نفسه أمير جماعة، والجهد الذي يبذله، يتصبب عرقاً وهو يقوم به، هو إشاعة النقاب بين النساء، أو إشاعة الجلباب بين الرجال، أو تحريم الذهب على النساء و الرجال جميعا، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله"،[83] حتى خيل لبعض الشباب المسكين: "أن الجلباب هو زي الإسلام، وأن البدلة زي الكفار"،[84] فالإسلام ليس كما يتصوره هؤلاء "ديناً إقليمياً، ولا فقهاً بدوياً ضيق النطاق"،[85] ولعلهم يريدون أن يجعلوا مصدر الدين هو ا تمع وأنه ظاهرة اجتماعية تصدر عنه، كما زعم بعض علماء الاجتماع.

وأدى الجهل بالقرآن إلى القول بأن لأحاديث الآحاد تنسخ القرآن، وهو: "زعم في غاية الغثاثة"،[86] فكيف تترك آية لحديث هو موضع لغط[87]. وهناك مرويات واهية إذا أخذ ا أدت إلى خراب العالم، كالآثار التي تزهد الزينة التي أخرج الله للناس في الدنيا: "لو جعلنا هذه المرويات محو حياة عامة لشاع الخراب في أرجاء الدنيا"،[88] ولو أن العالم الإسلامي اتبع هؤلاء الحرفيين لتراجع إلى العصر الحجري في بعض جوانبه.[89] ولطالما حذّر من هذا الطيش في فهم

---

[80] المصدر نفسه، ص 57.
[81] أصلها العربي: "صكوك" وأخذها الفرنجة وحرفوها.
[82] المصدر نفسه، ص 59.
[83] المصدر نفسه، ص 66.
[84] المصدر نفسه، ص 86.
[85] المصدر نفسه، ص 75.
[86] المصدر نفسه، ص 103.
[87] المصدر نفسه، ص 103.
[88] المصدر نفسه، ص 117.
[89] المصدر نفسه، ص 117.

المرويات، ووصف ذلك بالمرض المحذور،[90] إذ ليس لرواية الآحاد أن تشغب على الكتاب والسنة الثابتة، أو أن تعرض حقائق الدين للتهم والريب والنفور؛[91] ولا يصح أخذ الحكم الديني من حديث مفصول عن الأحاديث الأخرى، وعما دل عليه القرآن.

وخلاصة هذا الأمر عنده أن "القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب أو تنسخ أحكامه فهو مغرور"،[92] وهو في هذا يدفع الأحاديث الضعيفة والموضوعة أو المعلولة كما فعل غيره من المحدثين، لما رآه من افت الناس على هذه الواهيات والمعلولات التي تتنافى مع القرآن، وأصول الدين. ونعى على جماعة من البطالين والفاشلين وقوفهم عندما هو مرفوض، وحسبوه ديناً ثابتاً، وما هو من الدين، كما نعى على القاصرين ممن يشتغلون بالحديث بلا معرفة بحقيقته، ثم يحلو لهم أن يشغبوا على الدين كله، بلا وعي ولا فقه،[93] فشاعت أحكام طائشة، وأفهام سقيمة أدت إلى فتن عمياء، ومسالك ضالة مضلة.

-6-

ولم يفت شيخنا الغزالي أن ينقد نقداً شديداً مسالك الساسة المعوجة، واستبدادهم الهالك، كما نقد حملة الأقلام، وخدمة الحكام من الكتاب، وممن ينتسبون إلى الدين، وما يزينونه من أعمال الظلمة، وأن ينقد أيضاً الأيديولوجيات المختلفة الألوان والأشكال من قومية وشيوعية ورأسمالية واشتراكية وعلمانية ومادية، وأن ينقد الحضارة الغربية المعاصرة، وهذا أمر يطول الخوض فيه.

ولكن الذي وددت أن أختم به كلمتي هذه هو أن أتعرض لجانب نقدي ممتاز فاق فيه كل من تعرضوا له ألا وهو نقده لموقف ا تمعات الإسلامية من المرأة، وتحقيرهم لها وهي الأم والأخت والزوجة والبنت. فهو من أكثر الدعاة

[90] المصدر نفسه، ص 117.

[91] المصدر نفسه، ص 146.

[92] المصدر نفسه، ص 118.

[93] المصدر نفسه، ص 128.

إنصافاً لها، وذوداً عن حياضها وكرامتها، فهو يرى أن ا تمع الإسلامي حكم على المرأة بالموت الأدبي والعلمي مما يدل على أ ا أمة أكلها الجهل والاعوجاج، وأن ما يقوم به المشاغبون على سفور المرأة، يتصرفون في قضايا المرأة تصرفاً يهز كيا ا الروحي والثقافي والاجتماعي،[94] حتى إنه وضع حديث وضعاً لا أصل له، يمنع المرأة من تعلم الكتابة.[95] وقد أنـزلتها بعض الأوساط منـزلة الكلب: "لاحظت في بعض الأوساط الهابطة أن المرأة عليها وليس لها، وأ ا تعامل بامتهان وغلظة، وأ ا قد تأكل الفضلات في البيت، وتذهب أطايب الطعام إلى غيرها، والسبب الأول بعض المتحدثين في الدين من الجاهلين والتافهين"،[96] وذكر" "أن نفراً من المسلمين فارغي القلوب والعقول يحتقرون الأنوثة، ويهينون الزوجة والأخت والبنت، ويتقربون بحبسها وتجهيلها والاستطالة عليها".[97]

ويأسف الشيخ الغزالي أن يرى "عدداً من المتدينين يبني تقواه على الإغلاظ للمرأة، وإساءة عشر ا، وانتقاص مكانتها، حتى كره النساء في العالم كله الإسلام، وخافوا من سيطرته على ا تمع مع هذا الفهم الفاسد".[98] ويرى أنه ليس من المعقول في زماننا هذا "أن نمنع المرأة عندنا من ركوب سيارة[99]، على حين يعطيها العالم حق قيادة أمة، والسهر على مصالحها".[100] ويصف أولئك الذين يدافعون عن بقاء المرأة في الظلم بأ م أصحاب "غباوة رائعة"،[101] ولم أر لغيره من الكتاب هذا التعبير الساخر، فالمرأة ذات الدين عنده: "خير من ذي لحية كفور".[102] وينبه هؤلاء إلى أن امرأة يهودية: "شاركت في الهزيمة المخزية التي نـزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا... وقادت قومها، وأذلت

---

[94] المصدر نفسه، ص 41.

[95] المصدر نفسه، ص 54.

[96] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص21.

[97] المصدر نفسه، ص 49.

[98] المصدر نفسه، ص 48.

[99] لعله يقصد: قيادة سيارة.

[100] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص22.

[101] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص47.

[102] المصدر نفسه، ص 51.

نفراً من الساسة العرب لهم لحى وشوارب في حرب الأيام الستة، وفي حروب تالية"،[103] كما عاد المارشال يحيى خان يجر أذيال الخيبة إثر هزيمته أمام قيادة امرأة هندية: أنديرا غاندي[104] التي قصمت ظهر باكستان.

هذا ما أردت أن أعبر عنه، واخترت أن أنقل نصوصاً حرفية لشيخنا حتى لا يقال إني تقولت عليه أو سلكت في ذلك مسالك الخيال، والحمد لله رب العالمين.

---

[103] المصدر نفسه، ص 45.

[104] المصدر نفسه، ص 50.

العالم بين حدين
نظرة في المبادئ الموجهة للتجربة الغزالية

فهمي جدعان*

عرفت التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة -في تركيبها النظري والعملي الشامل- ثلة مرموقة من الرجال الذين رفدوها بعلم نظري غزير وبعمل "دعوي" وفير. إننا لا نفتأ نذكر محمد بن عبد الوهاب، والقاضي الشوكاني، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، والقاسمي، والمغربي، والألوسيين، والندوي، والمودودي، وسيد قطب، وكثيرين آخرين، لكننا لا نملك إلا الإقرار بان الشيخ محمد الغزالي كان، في تقدير جملة الناظرين، من أبعدهم أثراً في "الملأ" منهم. لا أحد يخطر في باله أن الشيخ الغزالي قد ابتغى صوغ منظومة فكرية تصورية محكومة بآليات المنطق التقني ومنهجيات العلم الطبيعي السائرة، على ما تجد عند المفكرين والفلاسفة أو اللاهوتيين أو المتكلمين المحترفين أو فلاسفة العلوم الوضعية، لأن منظومته التي تمثلها وأحياها وسعى على الدوام إلى نشرها كانت "الإسلام" نفسه، في جملته، وفي وجوهه التفصيلية المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والخلقية والروحية، ولأن المبدأ الرئيس الموجه لتجربته وحياته تمثل في أن "الإسلام للحياة".

لكن ذلك لا يعني أبداً أن تجربة الشيخ الروحية كانت تجربة "شاردة"، تند عن الموجهات المنهجية والمبادئ التأسيسية الصلبة التي كانت توجه حِراكه النظري والعملي في دينا البشر، أو أ ا كانت محض تمثلات "عاطفية" لروح متوثبة متحمسة مناضلة، أو خالص "وعظ إقناعي" يتوجه إلى عامة الناس أو إلى قوم لا يأ ون بالأسس الموضوعية للخطاب الذي يتلقونه. فواقع الأمر أن المبادئ "الموضوعية" التي أسست "العقل الإسلامي" الغزاليّ كانت ماثلة على الدوام في جميع أعماله العلمية والفكرية التي نتداولها ونقلبها من أجل النظر

* دكتوراه دولة في الفلسفة من جامعة السوربون، باريس 1968م، أستاذ الفلسفة والفكر العربي والإسلاميين وعميد كلية الآداب بجامعة البنات الأردنية في عمان.

والتأمل، أو من أجل البحث، أو من أجل نشدان الفائدة. كما أن الذين استمعوا إلى دروسه أو التقوا به وبادلوه الحوار أو الجدل أو السجال يعرفون ذلك حقاً.

وهذه المبادئ الموجهة أربعة رئيسة هي: الإيمان والعقل والعلم والعاطفة الوجدانية. وقد يمكننا ردها إلى حدين مركزيين تتردد بينهما جميع هذه المبادئ وهما: حدا الإيمان من طرف أول، وإليه يرد مبدأ العاطفة الوجدانية، والعقل من طرف ثان، وإليها يرد العلم أساساً.

لا يتطلب واقع الحال إلا القدر الأدنى من تقليب النظر لإدراك معطى أساسي بين هو أن واقعة "الإيمان" هي الواقعة المبدئية، الصلبة، الأصلية، التأسيسية، البانية لكل ما صدر عن الغزالي من قول أو نشاط أو فعل. ومن الطبيعي أن يكون الأمر على هذه الحال، لأن الرجل أسلم نفسه للإسلام وعلّق به حياته كلها ورهن هذه الحياة لرسالته الدعوية المناضلة. والحقيقة أن "الإيمان" عنده لم يكن مجرد إقرار باللسان وتصديق بالقلب، مثلما عرفه أهل الفرق الإسلامية القديمة، فهذا التحديد تحديد ناقص، إذ إنه يغفل عن أسس وخصائص أخرى "موضوعية" يتقوم الإيمان ا. إنه يحدد الإيمان بأنه "معرفة بلغت حد اليقين، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع".[1] ولا شك أن هذا اليقين "تصديق" أو تصديق تام –وهو مصطلح القدماء- لكن هذا التصديق ذو أساسين صلبين: أولهما نظري، وثانيهما نفسي: أولهما "عقلي"، وثانيهما "قلبي". فمعنى أن نؤمن بالله أننا "نعرفه"، وأن هذه المعرفة معرفة "ممتلئة" باليقين لا يساورها أي شك أو ريب أو تردد، وأن التصديق الذي يتلبسها هو تصديق عقلي يستند إلى أدل موضوعية وعلمية، ونفسي يتمثل في الاطمئنان إلى هذه الحقيقة، وفي سريان تيار شعوري في النفس يملؤها ثقة وسعادة وإقبالاً على الحياة وعلى الله ورضوانه. والحقيقة أن الشيخ الغزالي يفارق هنا التيار العقلاني الخالص الذي مثله في الإسلام المعتزلة وابن رشد وجملة المتكلمين والفلاسفة؛ إذ لم يخص العقل بمطلق الرجعية في المعرفة. كما يفارق تيار "أصحاب الحديث" القدماء الذين خصوا (النص) بمطلق المرجعية، ولم يتمثلوا لأنفسهم هذا المركب الفريد للمعرفة.

---

[1] محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، (الإسكندرية: دار الدعوة، 1990م)، ص26.

لا شك أننا نستطيع أن نتصور أن هذا الموقف ليس إلا تركيباً بين (تيار الرأي)، العقلاني على وجه الإجمال، و (تيار الصوفية)، الروحي بإطلاق. كما يمكننا أن نذهب إلى أن الغزالي لم يكن هنا إلا تلميذاً أميناً على التقليد الراسخ الذي أرساه الشيخ محمد عبده إذ جمع، في تأسيس المعرفة الدينية، بين العقل والوجدان، على ما ساقه في رسالة التوحيد. وأعترف بأنني أميل إلى هذا التعليل، إن أنا حرصت على أن أتعلق بمناهج الأكاديميين والباحثين العلميين في النظر والتحليل، وبخاصة بسبب ما أتبينه من وجوه التأثير واللقاء والتآلف بين فكر محمد الغزالي وفكر محمد عبده. لكنني مع ذلك أرى أن المسالة في اية التحليل ليست مسألة "مؤثر" و "متأثر"، بقدر ما هي مسألة تجربة معيشة حية تجسد حال فكرية نفسية وجدانية مشخصة، هي أن الرجل كان كتلة حية متوثبة من قوة العقل وحرارة الوجدان والعاطفة وجدت نفسها مشخصة في هذا المركب الحي، مركب العقل والوجدان.

ومع أن للقلب أحكاماً لا يعرفها العقل –مثلما تقول عبارة باسكال الشهيرة- إلا أن العقل يظل مبدأ موجهاً أساسياً في المعرفة عند الشيخ الغزالي، وثقته فيه أعظم بكثير من ثقة باسكال فيه، مثلما هي أعظم بكثير من ثقة جملة فقهاء الإسلام و"أصحاب الحديث" فيه، ومن ثقة المتصوفة الذين يزيحونه أصلاً وابتداءً من الطريق. والرأي عندي أن الشيخ الغزالي يتمثل في هذه المسألة موقفاً يتفوق فيه صراحة على جملة تجارب الفكر الإسلامي الكلاسيكي التي خلّفها المعتزلة والفلاسفة، وبخاصة الغزالي وابن رشد منهم، والمتصوفة، فضلاً عن "أصحاب الحديث" بطبيعة الحال. وأنا أعتقد أن رؤية الشيخ الغزالي للعقل –وأنا لا أتحرج من أن أسمينها بـ"العقلانية الواقعية"- تبدوا في سياق مرجعي إسلامي، أكثر موافقة من تلك الرؤى لواقع الأحوال البشرية في عالمنا المعاصر. لا شك في أ ا لا تتوسل للتعبير عن نفسها بالجهاز الفلسفي والمنطقي الذي يستند إليه النظام المعرفي الاعتزالي، أو النظر الاصطلاحي الذي أتقنه أبو حامد الغزالي وبرع فيه ابن رشد، لكنها تدرك الغايات التي تسعى إليها بآليات "إنسانية" أقرب إلى "الحس العام" و "البداهة" و "الطبع" و "الضمير".

والحقيقة أن التصور المبدئي للعقل عند الشيخ الغزالي هو تصور "توليدي"، بمعنى أن العقل لا يدرك حقائقه مرة واحدة وإنما يسير "على طريق ا هور"؛ إذ هو يدرك حقائق من جملة الحقائق المستورة، ثم ما يلبث أن يدرك حقائق أخرى

فأخرى وهكذا. ا بهول القابل للاكتناه هو عالمه. وهذا العالم الرحب الممتد يشتمل على قطاعات ثلاثة كبرى:

1. قطاع الكون بعناصره المادية وآفاقه وقوانينه.
2. قطاع الشؤون الدنيوية البشرية مما يتصل بارتفاق الإنسان من الطبيعة وبالأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية والحرفية، وجملة الخبرات الإنسانية.
3. قطاع العلاقات الإنسانية القائمة على تعرف القوانين النفسية والخلقية والاجتماعية والسياسية التي تحكم الجنس الإنساني في حياته على الأرض.

ما هي حدود العقل في هذه القطاعات الثلاثة؟ لا يتردد الشيخ الغزالي في التحديد. فالكون مفتوح أمام العقل الإنساني يستطيع أن يرتاده من غير حدود والشؤون الدنيوية البشرية كذلك أيضاً، إذ هي الأخرى "مجال فسيح أمام الفكر الإنساني يتحرك فيه دون قيد وإلى غير حد". أما "قطاع العلاقات الإنسانية والقوانين التي تحكمها فله شأن خاص. ففي المواطن التي لم تدركها تعاليم الدين ينفرد العقل بالأحكام. أما بعد نـزول الشرائع وحيث تصل تعاليمها فإن الكلمة لها وحدها. وهو يعتقد أن جملة ما تقرر عند الأمم خارج دائرة الدين لا يضاد الدين وإن كان ثم أخطاء تتحمل البشرية وزرها، وتحتاج إلى الدين للخلاص منها، كما أنه يتابع أبا حامد الغزالي فيما ذهب إليه في المنقذ من الضلال إذ اعتقد أن جملة ما هو مقبول من الأمور الخلقية والسياسية والاجتماعية عند مختلف الأمم مما يرتد مباشرة إلى الدين، إنما يرجع في أصله إلى الشرائع السماوية القديمة. لكن القول الحاسم النهائي هنا ينبغي أن يكون للدين.[2] أما ما لم يرد فيه نص أو نص محكم من أمور الشريعة، فإن الشيخ الغزالي يلتزم فيه جانب أهل (الرأي)، فيقر للعقل بحرية استخدام ملكته الاستنباطية الاجتهادية في الاستدلال للأحكام، وفي استنباطها وفق أصول الاجتهاد التي توجه فقه (أهل الرأي).

[2] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة عند مطاعن المستشرقين، (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الخامسة، 1988)، ص112-113.

بتعبير آخر، للعقل مجاله الفذ: علوم الطبيعة والكون، وشؤون الدنيا وصناعا ا، واستنباط الأحكام الشرعية التي لم يرد فيها نص. أما مجال الدين فهو القوانين والشرائع التي تحكم العلاقات الإنسانية، والعقائد والعبادات التي تصل المخلوق بالخالق. والوحي هو الأصل الذي يرتد إليها كل شيء في هذا ا ال.

ومعنى ذلك كله أن مملكة العقل ذات حدود "طبيعية" واسعة. لكن هل يستطيع العقل أن يتجاوز حدود الكون الطبيعي، وأطر المعرفة الطبيعية؟ إنه يستطيع أن يكشف عن "وجود" عالم ما بعد الطبيعة، أي أن "الله حق"، لكنه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك. يستطيع العقل أن يثبت وجود الله، لكنه لا يستطيع أن يتكلم على كمالاته الذاتية وعلى صفاته الماهوية. وعند هذه المسألة "يشتبك" الشيخ الغزالي مع سلفه الكبير أبي حامد الغزالي، ومع الكلام الاعتزالي.

إن الأصل (العقلاني) في تقرير وجود الله يرتد مرة واحدة في الفكر الإسلامي على وجه الإجمال إلى "مبدأ السببية". والشيخ الغزالي في هذه المسألة ينتسب إلى المتكلمين العقلانيين وابن رشد ويعارض صراحة صاحب افت الفلاسفة. لا أحد يجهل نص أبي حامد المشهور: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً، وبين ما يعتقد مسبباً، ليس ضرورياً عندنا، بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما، متضمناً لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق واتقاد النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا، إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، فإن اقترا ا لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت".[3] ولا أحد يجهل أيضاً مذهب ابن رشد إذ يقرر أن "العقل إنما يدرك الأشياء من جهة أسبا ا"،[4] ولا قولته السائرة: "والعقل ليس هو شيء

[3] أبو حامد الغزالي: افت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1958)، ص237.

[4] أبو الولد ابن رشد: افت التهافت، (بيروت: دار المشرق، 1987)، ص479.

أكثر من إدراكه الموجودات بأسبا ا، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل".[5] في هذه المسألة الدقيقة يقف الشيخ الغزالي إلى جانب إقراره قانون السببية. وهو، خلافاً لما زعمه جولدتسيهر في تحليله لموقف الأشاعرة منه، يؤكد "أن أهل السنة لم يفكوا الرباط العتيد بين الأسباب ومسببا ا، ولم يتجاهلوا هذا الالتزام المطرد بين العلة والمعلول. لقد قالوا: إن الماء يروي، وإن الأرض تنبت، وإن النار تحرق وإن العادة جرت بذلك والشيء الذي حرص أهل السنة على إثباته وإبرازه هو المشيئة العليا، فقالوا: إن النار تحرق بمشيئة الله...".[6] بتعبير آخر إن الرأي الذي يتعلق به الشيخ الغزالي هو إقرار الخصائص الذاتية والطبيعية للعناصر، وأ ا"أسباب" لما يتولد عنها، (الماء سبب للإنبات)، لكن ذلك لا يرجع إلى طبع خاص مطلق في العناصر ذا ا، وإنما إلى "أن هذه الخواص مفاضة عليه من الخالق الكبير فهو الذي جعلها كذلك"، مثلما أنه هو الذي يحفظ الوجود ويديره ويستمر في السيطرة المطلقة والهيمنة التامة عليه، بعد أن خلقه، وفقاً لترابط الأسباب والمسببات، إذ هو الخالق الحقيقي والسبب الحقيقي الأول".[7] وفي هذه المسألة الأخيرة يبدو الشيخ الغزالي موافقاً لما ذهب إليه ديكارت في نظريته في "الخلق المستمر"، التي لم تكن في حقيقة أصلها إلا إحدى النظريات التي ترددت في أجواء الفكر (الأشعري) الإسلامي.

ويحرص الشيخ الغزالي حرصاً شديداً على إقرار مبدأ السببية وفقاً لمبدأ آخر شاع شيوعاً واسعاً بين الناس هو مبدأ (الجبرية) الذي يرى أنه "من أسباب ا يار حضارتنا".[8] وهو يبدو في هذا المقام أوضح وأصرح، والأشاعرة وأبو حامد هم الذين يقصدهم إذ يقول في معرض نقده للجبرية ولمنكري الأسباب: "وقد يذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع (!) أن للإنسان كسباً أو اكتساباً، والحقيقة أ‍ه مسلوب الإرادة ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية،والغنى والفقر، حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسير لا مخير. ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت وسيطر

[5] المرجع السابق، ص522.

[6] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص128.

[7] المرجع نفسه، ص129.

[8] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قر ا الخامس عشر، (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، 1990)، ص72.

عليها لون من التسليم والسلبية. والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن وشراح السنن. إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة، وعلى تقرير حاسم للمسؤولية الإنسانية. ولا يجدي في هذا ا ال جدل ولا لعب بالألفاظ. ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسؤولية الشخصية بأسلوب غامض، لا تتضح معه عدالة التكليف، حتى قال الظرفاء فيه: أخفى من كسب الأشعري! أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط إلهية إلى مصيره ا هول أو المعلوم... وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر، وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات. فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع.. وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية –على الإجمال- غير ملزم ولا مطرد...".[9] وفي رأي الشيخ الغزالي أن علماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأي أرادوا بذلك الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة، وتنسب إلى الطبائع ما يقع هنا وهناك. والحقيقة أن كلام اليونان "أن الطبيعة تخلق، وأن السبب –من ذاته- يفعل، كلام لا وزن له ولا دليل عليه. بيد أن الرد لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص وما ناطه ا من آثار، فإن الأسباب –بقدر الله فيها- تؤتي نتائجها حتماً. أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة، وهي إذا صدقت شذوذ، يؤكد القاعدة ولا يهدمها".[10] وهكذا ينتهي النقد الغزالي للمتكلمين وفلاسفة اليونان الطبيعيين والمتصوفة وأبي حامد (الذي لا يذكره بالاسم) إلى إقرار قضيتين كبيرتين: السببية العقلانية، والحرية الإنسانية. وفي ضوء هذا الإقرار يوجه إلى أنه "لا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط [في شأن الجبرية وإنكار السببية والمسؤولية الشخصية] بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب

---

[9] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية...، ص72-73.

[10] المرجع نفسه، ص73-74.

استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدراً من الاستقلال يسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا أفتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها...!".[11]

ومع ذلك فإن علينا أن ننتبه إلى أن (عقلانية) الشيخ الغزالي، وإن كانت تقترب عند بعض المواطن من عقلانية المعتزلة وابن رشد، إلا أ ا في حقيقة الأمر ليست كذلك. لا بل إ ا، عند بعض المواطن، تنأى نأياً تاماً عن العقلانية المسرفة، وعن عقلانية المعتزلة. ذلك أن للعقل عنده حدوداً لا يجوز له أن يتخطاها. و"العقل الإسلامي" بالذات بعد أن ابتعد عن المرحلة التي كان ملتصقاً فيها بالوحي اختلطت عليه الأمور إذ "تقعر" في "دراسة ما وراء المادة" وخاض "بحاراً مغرقة في هذه البحوث العقيمة التي كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية والإفادة منها. وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة".[12] والحقيقة أن للعقل البشري حدوداً، فهو عاجز مثلاً عن فهم "حقيقة الروح"، وأنى له أن يعرف كنه الألوهية واتصال الذات بالصفات؟ لقد أكبر المعتزلة العقل وغلّبوا نظراته على مبادئ الشريعة. لا شك في أن "الإسلام يقوم على العقل" وأنه لم يؤثر عن دين ما أنه كرم العقل مثل ما كرمه الإسلام، "لكن ليس من العقل إقحام العقل في بحوث لا قبل له ا ولا طاقة له عليها". إن العقل قادر على البحث في العناصر الطبيعية لكنه لا يقدر على البحث في الروح أو في ذات الله العظمى وفي أسرارا الألوهية مما يتصل بالذات والصفات وغير ذلك. وقضايا عالم الغيب تقع "فوق العقل".[13] وكلام الفلاسفة الإلهيين في الوجود وأصله ومباحث المتكلمين في الفلسفة، كل ذلك ليس من العلم الأصيل وهو في جملته تخمينات وترهات وحدوس. ههنا، أعني في قطاع "الإلهيات"، يقترب الشيخ الغزالي من سلفه أبي حامد الغزالي الذي يرى أن أقوال الفلاسفة في هذا الجزء من الفلسفة هي أقوال جدلية غير برهانية. وليس هذا الموقف بغريب في تاريخ الفكر الإسلامي والإنساني على وجه العموم، فالفيلسوف الألماني الكبير كانت لم يجز هو أيضاً للعقل أن يتجاوز عالم

---

[11] المرجع نفسه، ص73.

[12] الدعوة الإسلامية، ص64-65.

[13] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل لحديث، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثامنة، 1990)، ص148.

الطبيعة، ولم يقر مشروعية استخدام مبدأ العلية للانتقال من عالم الطبيعة إلى عالم ما بعد الطبيعة. ومع ذلك فثمة فرق بين الاثنين: فالشيخ الغزالي يرضى باستخدام مبدأ العلية للانتهاء إلى وجود الله بإطلاق لكنه لا يرضى باستخدام العقل لما هو أبعد من ذلك، ويرد ذلك إلى الوحي وحده، أما الفيلسوف الألماني فإنه يحصر جدوى مبدأ العلية بالعالم الطبيعي فحسب ولا يسمح باستخدامه لما هو أبعد من ذلك. ومع ذلك فإن كلاًّ منهما عقلاني، لكنها عقلانية بحدود.

والحقيقة أن الشيخ الغزالي واضح تمام الوضوح في أمر التمييز الفارق بين منطقتين: منطق عالم الغيب، ومنطق عالم الشهادة. إن "التسليم" بخبر المعصوم هو المبدأ الذي يستند إليه منطق المعرفة الخاص بعالم الغيب. أما في عالم الشهادة فالعقل هو السيد في النقد وفي الأخذ وفي الرد، بلا سدود ولا قيود. والتنويه بالعقل الذي جاء في شعر أبي العلاء المعري لم يكن دليلاً على كفر المعري وغمزه بالدين، على ما توهمه بعض القوم، لكنه هجو للمتدينين السطحيين الذي يبدي ظاهرهم التقوى وتخفي طباعهم الشر، و "دعم للحياة الدينية بأسلوب الاسترسال مع الخصم" وإنكار لـ "أن يكون الدين عند كثير من الناس مراسم وشعارات، ولا يكون فضائل ونظاماً وأن يمس ظواهر الأشياء ولا يتغلغل في صميمها".[14] والعقلانية الغزالية المحدودة تبدي أحكامها في مسألة التحسين والتقبيح العقليين التي يتعلق ا المعتزلة، إذ يذهب الشيخ الغزالي مذهباً "عقلانياً معتدلاً" فيوجه النظر على "أن علماء المسلمين المحققين من سلف وخلف يرون أن في بعض الأشياء حسناً أو قبحاً ذاتيين يستطيع العقل معرفتهم ابتداء"، لكنه مع ذلك يقول جازماً: "إن العقل لا يغني عن شريعة الله، وإن لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة".[15]

يوجز هذا القول الأخير جملة موقف الشيخ الغزالي في تحديد العلاقة بين هاتين الدعامتين اللتين تقوم عليهما المعرفة الإنسانية والفعالية العملية لبين البشر: حد العقل ، وحد الوحي. والمسألة –كما نعلم- قديمة، وجهت إليها النصوص الدينية، وخاض فيها المتكلمون وأصحاب الرأي منهم بخاصة، وتكلم عليها الفلاسفة: من الكندي –أولهم- الذي قرر أن ما جاءت به الرسل قد

---

[14] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص121-123.

[15] المرجع نفسه، ص127.

ورد "بمقاييس عقلية"،[16] إلى ابن رشد –آخرهم- الذي جرد للمسألة رسالة هي فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، وابن تيمية – شيخ السلفيين المتأخرين- الذي بذل بليغ وسعه إذ وضع فيها مصنفه الضخم درء تعارض العقل والنقل. يقول الشيخ محمد الغزالي: "هيهات أن يختلف العقل والنقل أو تتناقض ثمار الوحي والفكر، ما دام كلاهما تصويراً مجرداً للحقيقة كما هي دون ريبة أو عوج. في العلاقة بين العلم والدين يجب أن نعرف أن قول العاقل وعمله لا يختلفان. وإذا كان الكون صنع الله والدين كلامه –جل شأنه- فيستحيل أن يكون في المعارف الكونية ما يخالف العلوم الدينية، إذ العلم ليس إلا وصفاً لما صنع الله في آفاق الأرض والسماء، وتقريراً لما بث فيها من قوى وخصائص. وهذا البيان لأفعال الله يستحيل أن يجيء في وحي الله ما يختلف عنه أو يصطدم به. إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود".[17]

ومن جديد، ينقلنا هذا النص مرة واحدة إلى المبدأ الثالث الموجه لتجربة الشيخ الغزالي الروحية ولدعائم النظر والعمل عنده: العلم. والغزالي ليس عالماً طبيعياً ولا فيلسوف علم"، لكن الناظر في مصنفاته يدرك بجلاء أنه كان حريصاً بالغ الحرص على أن يتزود من المعارف العلمية، ويتابع قضايا العلم ومكتشفاته بالغ الحرص على أن يتزود من المعارف العلمية، ويتابع قضايا العلم ومكتشفاته ليتسنى له الإفادة منها في نشاطه "الدعوي". وملاحقة المسائل العلمية أمر تعلق به رجال النهضة الإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر، واشتد تعلقهم ا مع انتشار عدد من الفلسفات الطبيعية ذات السمة "الإلحادية" وبخاصة (الداروينية)، وعلى وجه الإجمال (المادية). وقد اعتقد هؤلاء المفكرون الذين تصدوا لهذه الفلسفات بالتحليل والنقد والرد أن الاستقصاء العلمي والتعمق في مسائل العلم وقضاياه ومناهجه ييسر لهم هذه الرسالة، ويؤدي إليهم أسلحة دفاعية وهجومية من الطراز الأول في معركة الذب عن الإسلام ورد هجمات خصومه "العلميين". وقد كان الشيخ اللبناني الطرابلسي حسين الجسر

[16] أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1950)، ج1، ص2544.

[17] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، (الإسكندرية: دار الدعوة، 1993)، ص213-214.

(1745-1909) أبرع من جرد أسلحة ماضية في وجه الداروينية، كما كان المصري طنطاوي جوهري (1870-1940) من أبرز من عنوا بمتابعة ا الي المختلفة للعلوم وجواهرها، ولعجائب الكون التي يكشف عنها العلم الطبيعي، وللتعريف بالعلوم العصرية، وتقرير مساوقتها لنظام الإسلام ولآي القرآن الكريم. والحقيقة أنه يتعذر تماماً أن نلقى أحداً من المصلحين المسلمين المحدثين والمعاصرين إلا وقد عني بمسألة العلم ووشائجه بالدين. ولهم في ذلك مناهج وأنظار وفهوم ليس هذا القول موضعها. والقضية عند الشيخ الغزالي قاطعة محسومة: "إن الدين الحق والعلم هما تصوير متكامل للوجود"، مثلما مر. وإن "العقول الذكية" هي وحدها التي تستطيع "اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة"، وهي وحدها التي "تميز الحق من الباطل وتعرف حقائق الوحي".[18] لقد خلقت العقول "للتجاوب مع حقائق الكون" و "لتكون مفاتح خزائنه وكواشف أسراره"، والحضارة الإسلامية نفسها قامت على "العقل والبصر".[19] وأبلغ من هذا وأبعد غوراً ما يصرح به من القول: "ونحن –باسم الإسلام- نعتبر تصديق الحقائق العلمية ديناً".[20] وتأسيساً على هذا القول يوجب "على علماء الكون والحياة أن يروا تصديق الحقائق الدينية العلمية العادية". والعلة بينة، وهي أن الله هو مصدر الحقيقتين: الدينية والعلمية. ولهذا السبب نفسه يمتنع تمام الامتناع أن ينشأ تعارض أو تناقض حقيقي بين الحدين. ولا يملك الناظر وهو يتأمل هذا الفهم إلا أن يذكر ابن رشد وتقريره المشهور في أمر الاتصال بين العقل والشريعة، وإن كان من الحق أن نقول إنه لا يذهب مذهبه في التأويل الذي يبدو وكأنه يقدم العقل على النص. بيد أن الشيخ الغزالي يظل مفكراً "واقعياً" يدرك تمام الإدراك حدود علوم الكون والحياة من وجه، وحدود الرسالة الدينية ومضمون الوحي من وجه آخر. وذلك أنه يأبى أن يذهب إلى ما ذهب إليه أصحاب (التفسير العلمي) للقرآن، إذ يقرر صراحة "أن القرآن الكريم ليس كتاب مباحث فنية في علوم الكون والحياة، وغاية ما ألمع إليه أنه –وهو يبني اليقين على التأمل في ملكوت السموات والأرض-

---

[18] محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، (القاهرة: دار الصحوة، الطبعة السابعة، 1987)، ص194-195.

[19] محمد الغزالي: هذا ديننا، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، 1990)، ص42.

[20] محمد الغزالي: حقوق الإنسان، ص214.

وصف هذا العالم بكلمات معجزة حالفها الصدق على اختلاف العصور وارتقاء العقول، فبقيت في تصوير الحق براقة الدلائل، لا يأتيها الباطل من بين يدينها ولا من خلفها لأ ا تنزيلٌ مِن حكِيمٍ حمِيدٍ (فصلت: 42))".[21]

والحق الذي لا لجاج فيه، في معتقد الشيخ الغزالي، هو أن هذا الوجه من المسألة لا ينبغي أن يشغلنا عن "الغاية العظمى" التي نــزل القرآن من أجلها. فالواقع أن القرآن "من قبل ومن بعد، كتاب هداية جامعة للسلوك الإنساني الصحيح"، وهو في هذا الشأن "استوعب كل شيء" مما يرجع إلى الأمر بالخير أو النهي عن الشر، ومما يتصل بالمبادئ الموجهة للسلوك البشري كالإخاء والعدالة والحرية والمساواة، وجملة الحقوق والمبادئ التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر (كانون الأول) 1948، أي بعد أربعة عشر قرناً من نــزول تعاليم الإسلام في هذه الحقوق.

وهذا التساوق بين الوحي والعقل السديد ليس أمراً مبتدعاً، فقبل أن ينــزل الوحي وفي المواطن التي لم تبلغها أشعته بعد أن نــزل، لم يقف العقل الإنساني جامداً، وإنما مارس وظيفته في الإدراك وفي استكناه طبيعة الحياة ورسالة الإنسان فيها، والكشف عن حقائق كثيرة مما يتصل بمعرفة الله والعالم، وفي أمر العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان. ويلاحظ الشيخ الغزالي أن أبا حامد الغزالي قد تنبه في المنقذ من الضلال إلى التوافق في السياسة الخلقية والاجتماعية بين أحكام الدين ومقررات الفلاسفة، وإلى أنه قد أرجعه إلى تأثر هؤلاء بمواريث دينية عن النبوات الأولى. ومع أن الشيخ الغزالي يرى أنه "قلما ظهر مذهب فلسفي وأصاب لحق في نواحيه الإلهية والخلقية والاجتماعية كلها"، وأن "في التفكير البشري ا ىرد آفات يجب أن تحذر"، وبخاصة حين تكون المعرفة سطحية تتعلق بالظواهر، فإنه يسوق قول أحد مفكري الغرب: "إن القليل من الفلسفة يبعد عن الله، ولكن الكثير منها يرد إليه جل جلاله".[22] "ومع أن العقل البشري سار طويلاً وحده، إلا أن حصيلة الكثرة العظمى من الفلاسفة، ولا قيمة للشواذ". لكن "الدين –كما جاء من عند الله- هو الخلاصة النقية السهلة التي جمعت الحق كله".[23]

---

[21] المرجع نفسه، ص214.

[22] المرجع نفسه، ص215-216.

[23] المرجع نفسه، ص216.

ثمة إذن توافق وتساوق بين هذه الأصول الثلاثة: الوحي والعقل والعلم. والدين بهذا المعنى ذو سمة عقلانية علمية. لكن هل هو معرفة عقلانية الطبيعة والماهية هل هو محض قضايات "مجردة"، موضوعية، ذهنية، منطقية؟ هل هو محض تطابق بين مضمونه "الفكري" والواقع الموضوعي المشخص العلمي؟ لا، بكل تأكيد. إنه شيء آخر، أيضاً. إنه "عاطفة" و "وجدان". إنه "تقدم روحي". وهذا هو المبدأ الأخير الرئيس الموجه لتجربة الشيخ الغزالي المطلة على آفاق الروح النفسية والوجدانية الواسعة. والنص التالي واحد من نصوص كثيرة تحفل بهذه المعاني التي يقصد منها الغزالي إلى إنارة العقل بضياء الروح والقلب، يقول: "مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب.

والإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح".[24] ثمة أمران ينبغي أن يتم الجمع بينهما في حياة الإنسان المسلم: الاستنارة الفكرية، والهداية النفسية. وفي عالم أصبح فيه "التفاوت بين التقدم الروحي، والتقدم العلمي" خطيراً –إذ قطع العالم مراحل شاسعة في طريق التقدم العلمي لكنه تخلف أو بقي مكانه روحياً- بات من الضروري توجيه القافلة البشرية بقيم الأخلاق وحياة الروح والوجدان وبالتسامي النفسي. "إن الإنسان عقل وقلب".[25] وإذا كان العقل الإنساني قد حقق مكاسب مادية جليلة للإنسان أفضل صورة ممكنة للحياة الأرضية. وينبغي أن يكون مفهوماً هنا أن الفضائل الخلقية والعبادات الروحية التي قررها الدين لا تعوق ازدهار الحياة وتقدمها المادي. فزكاة الروح لا تتم بدمار البدن، وضمان الآخرة لا يتم بضياع الدنيا. إن عظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاية وقوة. وذلك هو المفهوم

---

[24] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، (القاهرة، دار الاعتصام، بدون تاريخ)، ص101.

[25] محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، ص104.

الممتد للإيمان الذي يعيد الإنسان إلى الله ويتقدم به روحياً بفضل هذا المركب الفذ الذي يجعل منه عقلاً وقلباً في الحين نفسه، ويوجهه إلى ضرب من الحياة الروحية "الصوفية" التي تطهر البدن وتزكي الروح، في الوقت نفسه الذي يجعل منه ذا قدمين راسختين على أرض الواقع الزمني المعيش، وذلك في حالة فذة من "المصالحة" بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبي واجبات الدنيا وواجبات الآخرة".[26] وتلك هي المزية الكبرى للتدين الإسلامي وفضائله النفسية والروحية التي تنحرف عنها الحضارة المادية الشهوانية أو تنكرها. ذلك أن "آفة الحضارة المادية أ ا سخرت العقول للشهوات وأخرست نداء الروح، وأطلقت نداء الطين، وجحدت أن الإنسان نفخة من روح الله، ورأت أنه –كلاً وجزءاً- نشأ من الأرض فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى يذكر الله ولي نعمته وسر عظمته. "إن شرف الإنسانية يتمثل أولاً وآخراً" في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال وأن يتصرف داخل نطاقها وحده".[27] إن "قيود الكمال" هذه تضعنا على "الطريق إلى الله"، طريق الكمال، والتصفية "والتحول عن مواطن الغفلة والركود إلى مواطن الذكر والحركة"، والسير في ميادين النفوس سيراً "وجهته الله، وعدته صالح الأخلاق والأعمال"، وشاراته التوبة والرغبة إلى الله والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب.[28]

هل كان الشيخ محمد الغزالي قريب نسب روحي بأبي حامد الغزالي؟ لست أشك في هذا البتة. لكنه، والحق يقال، أقرب إلينا من أبي حامد، وليس ذلك لأنه معاصر لنا فحسب، ولكن لأنه أيضاً "معاصر" بإطلاق، قلباً وقالباً. وسمة "المعاصرة" هذه هي التي وجهت روحه المتوقدة وفكره "النقدي" –الذي تفجر في مصنفه الفذ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- إلى استخدام جملة المبادئ المؤسسة لتجربته الروحية في سجاله الحي الكبير مع المخالفين المعاصرين الذين لم يدخر وسعاً طيلة حياته المناضلة في دراسة مذاهبهم ومناهجهم، تحليلاً ونقداً ورداً: الاشتراكية، والشيوعية، والرأسمالية،

---

[26] محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، ص104.

[27] المرجع نفسه، ص105.

[28] المرجع نفسه، ص175-297.

والاستشراق، والصليبية والتنصير، والمادية، والداروينية، والعلمانية، والقومية. وقد كان ذلك كله استجابة فريدة لدعوته الدائمة أن "الإسلام للإنسان وللحياة".

الحق المر: الشيخ محمد الغزالي وقضايا المرأة

هبة رؤوف عزت*

تمهيد

أتعب الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله- من بعده، فالرجل قد كتب نيفاً وأربعين كتاباً، وطرق قضايا شتى، ووقف يحارب على عدة جبهات في مواجهة أعداء الإسلام وفي مواجهة أصحاب التدين الفاسد الذي فتن الناس عن دينهم؛ ولقد عرفته الحياة الإسلامية عالماً عاملاً له مواقفه الاجتماعية والسياسية، فكان لزاماً على الباحث في قضية ما في فكره أن يلهث وراءه ويتابعها في منعطفات تجربته الثرية. ولا يستطيع الباحث أن يفصل قضية المرأة في فكر الشيخ الغزالي وكتاباته عن جه الأصيل –هج الوسطية الإسلامية الذي طالما دعا إليه ونافح عنده. إن الشيخ لم يقدم –عبر مسيرته- رؤية شخصية "معتدلة" لوضع المرأة، فلم يكن مدافعاً، بقدر ما كان مع الحق حيثما كان، فرأى الحق في مناصرة نساء الأمة اللاتي عانين من التأويل الضيق لنصوص جلية ومن الفهم المقيد بتقاليد ضيقة جامدة. وقد تضمنت كتاباته الأولى وإشارات إلى هذا الظلم الذي قام يواجهه، ثم تزايد اهتمامه بالقضية حيث أفرد لها في أخريات حياته كتاباً خاصاً.

وفي هذه الإطلالة على فكر الشيخ الغزالي نرصد ونتابع تلك الرحلة، رحلة رجل عاهد الله أن يقول الحق وإن كان مراً ويصبر حتى يلقاه، ونحسبه –قد فعل- ولا نزكي على الله أحداً.

---

* ماجستير في العلوم السياسية من جامعة القاهرة، 1412هـ/1992م، مدرسة مساعدة في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، مصر.

الشيخ محمد الغزالي: النشأة والمسيرة

ولد الشيخ محمد الغزالي بقرية "نكلا العنب" بمحافظة البحيرة بمصر سنة 1917م، وحفظ القرآن وهو لا يزال صبياً دون العاشرة، ثم تلقى تعليمه الابتدائي والعالي في معهد الإسكندرية الديني، ثم التحق بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر سنة 1937م، وحصل على درجة العالِمية سنة 1941م، وعلى إجازة الدعوة والرشاد من كلية اللغة العربية سنة 1943م، وعمل واعظاً بالأزهر الشريف إلى أن أصبح مديراً للدعوة والإرشاد سنة 1971م.

وقد اعتقل الشيخ الغزالي مرتين، الأول عام 1949، والثانية عام 1965 بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

وقد بدأ التزامه بالدفاع عن المظلومين في مرحة مبكرة من حياته، حيث كان يحرض الفلاحين على الثورة ضد كبار ملاك الأراضي قبل ثورة 1952م في ريف مصر، وكانت كلماته المسموعة والمقروءة تدافع عن البسطاء وتنتقد أوضاع العمال المطحونين، فكتب الإسلام والأوضاع الاقتصادية.

وكان رواد الأزهر من علماء ومجددين مجتهدين هم قدوة الشيخ الغزالي وعلى رأسهم الشيخ محمود شلتوت؛ أما التأثير الأكبر في حياته فقد كان للإمام الشهيد حسن البنا الذي وصفه بأنه كن "عالماً بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة والشريعة".[1] وقد كان انتماؤه إلى جماعة الإخوان المسلمين لاتفاق منهجها مع رؤيته الشرعية الوسطية والمدرسة الفكرية التي كان ينتمي إليها والتي وصفها بأ ا "تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي، كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ، ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة".[2]

ذا المزج بين العلم والخبرة العملية في قلب ا تمع، بين القدم الراسخة في علوم الشريعة وسعة الاطلاع في مجالات الثقافة، جاءت كتابات الشيخ محمد

[1] "الشيخ محمد الغزالي بقلمه" عن: قطب عبد الحميد: خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة (القاهرة: دار الاعتصام 1988)، ج1، ص14.

[2] المرجع السابق، ص15.

الغزالي متميزة تشتمل على موضوعات شتى بنظرة وسطية قويمة وفهم دقيق لما هو كائن واستشراف واضح لما يجب أن يكون.

المرأة والأمة

انشغل الشيخ الغزالي منذ البداية بالدفاع عن الشريعة الإسلامية، ويلحظ القارئ لكتاباته هذا الإخلاص في الذود عن الإسلام، فقد دافع عن الإسلام في وجه أحقاد الاستعمار،[3] وكيد الشيوعية والرأسمالية،[4] وانتشار الاشتراكية العلمية التي أسماها "الزحف الأحمر"؛[5] وكذلك وقف بالمرصاد للفكر القومي وأفكار "البعث العربي"،[6] كما رد في كتاباته على مزاعم المستشرقين،[7] وهاجم كيد الصليبية ومكرها وأعوا ا.[8]

انشغل الشيخ إذاً بالدفاع في المرحلة الأولى من حياته، وفي سبيل ذلك اشتبك في معارك فكرية وثقافية شهيرة في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات. وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك مبكراً وجود مشكلة للمرأة في عالمنا الإسلامي، فلم يغفلها بل توقف عندها. ففي كتابه الإسلام والطاقات المعطلة الذي نشره في بداية الستينيات رصد الشيخ سوء وضع المرأة في العالم الإسلامي، وهو في ذلك ينحو منحى التروي ويدعو للتغيير والعودة للأصول، لكنه يكرر مع ذلك بعض المقولات المتأثرة بخلفيته الأزهرية التقليدية، فيقول:

"لا ندري بدقة متى ساء وضع المرأة في ا تمع الإسلامي؟ ومتى انحدرت عن المستوى الذي بلغته في صدر الإسلام؟ لقد كانت على عهد السلف الصالحين إنساناً يقوم بواجباته الدينية والدنيوية قياماً حسناً، ما كان شأ ا الجهل بالإسلام ولا الغفلة عن قضاياه...

ونحن إذ نستنكر وضع المرأة بيننا في القرن الماضي مثلاً فإنما ذلك بالنسبة إلى حال المرأة في تاريخنا الأول...

---

[3] محمد الغزالي: الاستعمار أحقاد وأطماع (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1957، ط2).

[4] محمد الغزالي: الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1951، ط5).

[5] محمد الغزالي: الإسلام في وجه الزحف الأحمر (القاهرة: دار المختار الإسلامي، 1975، ط5).

[6] محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي (القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1977،ط3).

[7] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين (القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1964،ط3).

[8] محمد الغزالي: قذائف الحق (بيروت: المكتبة العصرية، 1975).

أما بالنسبة إلى حياة المرأة في أوروبا وأمريكا الآن، فنحن نعتقد أن المرأة العاطلة أفضل من المرأة الفاسدة، وأن النساء المحتبسات في المخادع والبيوت، المقصورات على خدمة الولد والزوج، أشرف من النساء اللواتي يتكشفن لكل عين ولا يرددن يد لامس..."[9]

ثم يستطرد قائلاً:

"إن جنس الذكور عموماً أقوى من جنس الإناث.

وقد تكون هناك فصائل من الإناث أقوى من بعض الرجال، إلا أن امتياز أفراد من النساء لا يعني خدش الحقيقة العامة التي ذكرناها وهي أن الرجال في الجملة أقدر من النساء، وأ م بناة العمران، وعلى كواهلهم القوية ضت الحياة الإنسانية. ولا يزال الرجال إلى عصرنا هدا –وسوف يبقون على كر العصور- قادة لكل نشاط مدني أو عسكري... بل إن النهضات النسائية –كما تسمى- ليست إلا وليدة شعور بالرقة والألم غمر قلوب بعض الرجال فقاموا يحررون المرأة من القيود التي رماها ا رجال آخرون."[10]

وإذا كان الشيخ في صفحات تالية يذكر مكانة المرأة ووظيفتها في ا تمع الإسلامي الأول في مقابل ما أضحت عليه في العصور الحديثة من إهمال وتعطيل لطاقا ا، إلا أنه يعود لتحفظ خشية من الانبهار بالنموذج الغربي المسيطر الذي يريد إخراجها من الأسرة وإشراكها دون ضوابط في ا ال العام، فالهم الأخلاقي و "سد الذرائع" كان هو الهاجس الذي يجده القارئ في تلك الكتابات الأولى لشيخنا، وقد ظلت مقولته في تلك المرحلة: "لا نريد أ، يخيرنا أحد بين شرين"[11] هي المقولة التي تأسس عليها منهجه الوسطي البديل.

وفي كتابه حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة يسير الشيخ على النهج ذاته، فيرحب بمشاركة المرأة، ولكنه يقصر المشاركة على حدود الحاجة إلى المال ويحدد دائر ا في مهن معينة هي "أصلح لها"، مدافعاً عن

---

[9] محمد الغزالي:الإسلام والطاقات المعطلة (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، 1983،ط4) ص100.

[10] المرجع السابق، ص101.

[11] المرجع السابق: ص113-122.

قوامة الرجل بمقولات تتعرض لتعسف الرجال في حجب المرأة عن المشاركة الاجتماعية.[12]

على أن الشيخ يبدأ بعدها بأعوام قليلة في إدراك أهمية وضع القضايا في سياق أوسع وبلورة الأطروحات والأفكار، والتركيز على المقاصد لضبط ميزان فهم أهمية وضع المرأة ووظيفتها في دائرة الأمة، وسرعان ما يتضح له أن التركيز على الضوابط وليس المهام وأساليب المشاركة هو المدخل الأسلم الذي ينبغي أن يتبع، بحيث يوضع الأصل وتلحق به الفروع، فيكتب:

"جرت على لساني كلمة تتصل بملابس الرجال والنساء كان الباعث على اختتام الحديث ا ما أحسه ويحسه الكثيرون من أن مشكلة الأزياء في مصر سيئة ومحرجة وتتطلب حلاً معقولاً...

هذا ما قلته، وما فوجئت بأنه أقام الدنيا وأقعدها! أو بتعبير أدق ما وجد الماكرون مجالاً لنقل المعركة إليه واختلاق قضية أخرى يدور حولها الجدل بعنف وتختنق في ضوضائها قضية التشريع الإسلامي من ألفها إلى يائها.

ولا أدري كيف وقعت في هذه الحفرة وكيف انسقت إلى هذا الموضوع الثانوي...

إن حرمان المرأة من التعليم والتربية والعبادة الشخصية والاجتماعية والسياسية، لا يمكن أن يكون إرضاءً لله ولرسوله، وما كان النساء المسلمات كذلك على عهد رسول الله والخلافة الراشدة والعصور الزاهرة.

وخير لنا أن نتدارس كتاب الله وسنة نبيه وفقه الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين لنأخذ ديننا من مصادره الصحيحة..."[13]

وفي السبعينات يشتبك الشيخ في معركة شهيرة أثناء محاولة تعديل قوانين الأحوال الشخصية إلى ما يخالف شرع الله من تقييد للتعدد والطلاق، وهي معركة خاضها دفاعاً عن الأسرة وا تمع شغلته عن الاستطراد في بحث قضايا

---

[12] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (القاهرة: دار اكتب الإسلامية، 1983،ط3)،ص115-139.

[13] محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي (القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1964، ط2) ص335-337.

المرأة الضيقة،[14] إلا أنه مع مطلع الثمانينيات يبدأ في بلورة خطابه وتطوير أفكاره بشأن المرأة في سياق أوسع محص فيه التراث وأسس منهجاً متكاملاً للتعامل مع الأصول –قرآنا وسنة- تنقية لفهمها من النظر الملتبس بالهوى أو المتأثر بالعادات والتقاليد الموروثة، أو الواقع تحت ضغط الرؤى والأفكار الوافدة.

ففي كتابه: "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" يدعو إلى العودة إلى المعين الصافي لتتحقق وحدة بين المسلمين وتيارا م الفكرية والثقافية في شتى القضايا، ومنها قضايا المرأة أن ما يجيء حديثان في قضية تتصل ا إلا أُخر الصحيح وقُدم الضعيف.

هناك أحاديث ضعيفة تحكم ا تمعات الإسلامية و زم الأحاديث الصحيحة بل المتواترة... والتصرف في السنة ذا الأسلوب لا يمكن أن يكون ديناً قويماً ولا صراطاً مستقيماً. أما الأمر الثاني الذي يؤخذ على المشتغلين بالسنن عموماً فهو قصورهم الفقهي، وليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم..."[15]

ثم يستكمل حديثه تحت عنوان "تقاليد المسلمين غير تعاليم الإسلام" قائلاً:

"... ولا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة، ويحملو ا مسؤولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم، ويرون إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وحرما ن من أي نشاط عام، وأعتقد أن هؤلاء العلماء القاصرين لو كانوا على عهد رسول الله ﷺ لطالبوه بطرد السيدتين اللتين حضرتا ببيعة العقبة الكبرى، وقالوا له ما للنساء وهذه الشؤون، ولو كانوا موجودين عند فتح مكة لقالوا له حسبك بيعة الرجال وهم يعلمون نساءهم!."[16]

لقد وضع الشيخ يده على الداء وأدرك من اشتغاله بالدعوى زمناً طويلاً للإسلام أعداء من الداخل قصر فهمهم وضاقت عقولهم، واستيقن أن ما

---

[14] محمد الغزالي: كفاح دين (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، 1991، ط5)، ص197-296.

[15] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (القاهرة: دار الأنصار، 1981)، ص29-31.

[16] المرجع السابق، ص179.

أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور الماضية لا يسأل عنه أعداؤه بقدر ما يسأل عنه أبناؤه.[17]

وقد برز في كتابات الشيخ المتأخرة أثر تعامله مع المرأة –في مجالس الفتيا وفي الجامعات- في موقع قضاياها من فكره، إذ انتقل من الكتابة في هذا الشأن بشكل نظري قارئ للتاريخ والأصول إلى الكتابة عن الهموم المعاصرة للمرأة في ا تمع الإسلامي، وهو ما يتضح في الأمثلة التي يسوقها والوقائع التي يرويها ليدلل من واقع معايشته للمجتمع على بعدِ الشقة بين تعاليم الإسلام وأوضاع النساء، فيقول في كتابه مائة سؤال عن الإسلام:

"... إنني أسأل أولاً: هل عوملت المرأة في العالم الإسلامي وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لماماً..."[18]

ويمضي الشيخ في إجابته عن الأسئلة حول قضايا المرأة ومكانتها في إبراز أهمية تعليم المرأة ومشاركتها في رسالة المسجد واتخاذ نساء الرسول والصحابيات قدوة في العبادة والعمل والجهاد، موضحاً حقوق المرأة في ا تمع والأسرة.

والشيخ يعلم مسبقاً أن أصحاب "التدين الفاسد" –كما يسميهم- أنصار حزب "والله لنمنعهن" الذي رفض تاريخياً ترك مسيرة المرأة المسلمة تأخذ مجراها الناهض منذ عصر الرسالة،[19] ويعلم أ م سوف يزعمون أن هذه آراء غريبة توافق المدنية المستحدثة، فيرد تلك المزاعم قائلاً:

"لا أريد أن يفهم أني راغب في نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا، فهذه الحضارة تجمع خليطاً من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة، وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ وسلفه الأول."[20]

فالقضية إذن قضية عودة للسنة النبوية وفهم دقيق للكتاب وفقه بصير بالسنن الاجتماعية. بل يذهب الشيخ إلى أبعد من ذلك إذ يرى أن مستقبل

---

[17] محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (القاهرة: دار الصحوة، 1984،ط4)، ص3.

[18] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام (القاهرة: دار ثابت، 1984)، ج2، ص253.

[19] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قر ا الخامس عشر (القاهرة: مكتبة وهبة، 1985)، ص73-76.

[20] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص257.

الإسلام رهن بإعادة النظر في قضايا عديدة، منها قضية المرأة، وأن التضييق كان مدخلاً لأعداء الدين لكي ينفذوا إلى المجتمع الإسلامي، فيكتب:

"إن الذين أهانوا النساء، وحجروا عليهن، وظنوا بهن الظنون، ينطلقون من مبادئ شاعت في الجاهلية الأولى، إنها تعاليم آباء الكنيسة الأقدمين انتقلت إلى الأمة الإسلامية، لأن هذه الأمة قلدت اليهود والنصارى على الرغم من تحذير النبي ﷺ من هذا التقليد وتشاؤمه من هذا الاتباع السيئ.

ومن الإنصاف القول بأن تحامل قادة التنصير علينا لم يأت من فراغ، فإن سيرة بعض المسلمين وفتاوى بعض المتفقهين تجر على الإسلام صنوف البلاء!"[21]

ومع نهاية الثمانينيات يصدر الشيخ كتابه المهم السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث الذي يجمع فيه أفكاره وملاحظاته حول قضايا مختلفة في التراث وقراءة بعضهم للسنة والسيرة، وكذلك قضايا المرأة.

ويبدأ الشيخ في الجزء الثاني الذي أفرده للمرأة بقضية الحجاب، حيث يرى جواز كشف الوجه، ولا يرى نفسه بذلك مخالفاً للجماعة، بل يسوق الأدلة التي تبين اتفاق رأيه في تلك المسألة –التي كثر الجدل بشأنها- مع آراء الفقهاء الأربعة الكبار؛ وهو بذلك يبدأ بالقضية التي اتخذت ذريعة لحجب المرأة بالكلية عن الشأن العام، وهدفه في ذلك العودة إلى الأصول وإحياء فقه الوسطية الذي كادت الحواشي على المتون أن تحول بيننا وبينه.

وفي ذلك يقول: "يعلم الله أنني –مع اعتدادي برأيي- أكره الخلاف والشذوذ، وأحب السير مع الجماعة، وأتنازل عن وجهة نظري التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة.

فهل ما قلته رأي انفردت به؟

كلا كلا، إنه رأي الفقهاء الأربعة الكبار، ورأي أئمة المفسرين البارزين.

إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأياً مرجوحاً، ويتصرفون في قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحي والثقافي والاجتماعي لأمة أكلها الجهل والاعوجاج كما حكمت على المرأة بالموت الأدبي والعلمي".[22]

---

[21] محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير (القاهرة: دار الصحوة، 1991)، ص130.

ثم ينتقل الشيخ إلى بحث قضايا المرأة والأسرة والوظائف العامة، وهو حين يدعو إلى مشاركة المرأة المسلمة في الحياة العامة تبدو قوة حجته وتتضح في رؤيته المرأة المسلمة في الحياة العامة تبدو قوة حجته وتتضح في رؤيته المرأة المسلمة العفيفة أهلاً للنهوض بأمتها وتحمل أمانة هذا الدين جنباً إلى جنب مع الرجال، على العكس مما كان عليه الأمر في الستينيات، حيث كان الشيخ يؤكد أولوية عمل المرأة داخل بيتها. فنحن نجده في الثمانينيات بعد طول خبرة واطلاع على أحوال المرأة المسلمة وتقديره للمهمات التي نهضت بها الصحابيات الأوائل، يسعى إلى إيجاد توازن بين مسؤولية المرأة داخل أسرتها ومسؤوليتها تجاه قضايا الأمة. فقد كتب في الستينيات يقول:

"قلد عرف عني أنني لم أهش لتوظيف المرأة في كل الأعمال، ولا لتسويتها بالرجل في كل الميادين، وقلت إن وظيفة ربة البيت هي أليق شيء لها، وقد تحتاج وظائف فينة كثيرة إلى النساء وحدهن، وقد تحتاج فتيات كثيرات إلى العمل قبل الزواج، ثم إن الأوضاع الاقتصادية لها أثر كبير في الطريقة التي يفهم بها الناس شؤون الحياة، ولست أحب نشر فتاوى جزئية في غياب الوضع الإسلامي الكبير عن هذه الحياة الصاخبة".[23] ونجد الشيخ، بعد أن أدرك حاجة الأمة في عصرنا إلى نساء يخرجن يجاهدن في شتى المجالات بعد أن دخل العدو ديار المسلمين سياسة واقتصاداً وإعلاماً وتربية، قد صقَل رأيه السالف وعدله فكتب في كتابه السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مؤكداً شأن الأسرة ولكن مشدداً أيضاً على مكانة المرأة في المجال العام:

"أكره البيوت الخالية من ربابها، إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب، وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة فإني أكره وأد البنت طفلة ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لامتها ولأهله، فكيف نوحد بين الأمرين؟...

[22] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (القاهرة: دار الشروق، 1989)، ص49.

[23] معركة المصحف في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص399.

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة، ومطلوب أيضاً توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من أعمال. إذا كان هناك مائة ألف طبيب أو مائة ألف مدرس فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء، والمهم في ا تمع المسلم قيام الآداب التي أوصت ا الشريعة وصانت ا حدود الله...

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله".[24]

ومن منطلق هذه الثقة في قدرات المرأة المسلمة وإسهامها في تطوير مجتمعها وحفاظها مع ذلك على أسر ا وبيتها يقر الشيخ بأن بين النساء من تجيد إدارة شؤون الجماعة المسلمة على مستويا ا المختلفة، وأنه أولى أن يتولى الإنسان الكفء التقي، ذكراً كان أو أنثى، فيكتب قائلاً:

"ما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ امرأة ذات دين خير من ذي لحية كفور!"[25] ويتوج الشيخ الغزالي جهده ونظره في شؤون الأمة وحال نسائها بكتابه قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة في أوائل التسعينات ويكتب في مقدمته:

"الإسلام متهم بإهانة المرأة واستضعافها...! فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة؟ القرآن بين أيدينا لم يتغير منه حرف، وهو قاطع في أن الإنسانية تطير بجناحين، الرجل والمرأة معاً، وأن انكسار أحد الجناحين يعني التوقف والهبوط. فلننظر إلى السنة ولنستبعد ما التصق ا من الواهيات والمتروكات.

إن مصاب الإسلام في المتحدثين عنه لا في الأحاديث نفسها".[26]

وينتقل الشيخ في كتابه من قضية لأخرى، بادئاً بمفاتيح لفهم مكانة المرأة ووظيفتها مقارناً بين وضعها في دار الإسلام ووضع النساء في مجتمعات أخرى، أسياً لحاها:

[24] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص52-53.

[25] المرجع السابق، ص59.

[26] محمد الغزالي: المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة (القاهرة: دار الشروق، 1990)، ص6.

"المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي، ولا دخل لها في برامج التربية ولا نظم ا تمع، ولا مكان لها في صحون المساجد ولا في ميادين الجهاد، ذكر اسمها عيب ورؤية وجهها حرام، وصو ا عورة ووظيفتها الأولى والأخيرة إعداد الطعام والفراش.

المرأة اليهودية تشارك مدنياً وعسكرياً في قيام إسرائيل، وها هي ذي توشك أن تكون في البيت الأبيض تضع اللمسات الأخيرة في الإجهاز علينا، ولا يزال نفر من أدعياء التدين يجادلون في حق المرأة أن تذهب إلى المسجد وتحضر الجماعات.

إننا نموت قبل أن يحكم علينا غيرنا بالموت! فهل نعي ونرشد؟"[27]

وينتقل الشيخ في الباب الثامن من الكتاب السالف الذكر إلى استعراض صفحات مطوية من تاريخ مشاركة المرأة وإسهامها في صنع ضة الإسلام وحضارته تحت عناوين مثل: "امرأة بألف رجل"، و "المرأة في العلم والأدب"؛ وفي الباب الثالث يتحدث عن وظيفة المرأة في إطار الأسرة تحت عناوين مثل: "لا تهونوا من وظيفة ربة البيت"، و "البيوت تبنى على الحب"؛ وفي الباب الرابع يتناول مفاهيم ينبغي أن تصحح مثل: القوامة وفلسفة المهر وبيت الطاعة والتشدد في إيقاع الطلاق ومشاركة النساء في المساجد، مذكراً النساء والرجل بآداب ا تمع الإسلامي الطاهر.

ويسوق الشيخ خبرته في العديد من الجامعات كالأزهر أم القرى والأمير عبد القادر بالجزائر في كثير من المواضع ناقداً فهم شباب الصحوة الإسلامية لمكانة المرأة ووظيفتها، فيكتب:

"عندما كنت أدرس في الجزائر الإسلامية كان الطلاب عن يميني في المدرج والطالبات عن يساري، ولاحظت أن الوجوم يخيم على الطالبات بعد أيام قلائل كن يسألنني فيها على استحياء! وعلمت أن الطلاب الذكور هددوهن إذا سألن –فصوت المرأة عورة!- ورددت على ذلك بمنع الأسئلة الشفوية من الجنسين وقبول الأسئلة المكتوبة وحدها! وأكدت ما قررته مراراً أنه لا عورة في صوت المرأة ولا في وجهها! ثم شعرت بأن مستقبل الإسلام في مهبة الريح

[27] المرجع السابق: ص33.

إذا بقي الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي ينشره بعض العلماء."[28] وربما كان ذروة ما كتبه الشيخ عن النساء هو ما ذكره في كتابه تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، إذ ينتقل خطوة أبعد من تكريم المرأة في ذا ا إلى تكريمها في كفاء ا ومشاركتها في صنع "حضارة الإسلام وتراثه" وحمل أمانة هذا الدين، فيقول:

"علوم السنة من أهم علوم الشريعة، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حافظ، وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل ذه العلوم بلْه أن يبرزن فيها ويبلغن مرتبة الإمامة، حتى قرأت رسالة السنة النبوية في القرن السادس الهجري للدكتور محمد إبراهيم الديك فوجدت عالمات بالسنة لا يشق لهن غبار، ولسن نـزراً يسيراً، بل عشرات من العالمات الثقات."[29] ثم يروي كيف شاركت المرأة في النهضة الدينية والثقافية والاجتماعية في عصور الإسلام المختلفة.

لقد تجاوز الشيخ في مؤلفاته الأخيرة إفراد المرأة بالحديث أضحى يضمنها خطابه عن الإسلام في مواضع شتى ومناسبات مختلفة ليقر بذلك بعد مسيرته الطويلة أن حضارة الأمة بناها وبينها الرجال والنساء معاً.

المرأة والأسرة: تكامل الدوائر

إذا كان الشيخ قد طور رؤيته التي ساعدت خبرته على صقلها وإنضاجها بشأن الحاجة للاهتمام بقضايا المرأة في عالمنا الإسلامي من منظور إسلامي قويم، فإن الخط المستمر في كتاباته منذ البداية كان هو الإدراك المبكر لأهمية الأسرة ومحوريتها في التصور الإسلامي، وفي مواجهة التحديات التي تجا نا في هذا العصر.

وقد اتخذ هذا الاهتمام صبغة أخلاقية في البداية، يهاجم الرذائل التي نجمت عن خروج المرأة وسفورها والكوارث التي حلت بالحياة الأسرية.[30] فحين كتب عن حقوق الإنسان أفرد جزءاً للحديث عن الأسرة واضعاً بذلك المفهوم الإسلامي للحقوق الذي يقوم على روح الجماعة مقابل المفهوم العلماني

---

[28] المرجع السابق: ص 52.

[29] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص158-168.

[30] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص113-122.

الفردي المفرط في الفردي، ومؤكداً كون الأسرة نسقاً للحقوق والواجبات يمثل قاعدة المجتمع الإنساني، وهو تصور يقدم جوهر النموذج النظري الإسلامي سواء بالنظر للإنسان ووظيفته في الكون أو فلسفة الحق في الإسلام.[31]

وقد توالت كتاباته تدافع عن حقوق المرأة، لكنها تحذر في الوقت ذاته من الموبقات التي ترتكب باسم إشراكها في الحياة العامة، مشدداً على ضرورة الالتزام بضوابط السلوك وقيم الأخلاق الإسلامية، وعلى عدم التنازل ولو قيد شعرة عنها، وإلا عم الفساد؛[32] ويصوغ ذلك في تعبير بليغ فيقول: "إننا لا نريد أن تنتقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام"،[33] موضحاً أن طريقاً وسطاً هو السبيل، وليس اتباع خطى الغرب أو إبقاء الحال على ما هو عليه: "الأسرة أساس المجتمع، فكل ما يتهدد كيانها أو يضعف سلطانها أو يفسد جوها فلا بد من منعه باسم الإسلام.

"وقد عرف القريب والبعيد أن الإسلام نظام متكامل، وأن إنفاذ بعض تعاليمه مع غيبة البعض الآخر لا يقيم مجتمعاً إسلامياً، وأن إصدار فتاوى في الحالات العارضة مع إغفال الملابسات القائمة قد يسيء إلى الإسلام أو إلى الأمة أو إليهما معاً."[34] ويخوض الشيخ المعركة مدافعاً عن الأسس الفقهية والأصولية التي انبنت عليها مواد القانون المصري الذي يراد تعديله، ويرد على دعاة تقييد الزوجات والطلاق، مشفقاً على الأمة من مزيد طعن في شريعتها، ومهاجماً من يريد أن يبدل في شرع الله، ويستعرض في أناة الباحث المدقق مواد القوانين المدنية في ضوء واقع الإحصاءات الرسمية موضحاً بعد كثير منها بالفعل عن أحكام الشرع، واضعاً الحق في نصابه ومؤكداً حقوق المرأة في ضوء الشريعة كما هو الأمر في حق الخلع، وهو في ذلك لا يدافع فحسب عن المرأة المسلمة بل عن شريعة الله وتماسك المجتمع المسلم: "فشرائع الإسلام ليست

[31] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، مرجع سابق، ص137-159.
[32] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص113-122.
[33] محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص338.
[34] المرجع السابق، ص339.

أحوالاً شخصية م أصحا ا وحدهم من حقهم أن يبقوها إذا شاؤوا أو يغيروها إذا شاؤوا.

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحاً فنياً محضاً فهو ليس من صنع علماء الإسلام."[35]

ويرفع الشيخ صوته في خطب الجمعة داعياً جماهير المسلمين إلى ضبط العلاقات داخل الأسرة بموازين الشرع، فهو لا يواجه "السادة" الذين يريدون تغيير القوانين فقط، بل يستنهض الناس أن يستمسكوا بشرع الله في ممارسا م اليومية داخل الأسرة وفي القوانين،[36] مذكراً الأمة بوصية رسول الله للرجال في حجة الوداع أن يستوصوا بالنساء خيراً.[37] وفي موطن آخر يهاجم "بدع العادات" التي انتشرت في مجال العلاقة بين الجنسين والعلاقات داخل الأسرة داعياً الرجال والنساء إلى صحوة تأخذ سبيلها إلى أسرهم وبيو م،[38] ومذكراً المرأة المسلمة بواجبها ووظيفتها في هذا الصدد.[39]

وحين تعرض على الشيخ أسئلة النسا وشكاويهم يدرك الظلم الذي يكتنف ممارسات الطلاق، والتعسف في استخدام هذا الحق على يد بعض الرجال، فيوجه ويرشد ويربط على قلب الشاكيات بتفقيههن بحقوقهن،[40] ولا يرى العلاج في تشريع قوانين تقيد الطلاق الذي يهز أركان البيت المسلم، بل في تعليم الناس: "إن منع الطلاق إجراء يقع في الغرب حيث يستطيع الرجل أن يبقى زوجاً صورياً لامرأة ويتصل بغيرها وتتصل بغيره.

علاج سوء التطليق هو رفع المستوى العلمي والخلقي، وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهي قواعد نبل وأشرف ما وعى التاريخ".[41]

---

[35] محمد الغزالي: كفاح دين، مرجع سابق، ص204.

[36] قطب عبد الحميد، مرجع سابق، ج2، ص94-104.

[37] المرجع السابق، ج3، ص126-127.

[38] محمد الغزالي: ليس من الإسلام (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، 1983، ـ ط5) ص231-232.

[39] محمد الغزالي: الطريق من هنا (القاهرة: دار البشير، 1987)، ص46-47.

[40] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص242-252.

[41] محمد الغزالي: هذا ديننا (القاهرة: دار الشروق، 1990، ط2)، ص173-177.

وإذا كان الشيخ قد اتخذ موقفاً يعضد مشاركة المرأة في فعاليات الأمة، ويشدد في الوقت ذاته على أهمية الأسرة ووظيفة المرأة بداخلها، فقد أدرك أن المقولات النظرية وحسن النوايا وحدهما لا يحلان الإشكالية؛ لذا فهو يسعى لحلول عملية يمكن من خلالها صياغة هذا التوازن. وقد نادى بتغيير قوانين العمل لتصبح مدة عمل المرأة نصف مدة عمل الرجل فيجمع النساء بين الخيرين: دائرة الأسرة، ودائرة الأمة:

"كثيراً ما تساءلت: لماذا تكون للمدير سكرتيرة خاصة؟ لماذا تشتغل الفتيات بالخدم في الطائرات وحدهن؟ ويقضين في الجو وفي الفنادق ليلهن و ارهن؟

إن النساء يحشرن في أعمال كثيرة لا معنى لها، وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع على الفور، وسيكون عملها في أي موقع مضبوطاً بآداب الشرع وحدوده، ذلك ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة وصاحبة منصب منتجة. إن ذلك قد يقع على ندرة، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت [بالنسبة لمدة عمل الرجل] حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شؤون بيتها وأولادها.

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرفة طاهرة أمر ميسور. إنني غيور على الأعراض كأشد المتزمتين، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان، فالبون بعيد بين تكوين عقلية وضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد في قفص من حديد."[42]

كذلك نظر الشيخ في مسوغات منع المرأة من المشاركة العامة ثم نظر في السيرة المطهرة وكتب: "حبذا لو درس المسلمون كيف انتظمت العلاقات بين الجنسين في صدر الإسلام، وكيف اجتمع أفراد الأسرة كلها في ساحة المسجد طرفي النهار وزلفاً من الليل، بل كيف قاتل الرجال والنساء معاً لإعلاء كلمة الله، وكيف أجمع الفقهاء على أنه إذا وقع هجوم عام على الوطن الإسلامي كلف كل مسلم ومسلمة بإجابة النفير والخروج لبذل النفس والنفيس.

[42] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص 272-273.

إنه في ضوء هذه العلاقات المقررة شرعاً يمكن تصور البيئة التي تولد فيها الأسرة وتنتعش وتحيا وتؤدي رسالتها الكاملة"[43]

نحو ـض نسائية رشيدة

إذا كانت أصوات عديدة منذ بداية القرن قد ارتفعت تحذر من مقولات تحرير المرأة التي تدثرت بعباءة حقوق الإنسان لتخفي أطروحات علمانية، وا ـمها الكثير من الإسلاميين بالعمالة والخيانة والانحلال وغير ذلك من الأوصاف القاسية، فإن الشيخ محمد الغزالي رحمه الله قد وجه اللوم منذ البداية إلى أهل الفقه والذكر من المسلمين وفضل نقد الذات، مؤكداً في هذه القضية وغيرها أن "الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"،[44] فاللوم يتوجه إلى من قصر وأساء ابتداءً.

ومنذ وقت مبكر نصح الشيخ في هدوء أهل دعوات تحرير المرأة أن يؤسسوها على ـج الإسلام إذا أرادوا لها النجاح، فكتب في الستينيات بأدبه المعهود يقول:

"نحن نلفت رواد النهضة النسائية إلى ما في التراث الإسلامي من نفاسة تعجب، وما فيه كذلك من أسانيد لقضاياهم النـزيهة إذا أرادوا أن يربطوا حركتهم بالإيمان والمعرفة ويبتعدوا عن مزالق الهوى والتحلل."[45] ولا يكتم الشيخ نقده للخطاب السائد بشأن قضايا المرأة وغلبة الغلو فيه، بل يرفع صوته من فوق المنبر خطيباً فيقول:

"أمتنا بحاجة إلى ـضة نسائية رشيدة، لم؟ لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة، أو ينظرون فيها بحماقة وقلت فقه، ولو وكل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عبادة ولا علم ولا عقل ولا فكر ولا نشاط ولا شيء. هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغي أن يحرم من الكلام باسم الله! والنهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يطرد نوع آخر من المتحدثين في قضايا المرأة، وهم عبيد أوروبا الذين يريدون إشاعة الخنا في بلادنا، والذين لا يعنيهم أمر العفة ولا أمر الأسرة، ولا يبالون أن ينقلوا ما هنالك بعمى غريب!

---

[43] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مرجع سابق، ص232.

[44] انظر: محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (القاهرة: دار الصحوة، 1987).

[45] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص113.

... نريد تسليم النهضة النسائية إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات آمرات بالمعروف ناهيات عن المنكر حافظات لحدود الله."[46] وقد زادت الشيخ خبرته في الجزائر وفي بلدان إسلامية أخرى إدراكاً لخطورة هذا الاستقطاب بين من يريدون إقصاء النساء، ومن يريدون إقصاء الإسلام، فهو يقول على سبيل المثال:

"ما الذي دعا الشيوعيات على التصايح ضد قانون الأسرة في الجزائر والمطالبة بالغائه؟ الذي دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثاً استفز أولي الألباب وبعث في النفوس الوجل من مستقبل يستولى فيه أولئك الإسلاميون على الحكم."[47]

ويكرر الشيخ في كتابه قضايا المرأة... تأكيد هذه الهموم:

:لو نجح أهل الدين في تولي السلطة لغلقت على النساء الأبواب ولم ير وجه واحدة منهن أقول: والكارهون للإسلام والخائفون من عودته لهم العذر عندما يلتقطون للدين هذه الصورة الكالحة الشائهة.

إن حاجة العالم للإسلام ملحة، بيد أن ناساً من ذوي الجهالة والجرأة لا يعلمون ويكرهون من يعلم، ولا يعملون ويكرهون من يعمل، وقفوا في هذا العصر سداً أمام تيار الإسلام، يعكرون صفوه، ويمنعون ورده، ويصدون الأمم عنه".[48]

خاتمة

إن ما نحتاجه هو ضة إسلامية رشيدة نسائية كما يرى الشيخ، تضع الأمور في نصا ا وتعالج داء الأمة بدواء دينها الشافي لا بحلول غريبة تزيدها عللاً وأسقاماً، وتحرر النساء باسم الإسلام، بقيادة نساء عالمات عاملات.

لقد استمد جيلنا من قوة الشيخ الغزالي على قول الحق المر ونقده للذات قبل نقد الآخرين دروساً وآداباً ترسخت في أعماقنا، و ضت نساء هذا الجيل في ثقة بالله ويقين بعدل رسالة الإسلام التي أرسلها رحمة للعالمين، يشاركن في الصحوة الإسلامية و ضة مجتمعا ن، بل يدافعن عن حقوق المرأة في كل

---

[46] قطب عبد الحميد، مرجع سابق،ج4، ص159-160.

[47] محمد الغزالي: تراثنا الفكري، مرجع سابق، ص48.

[48] محمد الغزالي: قضايا المرأة، مرجع سابق، ص30-31.

مكان. ولقد شهدت المؤتمرات الدولية –وآخرها مؤتمر بكين سنة 1995م- وفوداً نسائية إسلامية تدعوه لتحرير المرأة بتحكيم الشريعة وبالتصالح مع الدين لا معاداته أو إقصائه عن الحياة الاجتماعية والسياسية.

والله نسأل أن يجزي شيخنا عنا خير الجزاء، ويعوضنا عنه خيرأن ويرزق الأمة =رجالاً ونساءً- بعلماء شوامخ يقولون الحق ويصيرون على ذلك لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة.

ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي

محمد وفيع الله*

عاش الشيخ محمد الغزالي (1917م-1996م) عمراً مديداً أنفق قسطاً وافراً منه في الكتابة، وخلّف ما يفوق تعداده الخمسين كتاباً في شتى قضايا الفكر الإسلامي، أبرز فيها الأبعاد الاجتماعية الحقيقية للإسلام. وكان أول ما صدر له كتاب الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية، وكان من آخر كتبه –تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل- ليعالج إحدى الآفات في حقل الدعوة وهي آفة التصلب العقلي، وليطبق أصول الفقه الإسلامي على بعض القضايا المستجدة والخلافية، ونـزع فيه إلى اتخاذ منهج أصولي معتدل يكفكف به من غلواء بعض المتفقهين وتطرفهم، ويصفي به بعض محاور الجدل الحاد في الشأن الاجتماعي.

وفي كل إنتاج الشيخ الغزالي كانت سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة واضحة، سواء في تركيبه للأفكار، أو في أسلوبه في الطرح والحوار، أو في الوعاء اللغوي الأنيق الذي استخدمه لبث تلك الأفكار. وعلى مدى نصف قرن ونيف من جهاده الفكري، هبت في وجهه مختلف الجبهات المتناقضة في تفكيرها، والمتحدة من حيث اعتراضها على أفكاره ومنطلقاته التجديدية. وقد كانت اصطداماتٍ عنيفة حقاً إذ لم يكن الشيخ هو الآخر ممن ينحتون للعواصف، أو يتلطفون في العراك الفاصل؛ ودارت رحى جدال عنيف حام، أصلى فيه الشيخ معارضيه من العلمانيين وأولياء الجمود والتبعية –مثلما أصلوه- من قارص القول وحديد الكلم. ولكن المعركة انجلت في النهاية عن

---

* دكتورا في العلاقات الدولية من جامعة المسيسبي بالولايات المتحدة الأمريكية 1414هـ/1994م؛ محاضر بجامعة أم درمان الإسلامية (السودان).

انتصار بين لصالح الفكر التجديدي المستقبلي الذي نافح عنه الشيخ، وانكسار واضح لقواعد الجمود والتقليد وتيارات الغزو الفكري، التي توطدت في بلادنا منذ زمن بعيد. ولقد كان ذلك البلاء الفكري هو بعض ما أهله لأن تعده الدكتورة إيفون حداد إحدى خيرات الفكر الإسلامي في الغرب –واحداً من أقوى العلماء الذين تصدوا لغزوة الأفكار الغربية الحديثة التي كان من الممكن –كما قالت- أن تصيب الإسلام بمثل ما أصابت به المسيحية واليهودية في أوربا.[1]

لقد كانت اجتهادات الشيخ الغزالي السياسية هو الثمرة الناضجة لجهود المدرسة الإصلاحية التي بدت بوجه سياسي سافر على يد جمال الدين الأفغاني، ثم اتخذت منهجاً تربوياً تعليمياً تكوينياً متأنياً على يد محمد عبده، ثم عادت على يد رشيد رضا ومدرسة المنار لتشتغل في إطار العلوم الشرعية مع الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي السياسية.[2] وقد كان لمدرسة المنار فضل تعميق الخطين معاً: خط السياسة الثورية للأفغاني، والخط التربوي التكويني لمحمد عبده، وذلك مع تصحيح أطر التفكير التي أرساها كل من هذين الرائدين. ولأن الشيخ رضا كان أقل "راديكالية"، وأكثر دأباً من سابقيه، فقد أدت مثابرته في عالم الكتابة والنشر إلى التأسيس الحقيقي لما يعرف، وفق التسمية الفضفاضة غير الدقيقة، بالمدرسة السلفية.

وأسهمت إشاعات تلك المدرسة في إنضاج أفكار عدد من أعلام الفكر والعمل السياسي الإسلامي مثل عبد الحميد بن باديس وعبد الكريم الخطابي وحسن البنا. وهنا يمكن إرجاع الفضل إلى جهود الشيخ رشيد رضا في تنقية فكر الشيخين الأفغاني وعبده، وترشيحه عبر منظوره السلفي النقلي، وتقديمه مخلصاً من شوائبه وشطحاته، ليكون أساساً لفكر عصر اليقظة الإسلامية وإلا

---

1 Hadad Yvonne Y.: “Muslim Revivalist Thought in the Arab World” The World (October 1986),p.146-147

وقد خصت بالذكر الأثر الذي تركته ثلاثة من كتب الشيخ هي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، وكفـاح دين، وقذائف الحق.

2 لقد كان طريفاً مثلما كان ثاقباً من هاملتون جب أن انتقد رشيد رضا لاستبداله ابن تيمية بأبي حامد الغزالي لتوجيه المدرسة السلفية الإسلامية الحديثة. صحيح أن أبا حامد انتقد الفلسفة اليونانية وأبان عن افتها وعوارها، إلا أنه ظل –بسبب استمرار تأثره ا- أقرب إلى قلوب المستشرقين من منطق الأصالة الصارم لابن تيمية، كما كانت تعاليم ابن تيمية أقرب إلى تحريك الحركات السياسية وتعبئتها من تعاليم الغزالي، ولذلك فلا عجب أن كان الغزالي ومحمد عبده أقرب إلى عقل جب وقلبه من ابن تيمية ورشيد رضا. راجع كتابه:
Modern Trends in Islam (Chicago Univ.Press, 1949),p.34

فإن أفكار الأفغاني ومحمد عبده في صور ا الأولى قد أنجبت عدداً من التلاميذ ممن لا يمكن وضعهم في سياق فكري سياسي إسلامي، شأن سعد زغلول ولطفي السيد، وكلاهما كان يعتز بتتلمذه على خط محمد عبده، ويظن أنه كان الامتداد الحقيقي لذاك الخط.

بل إن بعضهم كان يستنكر بحنق واضح جهود الشيخ رشيد رضا في تصحيحه خط الأستاذ الإمام، كما يستكثر عليه أن يكون الوارث الحقيقي لخط المدرسة السلفية بزعم أنه كان مقلداً أكثر منه حاملاً للواء التجديد.[3]

ومن كان يظن أن جهود الرواد يمكن أن تذهب هدراً،[4] فلينظر إلى جهود رشيد رضا كم أثمرت سواء على صعيد المنهج أو على صعيد إنتاج المفكرين. ومن جملة المفكرين الذين ورثوا خط السيد رشيد رضا النابض بالإيقاعات السياسية، كان الشيخ محمد الغزالي الذي استطاع العمل السياسي التنظيمي في جماعة الإخوان المسلمين التي انتظم في خطها إلى أواسط الخمسينيات، ثم تخلى عنها تنظيمياً، من دون أن يتباعد عنها فكرياً أو سياسياً.

المدخل الكلي في **السياسة**

لقد كان انتماء الشيخ الغزالي الفكري لتلك الجذور العريقة هو ما أعطى فكره صورته الكلية. ومن بين الكتب العديدة التي ألفها يمكن اعتبار عشرة منها كتباً سياسية خالصة، أما بقية أفكار الشيخ السياسية. وهكذا فبغير قراءة واسعة في تراث الشيخ يتعذر على القارئ أن يجمع خيوط تلك الأفكار، وأن يضعها في نسق منتظم؛ فبقدر ما أكثر الشيخ من الإنتاج الفكري، كانت أفكاره السياسية تتأثر وتتوزع وتتداخل مع موضوعات أخرى، محققة بذلك نوعاً رائعاً من التلاحم ما بين الشأن السياسي والاقتصادي والثقافي والتربوي والروحي. وقد كان طبيعياً أن تأتي أفكار الغزالي ذه الصورة الكلية، إذ إ ا منبثقة عن إطار عقائدي ومعرفي أشمل هو الإطار الإسلامي.

---

[3] ذلك هو من زعم الدكتور طه حسين الذي كان يميل لإعطاء تلك الوراثة للشيخ مصطفى عبد الرزاق. ومـع جدارة الشيخ عبد الرزاق، واجتهاداته فيما يتصل بمناهج البحث وتأصيل الفلسفة الإسلامية، إلا أن جهوده لم تكن تتصل مباشرة بالخط السياسي الاجتماعي، وإنما ظلت حبيسة أطر الأبراج الأكاديمية.

[4] ذكر رشيد رضا في بعض مذكراته أن الأعداد الأولى من مجلته التي أصدرها باسم: المنار، كسدت في الأسـواق، ولكنه لم يشأ أن يجعلها وقوداً للنار أو يبيعها وزناً لتكون مادة للفائف التجار، موقفاً أن الأمة ستعود إليها لاحقـاً بعد أن أعرضت عنه... وبالفعل فقد ستطاع الشيخ رشيد رضا أن يبيع في وقت لاحق كل ما كيد مـن أعـداد المنار.

وهكذا فقلما يفصل الشيخ فصلاً حاسماً ما بين النظامين الاجتماعي والسياسي، فقد يركز على الجانب الاجتماعي كما هو الحال في كتابي: الجانب العاطفي من الإسلام وجدد حياتك، ولكنه لا يخلي مثل تلك الكتب من إشارات إلى أثر الدولة أو العامل السياسي في حياة الناس. وأما عندما يتناول الجانب السياسي الخالص فإنه يصله بخيوط قوية بمفاهيم الإسلام الاجتماعية، ولذلك فإنك تعثر في خضم تحليلاته السياسية على تصورات أخلاقية خالصة. وقد يتعذر على المرء أن يعثر على كلمة "عفاف" مثلاً في كتاب من كتب علم السياسة، ولكنك واجد مثل ذلك بكثرة في كتب الغزالي السياسية، وواجد ربطاً قوياً لمفاهيم الدين المركزية مثل "الورع" و "التقوى" و "الجزاء الأخروي" بتفاصيل ممارسات العمل السياسي.

لقد كان الشيخ الغزالي يحاول دائماً رفع المعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية. وهذا هو المنهج الأسد، لأن النظام السياسي الإسلامي لا يؤتي ثماره ناضجة إلا في هذا الأفق؛ وكما لاحظ مالك بن نبي بحق، فإن الحضارات الإنسانية كافة ما كانت سوى حلقات متشا ة في أطوار نموها، تبدأ الحلقة الأولى بظهور الروح الدينية، ثم تتغلب جاذبية الأرض والمادة عليها فتفنى قوة الروح والعقل.[5] وهذه ناحية في غاية الأهمية ينبغي أن يتفطن إليها ا تهدون في علم السياسة الإسلامي، في ضته المرتجاة، فلا يحدوا من مداه الرحب، ولا يجردوه من المضامين الروحية والأخلاقية. وقد ظهرت بالفعل إلى عالم الوجود كتب سياسية إسلامي اختار أصحا ا –بتعمد- أن يتخذوا منحى دستورياً جافاً مجرداً من روح الدين، وخالياً لو من إشارات عابرة إلى جوانب الروح، وضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية الكثيرة، التي بد ا لا يمكن أن يستقيم نظام الحكم الإسلامي؛[6] وهي كتابات نرجو ألا تكون نموذجاً يحتذى في الاجتهاد السياسي الإسلامي المنشود، إذ إ ا تجزئ الإسلام بالطريقة نفسها التي جزأت ا العلوم السلوكية الحديثة مفهوم الإنسان،[7] وعملت على معالجة

[5] مالك بن نبي: شروط النهضة (دمشق: دار الفكر، 1401)، ص53..

[6] من أمثلة تلك الكتب دراسات الدكتور عبد الحميد متولي، وقلما تجد في مطولاته مبادئ نظام الحكم في الإسلام أدنى إشارة إلى الإطار الكلي الإسلامي، أو إلى روح الدين التي تصوغ الحكم والرعية وتشكل ضمانة فعالية النظم الإسلامية.

[7] في ذلك يمكن مراجعة الكتاب القيم لـ :

Floyed W.Matson: The Broken Image: Man Science and Society, (New York: George Braziller,1964)

مشكلاته من منظورات جزئية اقتصرت على دلالات علم واحد كعلم الاقتصاد أو علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو الاجتماع... إلخ، غير واضعة في الحسبان ضرورة النظر إلى الكينونة الإنسانية في أبعادها كافة. ومن البديهي التسليم بضرورة التخصص في إطار بحثي ضيق لاستخراج نتائج علمية محددة، ولكن من الخطل الفكري والمنهجي الفادح أن ينظر إلى الإنسان مثل تلك النظرة التجزيئية التي تعامل ا حيوانات المعامل أثناء البحث.

وبلغة مناهج البحث يمكن أن يقال ن عوامل التغيير هي دوماً عوامل متفاعلة، بمعنى أنه عوامل مؤثرة في عوامل أخرى ومتأثرة ا في الوقت ذاته، ويندر ن لم يستحل وجود العالم المستقل the independent variable، وإن كانت العلوم الاجتماعية الحديثة توهم بإمكان وجود مثل ذلك العامل. وإن أمكن وجود مثل ذلك العامل بالفعل، فإنه يبدو مستقلاً فقط في إطار علم اجتماعي محدد، ولكنه يبدو متأثراً بعوامل أخرى حين فتح مجال الدراسة على تخصصات علمية أخرى. ولذلك يتحتم على أصحاب التخصصات الضيقة مثل علم النفس والاقتصاد والتاريخ أن ينفتحوا كثيراً على العلوم الأخرى ا اورة لتخصصا م، فضلاً عن التمكن في الفكر الإسلامي من منابعه وأصوله، وذلك بالطبع لكي يتبلور اجتهاد إسلامي صلب وأصيل في مجالات العلوم الاجتماعية، ولكي تضم أجزاء الإسلام بعضها إلى بعض، وحتى لا يبتر أي جزء منها بحجة عدم ملاءمته لأوضاع الناس اليوم.

رد السلطة إلى الدين

وفي سبيل ضم أجزاء الجسم الإسلامي بعضها إلى بعض، كان الفكر السياسي للشيخ الغزالي يعمل على جلب قضايا الغيب والروح والأخلاق إلى ميادين السياسة، كما يعمل من ناحية أخرى في سبيل جذب السياسة نفسها إلى إطار الدين، وتلك جهود ووجهت بمعارضات ومعاندات شتى، حتى من جبهة أولياء الدين.

إن قضية العلاقة بين الدين والسياسة، والمسلم ا حاليا بوجه عام في الأفق الثقافي، لم تتأت إلا عقب جهاد عقلي كثيف خاضه العلماء والمفكرون المسلمون ضد أساطين الغزو الفكري. ومنذ بداية العشرينيات من هذا القرن

وهو يحتوي على نقد لتجرد العلوم الاجتماعية عن النظرة الشاملة، واستبعادها للقضايا الميتافيزيقية، واستعراض لمغبة ذلك على حياة الإنسان المعاصر.

كان العلمانيون قد لجأوا إلى حيلة "علمنة الإسلام من الداخل"، أي ترويج أفكارهم باستخدام أغطية شرعية. وكانت المهمة الكبرى تتمثل في عزل الدين عن الدولة. وفي هذا الصدد أصدر الشيخ علي عبد الرازق –أحد علماء الأزهر- الذي أتيح له أن يدرس العلوم السياسية بجامعة أكسفورد البريطانية[8] كتابه الشهير: الإسلام وأصول الحكم، الذي ذهب فيه إلى القول بأن "الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية! كلا ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك خطط سياسية صرفة لا شأن للدين ا، فهو لم يعرفها، ولم ينكرها، ولا أمر ا ولا ى عنها".[9] وعلى إثر هذه الأفكار المدوية صدرت سبعة كتب لعلماء ومفكرين مسلمين تعقبتها بالرد، فاضطربت مراكز الغزو الفكري، واضطرب علي عبد الرازق نفسه زماناً، وامتنع عن إعادة نشر كتابه على الرغم من إلحاح العلمانيين عليه،[10] وعلى الرغم من ترويج دوائر الاستشراق له ودفاعها عنه.

وانقضت ثلاثون عاماً حتى برز خالد محمد خالد من الأزهر يروج للمضامين ذا ا في كتابه من هنا نبدأ. وإذا كان علي عبد الرازق قد تشبث بمفاهيم العلوم السياسية التي شدا ببعضها في أكسفورد، فإن خالد محمد خالد قد انتحل لنفسه صفة المفكر الإنساني humanist الحادب على الحريات العامة وحقوق الإنسان أن تنتهكها الكهانة الدينية إذا ما استبدت بزمام السلطان. وعلى الرغم من معرفته بالتجربة التاريخية الإسلامية التي تنفي وجود مثل تلك الطبقة أصلاً، بلْه أن يتاح لها أن تتحكم في رقاب الناس، فإنه فضل أن يعزف على وتر تلك المخاوف المتوهمة، التي لا يمكن تأمين الناس من شرها إلا بفصل الحكم عن الدين.

---

[8] Adams, Charles C: Islam and Modern in Eygypt (New York: Russell & Russell, 1968),p.260

[9] علي عبد ا لرازق: الإسلام وأصول الحكم (القاهرة: مطبعة معد 1925)، ص103.

[10] ذكر محمود أمين العالم أنه سعى إلى الشيخ علي عبد الرازق قبيل وفاة لإقناعه بإعادة طبع الكتاب، فتمنع كثيراً، ولم يقتنع إلا بعد أن أوضح له أن الجو الفكري قد تغير كثيراً، وأن السلطات السياسية أصبحت أكثـر جـرأة في رعايتها لمثل هذه الأفكار، وحمايتها لأصحا ا، فأذن له بإعادة طبع الكتاب، على ألا يحمل هو –أي عبد الرازق- أي مسؤولية من جراء ذلك! وفي ذلك يقول محمود أمين العالم: "تمنيت أن يخرج الكتاب في حياته ليكون معنى من معاني الوفاء والعرفان بالجميل يقدمه جيلنا المعاصر لهاذ الجيل السابق الذي مهد لنا الطريق"! جريدة أخبار اليـوم (مصر)، بتاريخ 8 ديسمبر 1996م.

وفي كتاب من هنا نعلم تولى الشيخ الغزالي نقض تلك الأطروحة من الأساس. وقد كان طريفاً أن يشتبك شيخان أزهريان، يفترض أن مبادئ ثقافتهما موحدة، يعتز كان حول قضية أصولية كبرى من قضايا الدين، هي معلومة من الدين بالضرورة الآن، ولكنها لم تكن كذلك في ذلك الزمان. وبمنطق علمي راسخ تولى الشيخ الغزالي إعادة تعريف المصطلحات المستخدمة في الجدال؛ فنظام الكهنوت –بتعبير خالد محمد خالد- أو طبقة رجال الدين بالاستخدام الدارج، طبقة وجود لها، ولا شرعية لها في الإسلام... فقط "قد يوجد فريق من الناس يختص بنوع من الدراسات العلمية المتعلقة بالكتاب والسنة، وهذا النوع من الدراسات لا يعدو أن يكون ناحية محدودة من آفاق الثقافة الإسلامية الواسعة، تلك الثقافة التي تشمل فنونا لا آخر لها من حقائق الحياتين ومن المعارف المادية وغير المادية"،[11] وهؤلاء لا يشكلون طائفة مغلقة ذات تفويض سلطاني خاص.

وأما مصطلح)تأويل القرآن) الذي اتخذه خالد محمد خالد حجة أخرى تشير إلى سعة سلطان الحاكم المسلم، الذي يستطيع تأويل القرآن كما يشاء لتسويغ تصرفاته وتمريرها على الناس، فإن الشيخ الغزالي يعطيه حده الدقيق فيقول: "صحيح أن القرآن اعتمد في أحكامه وتوجيهاته على التعبيرات العامة والألفاظ المرنة، حتى يساير العصور كلها إلى قيام الساعة، وهذه آية من آيات إعجازه، بيد أن العموم والمرونة شيء آخر غير الغموض والإ ام... و[في] السنة مزيد من البيان لما أجمل القرآن وذكره من تفاصيل. [أما إذا] كانت بعض الآيات المتصلة بذات الله وصفاته فوق مستوى العقول، فإن آيات العقائد والأحكام والأخبار والأوصال –وهي أكثر القرآن- محكمة، ثم هي وحدها منبع التشريع ومناط التكليف"؛[12] فليس ثمة فوضى في التأويل بحجة أن القرآن حمال أوجه شتى، لك أن تختار منها ما يوافق هواك، كما زعم خالد محمد خالد.

وتناول الشيخ الغزالي المنهج الذي بنى عليه خالد محمد خالد حججه في سلب حق الإسلام في الحكم قائلاً إنه منهج مقلوب، "ونحن نعلم أن الناس يعيرون بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه... بيد أن الشيخ خالداً يعير

[11] محمد الغزالي: من هنا نعلم، (الجزائر: دار اكتب)، ص22.

[12] المصدر نفسه، ص37.

الإسلام بخروج البعض عليه ويريد ليحمله تبعة أعمالهم. فإذا ضل الحجاج فالعلة في نظره أن التشريع غامض، لا أن الحجاج حاكم ساقط... وتطرد الأمثلة في استدلالاته على هذا النحو المتداعي، حتى يخرج منها في لنهاية بأن الدين ليس أهلاً لأن يحكم! ولو كان عبث الحكام بنصوص الحكم سبباً لإهدار العمل ا، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام في العقائد والداب سبباً لإهدارها كذلك؟"[13]

فالمنطق مقلوب بشكل مثير، فقد كان على خالد محمد خالد –كما ذكر الغزالي- أن يميز بين المثال والواقع التاريخي، وأن يحاكم الوقائع التاريخية الشاذة في ضوء المثال الإسلامي العام، لا أن يحمل الدين آصار تلك الوقائع، أو أن يبني أحكامه الشاملة التي قضت بحرمان الدين من سلطته، على إساءة استخدام بعض الحكام لها.

وعلى الرغم من أن خالد محمد خالد قد سبق أن رفض منهج التأويل، إلا أه عاد ليستخدمه لما رأى أن يقضي مأربه في سلب سلطان الدين السياسي. وهاهو يؤول حديث "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ليستنتج منه أن الناس أولى بأن يترك لهم أمر اختيار أو ابتكار أنظمة الحكم التي تناسب أوضاعهم؛ وفي هذا المقام يتجاهل أن أصول الاستدلال الفقهي لا تعطي هذا الحديث ذك المدى المطاط الذي ولج فيه، وإنما تقصره على مدى القضايا الفنية المتعلقة بمسائل الصناعة والزراعة والطب ونحوها من الحرف والمهن، من غير ما تعد إلى حدود القضايا المبتوت فيها شرعا، كقضايا الحكم والقضاء والاقتصاد. والغريب أن خالد محمد خالد قد استخدم هذا الحديث ليحمل على مبدأ الحدود الشرعية، وليوهم جواز تغييرها أو تعطيلها، وإمكان توكيل السلطات المدنية بتنفيذها في إطار ما تنفذه من أحكام القضاء المدني، هذا إذا كان لا بد من تنفيذها!

ورداً على ذلك يؤكد الغزالي أن نظام الحك الإسلامي ليس نظاماً من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء، ويهمل ما يشاء، وإنما هو نظام منبثق أساً عن عقيدة التوحيد ومعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية، وأن الحدود جزء لا يتجزأ عن نظام الإسلام القضائي؛ صحيح أن الجانب العقابي في

[13] المصدر السابق، ص39.

الدين ليس هو الجزء الأهم من التشريعات الإسلامية، ولكنه جزء أصيل لا يتجزأ عن مجمل شريعة الإسلام.[14]

وفي تعقبه لاستدلالات صاحب من هنا نبدأ، فإن الشيخ الغزالي يتولى دحض الحجة التي ابتكرها الكاتب، والتي ستصبح –مع ذلك!- الحجة الأثيرة للعلمانيين، الذين لا يريدون مصادمة الدين بعنف، وإنما يظهرون بمظهر الحادب عليه. يقول خالد محمد خالد: "إن الدولة عرضة للنقد والتجريح، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار، فكيف نعرض الدين لهذه المهانة؟" وعلى ذلك يرد الغزالي رداً معجباً حيث يقول: صحيح أن "الدولة عرضة للانتصار والانحدار، فإذا تأسست على الدين، فأي ضير على الدين أن يكون في حال النصر زماماً يمنع المنتصر من الطغيان، وفي حال الهزيمة حافزاً يغري بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان. ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها فهل ينقلب الحق باطلاً لأنه انخذل في معركة؟ أي عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التي تنافح عنه؟ وقديماً هزم الدين وقتل في هزيمته صديقون وأنبياء"؛[15] فهزيمة الدين أو أوليائه لا تعني ألاّ يناضل الدين ودعاته، وأن ينسحبوا من ميدان المعركة ابتداءً.

و ذا النهج المنطقي تعقب الغزالي مفاصل كتاب من هنا نبدأ، وترصد حججه التي بذل صاحبه جهداً كبيراً في تطويرها وإلباسها ثوب المنطق الإسلامي، حتى تستأصل –في عملية جراحية شرعية!- هذا "الزائد الإسلامي"[16] المسمى "أصول الحكم"، الذي ما كان سوى مظهر سياسي خارج عن حدود الدعوة الدينية التي كلف ا الرسول صلوات الله عليه، كما قال علي عبد الرازق، أو طارئ استلزمته الضرورات الاجتماعية في ذلك العهد لا غير، كما زعم خالد محمد خالد. وهنا يعطي الغزالي هذا المثال المقارن المستقَى من المناخ السياسي لتلك الأيام... يقول الغزالي: "هب أن رجلاً كون فكرة عن تشرشل داهية إنجلترا المعروف أنه أديب وخطيب وأن حياته تقوم عل الكتابة والخطابة فحسب، وأنه لا يعرف عن السياسة شيئاً ول يعمل في

---

[14] راجع تلك المناقشة في صفحات 29-32 من المصدر السابق.

[15] المصدر السابق، ص51.

[16] عبارة "الزائد الإسلامي" استخدمها د. محمد البهي في تلخيصه ونقده لموقف الشيوخ الـذين اسـتخدموا لأداء مهمة التنظير لفصل الدين عن الدولة. راجع مناقشته العلمية القيمة لهم في كتابه الفكر الإسلامي الحديث وصـلته بالاستعمار الغربي (القاهرة: مكتبة وهبة، 1991)، ص196-206.

ميادينها يوماً! فإذا قلت له: إن هذا الرجل ولد وشاخ في السياسة، وإنه خاض حربين هائلتين، وضرب دول العالم بعضها ببعض، وكان لتدبيره وتفكيره أثر عميق في تاريخ بلاده، وشن الحروب وعقد المعاهدات وتشريع القوانين وتولي القضاء وغير ذلك من الأعمال قد يتولاه الرجل ولا يسمى سياسياً!"[17]

وهكذا فغِنى الإسلام بالتوجيهات التي تغطي مجالات العقيدة والعبادة والتربية لا يعني بالضرورة أن تلك هي حدود الإسلام، وأن كل ما سوى ذلك من قضايا السياسة والسلطة مجرد "زائد" ينبغي أن يزاح!

لقد تطلب الدفاع عن ذلك "الزائد" جهاداً متطاولاً، أدى في النهاية إلى تأصيله في مقامه الصحيح فرضاً لا يمارى فيه من فروض الدين. لئن كان كتاب خالد محمد خالد قد حظي بالشهرة الواسعة حتى غدا من مراجع العلمانيين الأثيرة، فإن كتاب الغزالي، الذي لم يحظ بالقدر ذاته من العرض والتلميع، قد أسهم بقدر معلى في تقويض تلك الأطروحة الجامحة، وفي تحويل المناخ الفكري لصالح الإسلام، حتى استنار بنور الفكر الإسلامي عدد كبير من غلاة العلمانيين ومعتدليهم، وحتى غدا بعضهم من أشهر المنظّرين السياسيين الإسلاميين المشهودين في ساحة الفكر اليوم.[18]

الشورى ومناخ التدوال السياسي

وإذا كانت إدارة الدولة جزءاً من وظائف الدين، فإن السؤال الأول الذي يطرح يتعلق بتفويض السلطة وكيفية ممارستها، وهل هي سلطة شورية "ديمقراطية"، أم هي سلطة الحق الإلهي المطلقة. وكما هو الشأن دائماً مع الغزالي فإنه لم يكن ليتوقف عند مجرد المصطلحات والتسميات في أمر الديمقراطية، وإنما كان ينفذ دائماً إلى جوهرها، ويعقد المقارنة بينه وبين التوجيهات الإسلامية.

وإذا كانت التعريفات الأشهر للديمقراطية هي التي تثير الإشكالات لدى القارئ المسلم وتستحضر لديه مفهوم (الحاكمية) الذي صاغه المودودي ونظر له وأشاعه سيد قطب، ذلك المفهوم القاضي بأن هناك تعارضاً ما بين الإسلام

---

[17] من هنا نعلم، ص65.

[18] غني عن القول إن خالد محمد خالد نفسه قد تراجع في منتصف السبعينيات عن مقولات كتابه من هنا نبـدأ، ولكن فكره ظل مشوشاً حتى آخر حياته، لأنه لم يقم بمراجعة أصيلة وجازمة مل أفكاره... وعند مماته حظـي برثاء كبير من العلمانيين الذين ربطوا بين إنجازاته الفكرية وكتابه من هنا نبدأ والضجة التي أثارها عند صدوره.

والديمقراطية فيما يتصل بأمر التشريع... إلا أن التعريفات الأدق للديمقراطية، وهي التعريفات الأحدث، لا تثير ذلك الإشكال، لأ ا لا تنحو ذلك النحو الذي يثيره تعريف أبراهام لنكولن القائل بأن الديمقراطية هي "حكم الشعب بالشعب للشعب"، وإنما تتحدث عن آليات الحكم والتأثير في القرار السياسي. فالديمقراطية ذا الاعتبار هي "النظام السياسي الذي يتيح فرصاً دستورية منتظمة لتغيير الفئة الحاكمة. وكذلك يئ تنظيمات اجتماعية تسمح بأن يكون للسواد الأعظم من السكان تأثير في القرارات الهامة، وذلك عن طريق الاختيار بين المتنافسين على المراكز السياسية".[19]

ومثل هذا المعنى هو الذي يركز عليه الفكر السياسي للشيخ الغزلي ويحاول أن يؤصله إسلامياً[20] ويبلوره بحسبانه قناعة راسخة في الضمير الإسلامي. وفي هذا المنحى فقد أكد الشيخ أن الوضع الطبيعي لاختيار الحكام في ا تمع المسلم هو الوضع الشوري، أي الوضع الذي يختار فيه الناس حكامهم، غير مكتفين بمجرد مبايعتهم أئمة نافذين أو متغلبين، مستنتجاً ذلك من وقائع اختيار الخلفاء الراشدين الذين يمثلون التجربة الأقرب التصاقاً بتوجيهات النصوص، وبروح الدين، وبتجربة الرسول ﷺ في الحكم. أما فيما يتصل بمهمة الشعب في صنع القرار، وهو الأمر الذي نوقش في الإطار التنظيري المعروف: هل الشورى ملزمة أم معلمة؟ فقد أبدى الغزالي انـزعاجه من الطريقة المغرضة التي حشدت ا مرويات الفتن، التي كرست دائماً لأمر طاعة القائد ولزوم أمره، حتى بدا أن ذلك الوضع، "الذي يمكن أن يسمى وضع الطوارئ"، هو الحالة الأصلية التي تصادر على الدوام حريات الشعب وحقه في المناقشة وإبداء الرأي، والضغط في سبيل اتخاذ قرار ما.

---

[19] صاحب هذا التعريف هو المفكر السياسي النمساوي جوزيف شمبيستر وقد ورد في كتاب رجـل السياسـة لسيمور مارتن ليبست (بيروت: دار الآفاق الجديدة)، ص23.

[20] يعتقد جون امسبوزيتو أن ذلك التأصيل هو من قبيل إعادة التفسير والإصلاح الذي جرى لليهودية والمسيحية، التي كانت في وقت ما مؤيدة للاستبداد السياسي، لكي تتوافق مع الفكر الديمقراطي الأوروبي، وفي ذلك يقـول: "وكذلك قد يكون الإسلام ملائماً لتفسيرات متعددة، فقد استخدم لتأييد الديمقراطية والديكتاتورية، الجماهيريـة والملكية" وفي الحقيقة فإن قياس التجربة الغربية، في هذا الشأن، مع التجربة الإسلامية، قياس مـع الفـارق؛ إذ أن النصوص الإسلامية لم يلحقها من الطمس والنحل ما لحق بالنصوص اليهودية والنصرانية. وكـل مـا حـدث في التجربة الإسلامية لا يتعدى إما تجاهل النصوص، أو الاقتصار على بعضها دون بعضها الآخر، أو سـوء التفسـير والاستنتاج. ولذلك فإن محاولة الإصلاح والتأصيل في الفكر الإسلاميين لا تواجه بتلـك العقبـات ذات الطـابع المرجعي والمنهجي الخطير في التجربة الغربية مع الدين. راجع مقاله بعنوان: "الإسلام والتحول للديمقراطية"، ترجمة عبير مصلح ومعاذ جابر، مجلة السياسي، 17 يناير، 1991، ص28 وما بعدها.

وليست تلك هي الصورة الإسلامية المثلى بالطبع، فالتوجيه بضرورة لزوم الشورى جاء حتى قبيل قيام الدولة الإسلامية، عندما نـزلت آية الشورى المكية: وأمرهم شورى بينهم ، (الشورى:38)، تؤكد أن الشورى صفة لازمة للمجتمع المسلم تتخلل حياته كلها، لا حياته السياسية فقط، ثم توالت آيات الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي آيات لم تستثن الحكام من الخضوع لذلك الأمر أو النهي.

والوقائع النبوية المطردة أكدت أن النبي ﷺ كان يستشير صحابته في كل قضايا السياسية، ويقطع فيها على رأي الشورى الراجح (مثل اتخاذ الموقع الاستراتيجي في موقعة بدر، وقرار الخروج للقتال في أحد، وقرار حفر الخندق في غزوة الأحزاب إلخ...). وهكذا كان الرجل الذي تلكؤه السماء، ويؤيده الملأ الأعلى، وتصلي عليه الملائكة، ويبلغ رسالته بعين الله، ويصحبه من آي القرآن قول الله له: إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً (البقرة: 119)، لم يمنعه هذا من أن يلتقط الحكمة من أي إناء، وأن يبحث عن الحق مع أولي الفطنة والفقه من صحابته".[21]

ولكن دعاة تضييق نطاق الشورى لا يعدمون حجة، إذ يتحككون بظاهر الوقائع والنصوص، ليستنبطوا من واقعة رفض الرسول ﷺ رأي صحابته يوم الحديبية، غير الموافق على إمضاء شروط تلك الهدنة، أن الرأي الشوري غير ملزم على الإطلاق، طالما أن الرسول قد اتخذ قراره بقبول شروط تلك الهدنة على علا ا...

وهنا يستعرض الغزالي بالتفصيل ملابسات تلك الواقعة ليؤكد أن خلوء القصواء (ناقة الرسول ﷺ وتقاعسها هو الذي حسم الأمر، فقد "حبسها حابس الفيل"، أي تدخلت الإرادة الإلهية في الموضوع، وأخرجته عن مجال الشورى، واجتهاد الرأي. "ومع أن الرسول كان يقول لأبي بكر وعمر: "لو اتفقتما على أمر ما خالفتكما"، فإنه هنا خالف جمهور الصحابة، لأن ا ال قد قطع فيه الوحي، وأصبح لا رأي فيه لبشر... فإذا جاء حاكم مستبد، وافتأت على رأي الأمة، مستشهداً بما حدث في الحديبية، فيجب أن يصفع بحد السيف، لا بباطن اليد، فإن الاستبداد لا يستشهد له بدليل من دين الله".[22]

---

[21] محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي (القاهرة: دار الكتب الإسلامية)، ص51.

[22] المصدر السابق، ص51.

وإذا كان "خلوء الناقة" والوحي أمراً لا يتعلق إلا بشخص رسول الله ﷺ، وبمثل تلك الواقعة، فإنه يكون الاستثناء الذي لا يجهز على القاعدة؛ ولو كانت الشورى لا تلزم لتراجع رسول الله ﷺ عن عزم صحابته بالخروج لقتال الكفار يوم أحد، وهو الخروج الذي كان أحد أسباب الكارثة. ولقد ارتضى رسول الله ﷺ دفع ذلك الثمن الباهظ ليؤكد إلزامية الشورى لحكام المسلمين، ونـزل القرآن يقر ذلك التصرف النبوي ويشيد به في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران:159). وقد كان تصرف رسول الله ﷺ هو الذي حدد مناط العزم، وهو عزم الجماعة لا الفرد.

وإذا استقر أن الشورى هي الإطار العام للتداول السياسي، فإن من مستلزمات ذلك أن يتمتع المجتمع الإسلامي بحرية التكتل والتنظيم و "مأسسة" العمل السياسي (Think Tanks) فهل يجيز الإسلام أياً من ذلك؟

إن إجابة الشيخ الغزالي تأتي بالإيجاب... فهو القائل: "كثيراً ما رمقت المعارك الداخلية في تاريخنا الإسلامي ثم حدثت نفسي: ماذا لو أن النـزاع بين علي ومعاوية بت فيه استفتاء شعبي، بدلاً من إراقة الدم؟. ولو سلمنا أن الأسرة الأموية تمثل حزباً سياسياً له مبادئ معينة، فماذا عليها لو تركت آل البيت يكونون حزباً آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح أو يحرم منه بانتخاب صحيح؟

قال لي متعالم كبير: إن الانتخابات بدعة!

قلت له: وسفك الدم واستباحة الحرمة هو سنة؟"[23]

فتكوين الأحزاب إذا كان يسمح بالتداول السلمي للسلطة، ويحقن دماء المسلمين، أقرب إلى سنة الإسلام إذن، وإيما طريق ظهر به الحق فثم سنة الإسلام وشرعه كما ورد في عبارة ابن القيم الشهيرة! فتكوين الأحزاب هو أحد وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي وسيلة قد يتعين اتباعها لأنها تيسر أداء ذلك الواجب الكفائي في مواجهة الحكومات التي تتضاعف قوتها في هذا العصر، بالتقدم التقني، وتراكم التسلح، وتوسع المعارف

---

[23] محمد الغزالي: أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشـر، 1990)، ص49.

الاستخبارية، بحيث لم يعد يجدي في مواجهتها أمر و ي يتقدم به أفذاذ لا عضد لهم، ولا عمق تنظيمي يدعم آراءهم ومواقفهم. وهذه الأحزاب والتنظيمات قد تخطئ أو تصيب، مثلما تخطئ الحكومات أو تصيب، وليس بالضرورة أن تكون أحزاب المعارضة في النظام الإسلامي –كما يدعي بعض المنظرين- أحزاب نفاق أو إفساد عام!![24]

إن الغزالي يفتي بأن تكوين أكثر من حزب سياسي في النظام السياسي الإسلامي أمر مباح ومشروع، بل إن له سوابق تاريخية في ظل الحضارة الإسلامية، وهو مبدأ تقترب به الديمقراطية الغربية من الإسلام وليس العكس. ويقرر الغزالي أن "من خصائص الديمقراطية أ ا اعتبرت المعارضة جزءاً من النظام العام للدولة! وأن للمعارضة زعيماً يعترف به ويتفاهم معه دون حرج! ذلك أن مالك السلطة بشر له من يؤيده وله من ينقده، وليس أحدهما أحق بالاحترام من الآخر. والواقع أن هذه النظرة تقترب كثيراً من تعاليم الخلافة الراشدة".[25] ويستشهد لذلك بأن سيدنا علياً بن أبي طالب لم يستبح دماء معارضيه، وإنما أبقاهم على رأيهم، وسالمهم، ما لم يحدثوا الفوضى والاحتراب، وذلك بغية الاستفادة من رأيهم.

وقال لهم: "كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً! فإن فعلتم نفذت إليكم بالحرب!" وبالفعل لم يحار م حتى تمادوا في الغي وأشاعوا الفوضى وسفكوا دماء الأبرياء.

وهكذا فالبقاء على رأي مخالف لرأي الحاكم، أمر لا جناح عليه، ما دام التزم حدود التعبير السلمي، حتى ولو اقتضى الأمر تكتيل الأنصار عليه. وفي الحقيقة إن وجود مثل هذه التكتلات السلمية، وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى توزيع القوة في ا تمع المسلم، ومنع احتكارها في يد الحاكم، أمر يجد مشروعيه، طالما كان هناك تسليم عام بأسس ا تمع الإسلامي...

---

[24] يرى الأستاذ صفي الرحمن المباركفوري أن المبادرة بتكوين أي حزب معارض في الدولة الإسلامية هي مجـرد محاولة لصيقة بالنفاق. يقول: "نعم كان هناك طائفة تستحق أن تسمى بالحزب المعارض، بكل ما أوتي هذا اللفظ من الدلالات والخصائص، تلك هي طائفة ا لمنافقين". راجع كتابه الأحزاب السياسية في الإسلام (القـاهرة: دار الصحوة، 1987)، ص63؛ ولا ندري بماذا يسمى المؤلف تكتلات المعارضة في الواقعة الجمل، وصفين، ومعارضة أبي ذر من معقله بالربذة!.

[25] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (القاهرة: دار الشرق، 1989)، ص136.

هذه الآراء التي أفصح عنها الفكر السياسي للشيخ الغزالي، قد كانت نتاج إيمان عميق، قديم ومتجدد، بقيم الشورى والحرية، دأب صاحبه على الذود عنه طوال سنوات جهاده الفكري. فمن قديم كان الغزالي قد أعلن تأييده وحمايته للدستور المصري لسنة 1923م، الذي كفل حق تكوين الأحزاب والجماعات السياسية وغيرها؛ وكان الغزالي لا ينفك يبدي سخطه وعجبه من تجاهل جمهرة المتدينين لأمر حماية ذلك الدستور، الذي هيأ لهم حق التكتل والتنظيم. وذات مرة اندفع الغزالي لينتقد ذلك الموقف في حوار له مع شيخ لإسلام حسن البنا. ويتحدث الغزالي عن ذلك فيقول: "وأذكر أني –من ثلث قرن- قابلت أستاذي الكبير الإمام حسن البنا، لأشكو إليه موقف المتدينين عامة من قضية الحريات الدستورية، وكان يصحبني الأستاذ خالد محمد خالد، وبوصفي عضواً مؤسساً في جماعة الأخوان فقد تحدثت يومها كثيراً، وكان حوار عاصف قلت فيه: إن المركز العام لا يدافع عن الدستور كما ينبغي، وتمادى بي الغضب فقلت: كأني أسمع جرس الملكية يدق هنا!! وكان الإمام الشهيد أحلم مني وأرزن، فرد ا امي بلطف، وأصدر أمره إلى مجلة الإخوان أن تنشر لي ما أكتب ولو كان ضد سياسة الجماعة."[26]

وشبيه بموقفه في تعضيد الدستور المصري، موقفه من تأييد المودودي دعم ترشيح فاطمة جناح لرئاسة الجمهورية الباكستانية ضد يحيى خان. يقول الغزالي: "قلت: رحم الله المودودي وأجزل مثوبته، ما أظنني اختلفت معه في شيء طائل، ولكن، الملابسات التي أحاطت بالرجل جعلت أحكامه لا تفهم إلا في ضوء هذه الملابسات... لقد أيد ترشيح أخت محمد علي جناح لتحكم الباكستان، وفي ذلك ما فيه. وعندي أنه أفضل أن تحكم الباكستان امرأة من نوع أنديرا غاندي، من أن تحكمها عساكر من طراز يحيى خان الذي ما كان يفيق من سكر".[27] ويعتقد الغزالي أن لو "أن امرأة حكمت العرب من هذا الطراز لكان أجدى على العرب من عسكر وضعوا على صدورهم أعلى الأوسمة، فلما جد الجد تحول عمالقة الاستعراض إلى معز وضأن... إن امرأة على رأس حكم شوري أفضل من مستبد على رأس سلطة مغتصبة".[28] ولكن

[26] أزمة الشورى، ص71.

[27] المصدر السابق، ص44.

[28] المصدر السابق، ص44.

الغزالي يعقب على ذلك باحتراس قائلاً: "وبديهي أن ذلك ليس هو النظام الأمثل"،[29] وإنما هو ترجيح العقلاء لخير الشرين!

لقد كان إيمان الغزالي بأن الاستبداد هو سر انحطاط ا تمعات المسلمة، وانكماش حركة الدعوة الإسلامية، سبب ثورته العنيفة عليه، فإن "طريقة الإسلام في إدارة دفة الحكم بالشورى هي التي جعلت الشعوب تفتح ذراعيها له"،[30] أما عندما ساد التسلط فقد فقدت حركة الدعوة جاذبيتها إلى حد بعيد، كما تعطلت طاقات الأمة، وتبددت مواهبها بفعل ذلك المناخ الموبوء.

العمل وتوزيع الثروة

وقرين بقضية الشورى موضوع العدل الاقتصادي، فلا تكفي آليات الشورى وحدها لاستقرار ا تمع، وإنما لا بد من التوازن أو التعادل الاقتصادي، وقد أثبتت الدراسات المسحية لعلم السياسة الحديث، أن اتباع سياسات اقتصادية دد مكتسبات فئات بينها في ا تمع، تكون نتيجته قيام حركات احتجاج واسعة من هذه الفئات تنذر باختلال نظام العمران برمته. بل إن بعض النظريات تنحو إلى تقرير أن شدة بطش النظام الحاكم تتماشى، حذو القذة بالقذة، مع مستوى توزيع الثورة في ا تمع، فبطش الحاكم يتوالى طردياً مع تركيز الثورة في يده.

واهتداءً باكراً ذه الأفكار كتب الغزالي أقدم وأحد أشهر ثلاثة كتب ظهرت بالعربية عن فلسفة النظام الاقتصادي الإسلامي؛ أما كتاب الغزالي فهو الإسلام والمناهج الاشتراكية، وأما الكتابان الآخران فهما العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب، واشتراكية الإسلام لمصطفى السباعي. وقد جاءت الكتب الثلاثة إبان صعود المد الفكري الاشتراكي في العالم العربي في الأربعينيات وما بعدها، وتميزت ثلاثتها بالأصالة الفكرية والإضافة إلى الفكر الإسلامي، وذلك على الرغم من أن مصطلح "الاشتراكية" ظهر في عنواني كتابين منها، بينما آثر سيد قطب نحت مصطلح "العدالة الاجتماعية" الذي شاع استخدامه بعد ذلك.

وقد يبدو الآن أن تلك الكتب ما كانت سوى كتب رحلة، لأن زمان الاشتراكية قد ولّى بعد ا يار نظريتها ودوال أنظمتها. وهذه نظرة قاصرة

[29] المصدر السابق، ص44.

[30] المصدر السابق، ص36.

بالطبع، لأن الفكر الاشتراكي فكر أصيل عتيق، أسس معالمه أفلاطون، وما تزال الكتابات تتنوع وتتالى فيه، والحاجة إليه تتجدد وتشتد، ولا يضير أن تسقط بعض الصور المتطرفة لذلك الفكر. فطالما ظل هناك استغلال وظلم في هذه الدنيا (والظلم من شيم النفوس، كما تقرر عند الحكماء)، فإن الحاجة إلى العدل والمساواة تظل إحدى الحاجات الملحة للإنسانية.

ولأن دراسة السياسة بلا اقتصاد هي من قبيل دراسة اللغة بلا نحو، فقد تحتم على الغزالي ولوج الميدان الاقتصادي لإعطاء آراء أصيلة حول تقسيم الثروة في ا تمع. وقد كان الرأي الشائع حينها أن الإسلام يقر التفاوت الهائل في توزيع الثروات، ويحابي الأغنياء، ويسكّن ضغائن الفقراء المغبونين. هذا الرأي التبسيطي تناوله الغزالي بالنقض في كتابه الإسلام والمناهج الاشتراكية، ثم قارن ما بين حلول الإسلام للمشكل الاقتصادي، وحلول المدارس الاشتراكية على اختلاف منازعها. ومع أن آراء الغزالي الاقتصادية قد تشعبت لتشمل قضايا المساواة والحرية والكرامة الإنسانية، إلا أننا سنقصر هذا العرض على ما يهم الناس عادة عند التطرق لقضايا الاقتصاد وتنظيم الحياة الاقتصادية، وفي هذا المقام فإن أهم ما يهم هو:

1- **حق العمل:** الذي يكتسب في ظل النظام الإسلامي أهمية خاصة، إذ إنه الحق الذي تترتب عليه حقوق الملكية، وهو كذلك هدف مقصود من غايات الخلق،[31] وتكليف من تكاليف الرسالة. ولحكمة عليا جعل الإنسان يكدح لابتغاء الرزق: وما جعلْناهم جسداً لا يأْكُلُونَ الطعام وما كَانوا خالِدِين (الأنبياء:8). ويقرر الإسلام لكل أفراد ا تمع حق اختيار نوع العمل الذي يوافق مواهبهم، ونوع التدرب الذي من حقهم أن يحصلوا عليه، بيد أن العمل قد قيد بأطر تشريعية تمنع الغش فيه والسرقة والاحتكار والاستغلال وسائر أنواع الكسب الحرام.

2- **حق الأجر:** ويقرر الغزالي أن العمل سلعة مثله مثل أية سلعة أخرى. والسلع جميعاً تترك في ميدان السوق لقانون العرض والطلب، وقلما تتدخل الدولة لتحديدها: "ونحن نرى أن الموظفين والعمال أصحاب خبرة ودراية ومهارة، وأن الخدمات التي يؤدو ا للمجتمع لا تعدو أن تكون هي الأخرى

[31] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، 1983)، ص206.

سلعاً يرتفق الناس ا، ولا يستغنون عنها. فهل تترك هذه المواهب والمنافع المقرونة ا، في مهب الريح ترتفع وتنخفض دون ضابط عدل؟ لا!! إن الجهد البشري الذي يبذله موظف أو عامل في إنجاز أمر من الأمور، أو إتقان سلعة من السلع، له عوض مالي يمكن جعله ثمناً مقبولاً له، فإذا تدخلت ظروف مصطنعة لبخس هذا الثمن أو المغالاة فيه، فإن العدالة التي قرر ا الشريعة فمنعت المتبايعين في الأسواق عن التغرير والخداع والاحتكار، تنتقل هنا لتمنع كذلك الغلو والحيف، أو الجشع والانكسار. والواقع أن الخدمات العلمية والفنية واليدوية يجب أن تلقى مقابلاً مجزئاً، لا يشعر معه الموظف أو العامل أن جهده أُهدِر، وأن مواهبه بيعت بثمن بخس".[32] فالدولة الإسلامية ملزمة – إذن- بحماية العمال ضد تغول الرأسماليين الذين أثبت لهم التاريخ طبيعة الجشع والاستغلال.

3- **حق الملكية:** والملكية تثبت عادة اكتساباً عن العمل، ولكن الإسلام لا يمنع وسائل التملك الأخرى كالميراث والهبة، ولكن يبقى العمل هو وسيلة التملك الأساسية، ومن هنا تنتفي وسائل السخرة والاستغلال ولاحتكار والربا...إلخ. وقد احترم الإسلام حق الملكية ووضع الضوابط الكثيرة لحمايته وتعزيزه، "إ أنه أثقل هذا المبدأ بالواجبات الاجتماعية لنبيلة حتى يكون المال في يد صاحبه مصدر خير له وللناس"،[33] ففيه حق للفقراء المحرومين من الزكاة، وفيه حقوق أخرى للمجتمع غير الزكاة، وهو مجرد استخلاف على المال، المحتاج إليه أحق من التلوي عليه في بعض الأحيان، كما عبر سيدنا عمر بن الخطاب عند استنكاره لسلوك بعض الناس عند حرما م ابن السبيل من الماء، فقال: "إن ابن السبيل أحق بالماء من الثاوي عليه".

والضمان الاجتماعي مبدأ قديم قدم الدولة الإسلامية، قرره رسول الله ﷺ عندما كفل الفقراء والمعدمين، وقرر لهم حق "العطاء" الثابت في بيت المال، بما يكفي حاجا م، يدفع عوزهم، وإذا كانت الدول جميعاً، بما فيها أشدها تطرفاً وغلواً في الرأسمالية، قد رأت أهمية مستوى حيا م، فإن هذا المبدأ قد تقرر من قديم الزمان في الإسلام، وما كان سوى اشتقاق طبيعي من مبدأ العدل

---

[32] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (القـاهرة: دار الـدعوة)، ص185-186.

[33] المصدر السابق، ص192.

الإسلامي العام؛ وما كان الإسلام ليحتاج إلى أن يكتشف، اكتشافاً متأخراً، أن مبدأ فائض القسمة بما يؤدي إليه من إفقار متزايد للفقراء، وتوسيع لهوة التباين الطبقي في ا تمع، يمكن أن يولد شرارات الثورة والاحتراب الاجتماعي؛ فقد كفى الإسلام المسلمين شر بلايا تلك التجربة الوبيلة، وبالتالي عصم مجتمعا م من أن تنشأ فيها صور الإقطاع والظلم الطبقي الفادح كما اعترف بذلك بعض المنظرين الماركسيين.

وبما أن الدولة الإسلامية مكلفة بإرساء قواعد المساواة والعدل، فإنه لا ينتظر منها أن تقف تلقائياً في صف أصحاب الملكيات وأرباب العمل، كما تفعل الدولة الليبرالية، وإنما عليها أن تصغي إلى العمال والمستخدمين وتمكنهم من الضغط على مستخدميهم لاستيفاء حقوقهم وامتيازا م. وهنا لا يمانع الغزالي أن تنشأ نقابات مهنية قوية، في ا تمع المسلم، تكون بمنـزلة جماعاتِ مصالح ومراكز ضغطٍ، تعمل في سبيل انتزاع حقوق منسوبيها.[34] وإن كان الغزالي لم يفصل كثيراً في موضوع النقابات –وهو تفصيل ليس مطلوباً منه بالطبع- فإنه يمكن القول إن فكرة إعطاء النقابات حظاً من القوة التي تستطيع ا التأثير في عملية اتخاذ القرار، إنما هو فرع من عملية الشورى في ا تع المسلم، وهي العملية التي تتوخى توزيع القوة عادلاً في ا تمع، وبداية ذلك إنما تكون بتخفيض قوة الدولة والرأسماليين، وتزويد الطبقات المسحوقة بشيء من أدوات الضغط لتمكينها من الإسهام في صياغة القرار.

هذا وربما صلح لتطوير تلك الفكرة النظر في اقتصاديات الأقطار الصناعية التي تصوغ سياسا ا النقابات (comporatism)، وهي التجربة التي ثبت نجاحها في أقطار كثيرة مثل النمسا والنرويج والسويد والدانمارك. وتنال تلك التجربة اهتماماً متزايداً من علماء السياسة المقارنة بحسبا ا تشكل منظوراً اقتصادياً جديداً يسهم في ضبط إفراط النظام الليبرالي، ويعالج أمر تفريطه هذه الفئات جميعاً، وتتوافق في اتخاذ السياسات العامة للدولة، وخصوصاً فيما يتصل بتحديد الأسعار، وتوجيه الخدمات، وذلك بما يحقق -إلى أقصى مدى ممكن- مصالح جميع الفئات. وعادة ما تكون العلاقة هنا بين النقابات علاقة تنسيق وتوفيق بين

[34] المصدر السابق، ص186.

المصالح، على العكس مما عليه الحال في ا تمعات الليبرالية حيث العلاقة هي التنافس وهيمنة الأغلبية على حظوظ الأقلية.[35]

إن النظر في مثل هذه التجارب أمر لا يعاب، إنما يعاب النقل الحرفي انبهاراً بما عند الآخر وجهلاً بغنى الذات. وبعض تجارب الفكر الإنساني وا تمعات الإنسانية يمكن أن نستصحب منها أجزاء تتلاءم مع معتقداتنا وثقافاتنا ومقررات الشرع. وعلى العموم فما سبق استعراضه هو جوهر ما أسماه الغزالي بالاشتراكية الإسلامية؛ وفي الحقيقة إنه لم يستنبط شيئاً عجباً من نصوص الإسلام ولم يقْسِر تلك النصوص قسراً ليتمخض عنها ما تأباه طبيعتها، وإنما يمكن أن نجد أمثلة ونظائر كثيرة لهذا الفكر منثورة في كتب الفقهاء القدامى كابن حزم وابن القيم والماوردي وسواهم. وقد كان جهد الغزالي هو أن كيف هذا الفقه بصورة جديدة ليتوافق مع أفهام المعاصرين، حيث أصبح العرض الفكري المقارن، وأحياناً استخدام المصطلحات السائدة، ضرورة لا مهرب منها.

وقد عوتب الغزالي كثيراً على ترخصه في استخدام مصطلح الاشتراكية، كما جرت مؤاخذة السباعي على ذلك.[36] وكثيرون من القراء الإسلاميين لهم حساسية شديدة من استخدام المصطلحات الأجنبية، هذا الاستخدام الذي يستدعيه منهج العرض الفكري المقارن؛ وأحياناً يثيرون السؤال الآتي: أليس الإسلام منهجاً إلهياً مستقلاً بذاته يمكن عرضه كما هو باستخدام مصطلحاته الخاصة به، بعيداً عن المقارنة بالأديان والنظم الأخرى؟ أم أنه لا بد من مقارنته بالأنظمة الأخرى، الأمر الذي قد يتطلب استخدام مصطلحات وتصورات غريبة عنه؟

---

[35] لا يتسع المقام هنا للتفصيل أكثر في شأن الـ "comporatism"، ويا حبذا لو يتخصص بعض طلاب الاقتصاد الإسلامي أو العلوم السياسية في دراسة جوانب هذه التجربة الخصبة وإغناء الفكر الإسلامي ا. وذلك مع ملاحظة أن المناخ الاجتماعي الإسلامي بما فيه من خلال التساند والتكافل خليق بإنجاح التجارب التعاونية. ولعله من المناسب أيضاً ملاحظة أن الأقطار الغربية التي نجحت فيه تجارب الـ comporatism كانت هي الأخرى بمنحاة من عقابيل تجارب الإصلاح الديني، وما يسمى بالأخلاق البروتستانتية، وصورالليبرالية والرأسمالية المتطرفة، مما هيأ مناخاً صالحاً لنجاحها... لمزيد من التوسع راجع:

Williamson, Peter J,: Corporatism in Perspective (London: Sage 1989), Zeigler, Harman: Pluralism, Corporatism & Confucianism (Philadelphia: Temple University Press, 1988).

[36] نجا سيد قطب من مثل تلك المؤاخذة لأنه (صك) التعبير الشهير "العدالة الاجتماعية"، وذلك مع أنه أقرب إلى الترجمة الحرفية لمصطلحي communism وsocialism .

وفي نظري إنه لا ضير في استخدام أي من الطريقتين، فالمهم هو عرض الإسلام عرضاً عصرياً حياً، يخاطب حاجات الناس، ويجيب على إشكالا م، فإن أمكن ذلك بالمقارنة أو بسواها فقد تحقق المقصود. والغزالي كان ميالاً للأخذ بأسلوب المقارنة في كل ما كتب، وله شفيع –أي شفيع- في استخدام القرآن منهج المقارنة بين عقائد التوحيد وعقائد الشرك، وعرض المنهج الإسلامي على غيره من المناهج، والموازنة بين مصائر المؤمنين والكفار في الآخرة وغري ذلك. وفي العصر الحديث فقد كانت أقوى عروض الإسلام هي العروض التي استخدمت المنهج المقارن، وتحدثت بلغة العصر، وفي ترخص الغزالي في استخدام مصطلح الاشتراكية مراعاة لكل هاتيك الحيثيات.

أسلمة الإطار القومي

ومصطلح "القومية" قد خضع هو لآخر لتحليل وتقويم رصينين من الشيخ الغزالي. والقومية حالة عقلية تجعل ولاء صاحبها متصلاً بالدرجة الأولى بالشعب والأرض وبالتقاليد المحلية والسلطة الزمنية التي تحمي كل ذلك.[37] و ذا الاعتبار فالمبدأ القومي مبدأ دنيوي لا يتعدى الارتباط بالأرض، وهو بالتالي – كما يقول بريزنسكي- "لا يتسع لتوجيه الفرد نحو اللا اية، ولكن [يستخدم] لتنشيط الجماهير عموماً في سبيل أهداف قريبة مباشرة".[38]

فهل يمكن تكييف هذا المبدأ المحدود الأثر وفقاً للتعاليم الدينية التي تربط ما بين السعي الدنيوي والأخروي معاً، بل تجعل من السعي الدنيوي سبيلاً على السعي الأخروي؟

إن هذا السؤال قد ظل مطروحاً لعقود متطاولة في الفكر العربي والإسلامي الحديث؛ وعلى الرغم من أن الفكرة القومية بمعناها المتقدم فكرة أوربية في الصميم، إلا أ ا استطاعت مع غيرها من الأفكار الغربية أن تتسرب وتتمكن في الواقع الفكري في العالم العربي، حتى أصبحت بمنـزلة الند والمنافس للرابطة الإسلامية، التي جمعت العرب بعضهم مع بعض، ومع مجاميع الشعوب الإسلامية خارج الرقعة العربية. لقد بدأت هذه الفكرة تتسرب إلى الضمير العربي غداة الحرب العالمية الأولى، التي أتت على الخلافة العثمانية التي

---

37 Kohn, Hans: Nationalism: Its Meaning and History (New York: Nostrand Co.,1965),p.9.

38 زبغنيو بيرزنسكي: أمريكا والعصر الإلكتروني، (بيروت: دار الطليعة، 1980)، ص87.

مثلت آخر رابطة فكرية وسياسية (واهية) تجمع بين المسلمين، وكان معظم نقلِة الفكر القومي "الرواد" من أبناء الأقليات النصرانية، وظلت جهودهم نخبوية الطابع، حتى جاءت اتفاقية سايكس-بيكو لتجذّر واقع التجزئة القومية في العالم العربي، ولتعمق الشعور القومي المحلي لأبناء كل إقليم في الدولة القومية الحديثة التي نشأت فيه.

وفي هذه الغضون كانت أصوات المصلحين والمفكرين الإسلاميين تحاول أن تعالج ذلك الخَلَل الجَلَل الذي حل بالجسم الإسلامي، وهكذا تصاعد صوت الأفغاني لتأسيس الجامعتين الإسلامية والعربية معاً، وكان دعم محمد عبده الواضح للاتجاه العروبي الذي يمكن أن يعمل في إطار إسلامي أشمل، ولا يتناقض معه، وهو الاتجاه الذي برز فيما بعد في صيغة الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل، ثم جاء رشيد رضا ومحب الدين الخطيب –وكلاهما من ذوي السابقة في النضال القومي- ليساويا بين النضال من أجل الأمجاد العربية والإسلامية معاً، وليعتمدا المنظور الإسلامي في رؤيتهما السياسية بشكل عام.

ولكن المناخ الفكري كان في صالح التغريبيين الذين تولوا أزمة السلطة، أو استنصروا ا عقب استقلال كثير من أقطار كثير من أقطار العالم العربي. هذا وربما تأكد الانحراف الفكري في وقت سابق مستنداً إلى ثقل شخصية عبد الرحمن الكواكبي، الذي دعا إلى إقامة دولة عربية خالصة، فمهد الطريق بذلك لكوكبة التغريبيين الخلص الذين استبعدوا أي جامع بين القومية والدين من أمثال نجيب العازوري وساطع الحصري وميشيل عفلق وقسطنطين زريق وشبلي العيسمي وجوج حبش وغيرهم من منظري القومية الذين تألقوا في عصر الشيخ الغزالي. وهكذا فقد كان من قدر الغزالي أن يواجه ذلك التيار المستفحل، الذي استذرى –في مصر وما جاورها- بالمظلة الناصرية التي انتحلت في الستينيات فكرة القومية العربية، وتقمصتها بشكل حاد، وكادت تجعل منها عقيدة الدولة الرسمية. وجاء عديد من شيوخ الأزهر ومن قادة الفكر الماركسي، على بعدِ ما بين منطلقي الفريقين،[39] لتقديم حيثيات القبول والدعم

---

[39] معظم كتابات الأزهريين التي حاولت التوفيق بين القومية والإسلامية حاولت تطويع الإسلام وتتبيعـه للفكـر القومي، حتى أن إحدى افتتاحيات مجلة الأزهر –وقد كان كتبها أحمد حسن الزيات- جعلت من عبد الناصر بطلاً أعظم من النبي ﷺ، وأما الماركسيون فقد حاولوا أن يسيروا في ركاب التيار، وكـان معـذرم إلى أنفسـهم أن الارتباط القومي يمكن، في بعض الحالات، ألا يتناقض مع التركيب الطبقي ولا يخل به، ذلك التركيب الذي يمثـل وحدة التحليل المعتمدة في الفكر الماركسي الكلاسيكي.

لما سمي بالموقف القومي والالتزام القومي، وغير ذلك من مطالب السلطة الناصرية في ذلك الحين.

أما الشيخ الغزالي فقد أنشأ فصولاً عديدة أوضح فيها رأيه مفصلاً عبر مناقشته لتلك الطروحات، كما أفرد كتاباً كاملاً للموضوع بعنوان حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، كان في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب كلية الشريعة بالأزهر، إبان الحقبة الناصرية، حيث كُلّف بتدريس موضوع القومية العربية. وقد كان الشيخ محمد المدني، عميد الكلية حينذاك، من الحصافة بمكان، إذ لم يشأ أن يجادل في تسمية المقرر، طالما ائتمن على تدريسه الشيخ الغزالي الذي كان مرجواً عنده أن يعطي للمقرر المحتوى الإسلامي. وقد تمكن الغزالي فعلاً من أن يمرر أفكاره الإسلامية النقدية في موضوع القومية، وأن يعطي تصوره الخاص للموضوع.

وفي هذا المنحى فقد ابتدر الغزالي مناقشته بتحليل أشد التصورات القومية تطرفاً واستبعاداً للإسلام، وهي التصورات العرقية واللغوية لساطع الحصري الذي استجلب نظرية القومية الألمانية القائمة على أساس العنصر واللسان، وميشيل عفلق الذي استبدل برسالة الإسلام، رسالةَ العرب الخالدة التي سئل عنها، فقال إ ا "تقوم على فهمهم الصحيح لأنفسهم وإدراكهم الجريء لقضاياهم وتحررهم بقواهم الخاصة من الاحتلال الأجنبي"؛ وعبد الرحمن البزاز الذي تصدى لخطر مزج القومية بالدين، والماركسي لطفي الخولي الذي كان عنده ما يضيفه إلى موضوع القومية وعلاقتها بالدين قائلاً: "هناك اتجاه خاطئ وشائع، للأسف، يسجن الثقافة العربية، إلا أنه ليس إلا عنصراً واحداً وسمة مميزة ونقطة رئيسية من نقط انطلاق الثقافة العربية إلى الأعماق العربية من ناحية، وإلى الآفاق الإنسانية من ناحية أخرى"؛[40] هذا هو أقصى ما سمح به لطفي الخولي للإسلام لأن يتحرك ويؤدي رسالته، التي ذكر الله تعالى أ ا للعالمين كافة من الإنس والجن!!

وفي مواجهة هذا الفهم الذي يحجم الإسلام ويضعه مجرد عنصر من عناصر العروبة، جاء الغزالي ليقول بالعكس، ولينقض الأساس العرقي والعنصري للعروبة، معتمداً أساسها اللغوي والثقافي، بل وليؤكد أن العروبة تظل قومية

[40] من مقال له في جريدة الأهرام اقتطفه الشيخ الغزالي أثناء المناقشة في كتابه حقيقة القومية العربيـة وأسـطورة البعث العربي (القاهرة: دار الروضة للنشر)، ص8.

مفتوحة لأن "الاستعراب ركن أصيل في دعم كيا ا وإمدادها بأسباب البقاء والنماء، ونحن نعلم أن صاحب الرسالة العظمى ﷺ من العرب المستعربة، وليس من العرب العاربة، من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قومية خاصة؛ إن الإسلام جعل منها دائرة عالمية فسيحة الأرجاء، وسعت شتى الدماء والألوان، وانضوى تحت لوائها سيل موار من الممنين الذين تركوا بني جلد م، وآثروا هذه الجنسية الجديدة، وأسدوا إليها من الخدمات العلمية والأدبية والسياسية والعسكرية، ما يعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد وثمود، أو عدنان وقحطان."[41]

و ذا المفهوم فإن العروبة تظل رديف الإسلام، تنهض بنهضته وتذوي بذبول حضارته. وقد كانت الأندلس عربية لأ ا كانت مسلمة، فلما طرد الإسلام منها لحقته العروبة!

وإذا كان الغزالي يمتدح العرب وصفا م، ويقدر عالياً ويثمن تاريخهم في حمل الإسلام ونصر رسالته، إلا أنه لا يفوته أن يقرر بحسم قاطع"أن في العالم الآن عشرات القوميات، وهذه القوميات لا تعدو أن تكون أغصاناً في شجرة الإنسانية الباسقة، يغذوها جذر واحد، وتنتشر فيها حياة مشتركة، وما يمتاز غصن على آخر إلا بما يحمله من ورق وثمر، أو ما يقدمه من ظل وجنى... والعرب إذا نسبوا إلى قوميتهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سواهم من الأمم، ولكن الميزة التي ترفع قدرهم هي ما انفردوا بتقديمه للحياة والأحياء من الإسلام وخيراته... هذه الرسالة التي حملها العرب أفاءت عليهم من الأمجاد ما لا يحصيه عدد".[42]

فالعروبة في ذا ا ليست ديناً، ولا رسالةَ لها سوى رسالة الإسلام. وفي دحض دعاوي البزاز وعفلق وقبيلهما من القائلين بأن للعروبة حضار ا الخاصة، وأن الإسلام ما كان سوى طور من أطوار الحضارة العربية الراقية أصلاً قبل ظهور الإسلام، يتساءل الغزالي ساخراً: "كيف تكون الجزيرة العربية الأم صِفراً من الحضارات القديمة ويكون النازحون عنها في العصور الخالية ابتغاء الرزق رسل حضارة؟"[43]

---

[41] حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص112-113.

[42] المصدر السابق، ص58-59.

[43] المصدر السابق، ص60.

إن هؤلاء ما خرجوا إلا ابتغاء الرزق فقط، ولم يتركوا أثراً حضارياً قط، وما كان لفاقد الشيء أن يعطيه، وإنما أعطى الأثر الحضاري الحق أولئك الذين خرجوا من جزيرة العرب يبتغون ما عند الله، وينشرون نور الإسلام ودعوته التي أرست مبادئ المساواة، وأهدرت فوارق الجنس، وميزت بين الخلق بمدى قر م أو بعدهم عن الله.

إن تصور الغزالي للعروبة قد أعطاها مقومين اثنين لا غير، هما: وحدة العقيدة، ثم وحدة اللغة؛ ولا ضير بعد ذلك أن تتعدد الأعراق، أو تتباين الأقاليم. فالعروبة ذا الاعتبار مفهوم ثقافي مرتبط من حيث الأصل بالإسلام، ومتوافق معه، ولا جناح على المسلم أن يكون قومياً ذا المفهوم.

هذا التصور المعتدل الذي قدمه الشيخ الغزالي، قد تعذر توفيقه مع الرياح الهندية التي حملت فكر المودودي إلى سيد قطب الذي أخذ يؤصل، في المرحلة نفسها تقريباً، للقطيعة التامة بين الفكر القومي والفكر الإسلامي؛ وانظر إليه وهو في سجنه العتيد يسطر في الظلال عباراته القوية القائلة: "لقد اجتمع في ا تمع الإسلامي المتفوق، العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء ا تمع الإسلامي والحضارة الإسلامية... ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما "عربية"، وإنما كانت دائماً "إسلامية"، ولم تكن يوماً ما "قومية" وإنما كانت دائماً عقيدية".[44] وهكذا فقد استحال في ظل هذا الفكر المُفاصِل أن يتم التوفيق بأي شكل من الأشكال ما بين الإسلام والفكر القومي.

وإذا شئنا أن نعقد المقارنة من طرف آخر بين آراء الغزالي وآراء منظر آخر في الموضوع نفسه، فإن آراء محمد جلال كشك تصلح للمقارنة بالتأكيد. لقد كان جلال كشك في الفترة ذا ا [1964بالتحديد] قد بدأ كتاباته الإسلامية بعد أن انخلع عن الفكر الماركسي. ولم تكن رؤيته الإسلامية قد صفت بعد، إذ كانت لا تزال مختلطة بكثير من الغبش الفكري من سابق تجربته، وفي خـلال

[44] سيد قطب: في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشرق، 1978)، ص1562.

انتقالاته الفكرة الحادة فإنه يسجل لنا هذين الموقفين المتبـاينين مـن مفهـوم القومية.

الموقف الأول يمكن وصفه بالاعتدال التام، بل ربما أمكن وصفه بأنه كان أكثر اعتدالاً ودقة وعمقاً من موقف الشيخ الغزالي من القومية، وهو الموقف الذي رفض به جلال كشك كل الاتجاهات التي رمت إلى استبعاد الدين الإسلامي جوهراً للفكرة القومية العربية، داعياً إلى القول بأن الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية يشكلان من الناحية الواقعية الثقافة التي عاش ويعيش عليها غير المسلمين من العرب [أنا نصراني ديناً مسلم وطناً، بتعبير مكرم عبيد]. وهذا الموقف هو الذي يستجلي أدوار التاريخ، ليؤكد أن الوحدة العربية لم تتحقق إلا في إطار الحضارة الإسلامية، "فلم يحدث أن اتحدت مصر والعراق والجزائر إلا في ظل الخلافة الإسلامية: أموية كانت أو عباسية أو عثمانية... ولكنها لم تتحد قط في ظل دولة عربية، ولا يبدو حالياً بصيص من أمل في قيام دولة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج".[45]

هذا الموقف القومي المعتدل، سرعان ما تخلّى عنه صاحبه، وتجاوزه إلى مفهوم الأخوة الإسلامية الجامعة التي تعلو على المفاهيم القومية المحدودة، التي هي اضطرار يؤدي إلى تقسيم الناس بسبب العنصر واللون، وذلك "يعني عزل قطاع من الإنسانية خلف سور ليس من صنع الإنسان، ولا يملك الإنسان أن يهدمه أو يقيمه بإرادته الحرة إذ لا سبيل إلى تغيير لون الجلد وتقسيم الناس بحواجز القوميات يعني فرض قدرية عليهم لا يمكن تخطيها بسبب من حادثة مولدهم عند خط الطول أو العرض المعين أو بسبب لغة أمها م".[46]

هذا الموقف الأخير الذي تخلى عن مفهوم القومية لصالح الإسلام –كما تصور صاحبه- لم يكن موقفا موفقاً بالتأكيد، ولكن ربما كان الدافع إليه هو تزايد إحساس صاحبه، في أواخر سنوات حياته، بخطورة قضايا مفهوم "الإسلام الحضاري"، وضرورة حماية المقومات الثقافية والمادية على امتداد الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، وهو الإحساس الذي دفع بجلال كشك إلى ابتدار

[45] محمد جلال كشك: القومية والغزو الفكري، (الكويت:مكتبة الأمل، 1967)، ص72.

[46] محمد جلال كشك: خواطر مسلم عن الجهاد والأناجيل والأقليات، (القاهرة: دار ثابت، 1985)، ص25.

التنظير لقضايا المواجهة الإسلامية المسيحية التي سبق ا مقالة صمويل هنتنجتون في صراع الحضارات بأكثر من عقد من الزمان.[47]

لم يكن موقف محمد جلال كشك الرافض للقومية موقفاً موفّقاً، لأن التوفيق بين المبدأين الإسلامي والقومي ظل دائماً في حيز الإمكان، ومن العجب فإنه كان أحد الموفّقين الموفّقين بين المبدأين الإسلامي والقومي ظل دائماً فيما مضى. أما موقف الشيخ الغزالي فيبقى هو الموقف الأمثل، لأنه هو الذي أوفى العروبة حقها، ثم استوعبها في إطار الدين. وكما لاحظ ليونارد بايندر بعد أن أجرى مقارنة بين تصور كل من الغزالي وعفلق للقومية، فإن اتجاه الغزالي "لأسلمة" القومية كان ذا أثر بعيد في الفكر السياسي العربي اللاحق، إذ إنه أدى إلى جر سدنة العلمانية إلى محيط الإسلام، وليس العكس. وبعبارة بايندر "فإن عملية أسلمة القومية قد أخذت تمضي قدماً، ومن الممكن أن ننظر يوماً فنجد أن الدولة القومية قد توافقت تماماً مع مبادئ الإسلام؛[48] وقد كان ذلك أخشى ما يخشاه بايندر من عواقب مسعى أمثال الشيخ الغزالي في تشذيب المبادئ القومية و ذيبها لتتوافق مع الإسلام.

الإسلام والعلاقات الدولية

ومن دون استبعادٍ لأثر عوامل القوة المختلفة، فإن منظور الشيخ الغزالي للعلاقات الدولية يركز على أثر العامل الديني في دفع العلاقات الدولية وتحريكها. إنه لا يزعم أن العامل الديني هو العامل الوحيد أو الأرجح، وإنما يركز دراساته عليه بحكم تضلعه في موضوعه وتعلقه مه.[49] وهو في الوقت ذاته يدعو إلى استبصار سنن الاجتماع والتاريخ التي تحكم علاقات الدول

---

[47] نرجو أن تتاح لنا فرصة تقديم المقارنة بين أطروحتي كشك وهنتنجتون عن صراع الحضارات في دراسة مستقلة. وقد كنت أزمع أن يكون ذلك هو موضوع أطروحتي لنيل ما يسمى بالدكتوراه، ولكن حالت صعوبات عمليـة دون ذلك.

[48] Binder, Leonard: The Ideological Revolutiomn in the Middle East (New York: John Wiley & Sons, 1964), p.138-139.

[49] يمكن أن يضاف إلى ذلك أيضاً شعور الشيخ بأن دور العامل الديني في العلاقات الدولية، قد لحقه تجاهل مقصود من قبل معظم المحللين السياسيين في العالم العربي، وذلك في عصر كانت بعض الدول العربية تناصر فيه بعض الدول غير الإسلامية، ضد دول إسلامية، كما بدا ذلك في الصراعين الهندي/الباكستاني، واليوناني/التركي. وتجاهل العامل الديني كان المقصود منه تسويغ مثل تلك المواقف، وأيضاً منع نمو العاطفة الإسلامية الجامعة... والغريب أن هـذا التجاهل أصبح تقليداً في مجال التحليل السياسي في العالم العربي تكاد تلمس آثاره في كـل الصـحف وا ـلات السياسية، ولم يهتز ذلك التقليد إلا أخيراً مع قوارع مأساة البلقان حيث بدا العامل الديني بشكل أوضح مـن أن يخفى في مواقف الدول الأوروبية من مذابح مسلمي البوسنة.

بعضها ببعض، لأنه من دون مثل تلك الدراسات الكثيفة المتشابكة، يصعب كثيراً تحديد أثر كل عامل على حدة في دفع علاقات الأمم بعضها ببعض.

وعلى خلاف ما يكاد ينعقد عليه الإجماع بين خبراء العلاقات الدولية من أن الدين عامل تفجير في هذا ا ال، فإن الشيخ الغزالي يراجع الأصول الإسلامية والممارسات التاريخية للمسلمين، ليعطي صورة مغايرة لتصور الإسلام للعلاقات الدولية، حيث تصبح حالة السلم هي الأصل، وأما الحرب فهي وسيلة حماية لذلك السلم حين تعرضه للخطر.

وفي هذا الصدد فقد أحصى الشيخ الغزالي نحواً من مائة وعشرين آية من القرآن الكريم، تؤكد أن الإسلام يتحرك بدعوته في لحظات السلم لا الحرب أو الغزو... وعما يسمى بآية السيف التي يحتج ا بعض الدعاة، يذكر الغزالي أنه بحث في القرآن كله عن تلك الآية فلم يجدها.[50] أما ما ورد في سورة براءة من حديث عن القتال في ثلاثة مواضع من السورة، فهو ليس قتالَ الهجوم على من تلاعبوا بالمعاهدات ونقضوا العهود، وغدروا بالمسلمين، وأضروا م. وهكذا فليس في هذه الآيات الثلاث ما يمكن أن يسمى بآية السيف –بالمعنى الذي تشيعه تلك التسمية-، بل إن آيات براءة تأتي لتأمر المسلمين بالاستقامة لمن لا يقاتلهم: فَما استقَاموا لَكُم فَاستقِيموا لَهم إِن الله يحِب الْمتقِين (التوبة:7). فمن تقوى الله ألا تبدأ الناس بعدوان، طالما لم يبادؤوك به.

وعن تقسيم العلماء لدور الحرب والعهد والإسلام، فإن الغزالي يورد ملاحظة صائبة، أملاها تأمله العميق في تاريخ علاقات المسلمين الدولية، مفادها أنه يمكن في كل الأحوال وجود دار رابعة تسمى دار الحياد. ويبدي الشيخ عجبه لعدم اهتمام فقه العلاقات الدولية الإسلامي بالتنظير لأحكام تلك الدار. وفي شرح مفهومه لدار الحياد يقول الغزالي: "إن الذي يقول لي: أنا كافر بدينك، أقول له: لي عندك طلبان: ألاّ تمنعني من أن أنشر الإسلام، فيقول لي: ليس لي شأن بك، فأقول له: وألا تعترض غيرك إذا دخل فيه. فيقول لي: ليس لي شأن أيضاً، وهنا يصبح لا شأن لي به هو الآخر، ولكن أن أقول له: هات الجزية، فهذا يعني أنني خطّاف، فعلى أي أساس آخذ منه الجزية ما دام هو

---

[50] ندوة العلاقات الدولية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب القاهرة 29-1989/11/30م، ص7. ويمكن مراجعة تفاصيل ذلك في كتاب فقه السيرة للشيخ الغزالي، وفيه تحليل لبعض الأحاديث التي يـوهم ظاهرهـا أن الإسلام يقر الهجوم دون إنذار.

محايد؟!"[51] وهكذا يمكن وجود تلك الدار الرابعة، ما دام وجد هذا الصنف من المتعاملين مع الإسلام. ويؤصل الغزالي لفكرته بالآية القرآنية الشريفة: فَإِن اعتزلُوكُم فَلَم يقَاتِلُوكُم وأَلْقَوا إِلَيكُم السلَم فَما جعلَ الله لَكُم علَيهم سبِيلاً (النساء:90)، ففيها دلالة صريحة على عدم جواز التعرض لمن لم يتعرض للإسلام أو المسلمين بسوء.

وعندما راجت فكرة "عدم الانحياز" في أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات، ناصرها الغزالي بقوة، وأضاف إليها من أفكاره قوله إن المسلمين أحوج إلى البعد عن التحالفات الاستغلالية الظالمة من بعض الدول التي كانت تتزعم حركة عدم الانحياز (مثل يوغسلافيا السابقة، والهند)، لأن تلك الدول لا تخشى على خصائصها الثقافية كثيراً من تأثيرات الغزو الفكري الأجنبي كما يخشى المسلمون، وكذلك لأن تلك الدول أقوى عسكرياً في مواجهة المعسكرين الروسي والأمريكي من المسلمين.[52]

وفي محاولة لإعطاء فكرة الحياد بعدها الإسلامي، فإنه لم يرتض أن يكون الحياد سلبياً فقط، ودعا بالمقابل إلى الارتكاز إلى الخصائص الروحية، وتنمية الموارد المادية الذاتية للأمة بما يغني عن الحاجة إلى الآخرين، ويعصم عن الوقوع تحت ضغوطهم واختراقهم لعمليات التنمية الذاتية لبلاد العالم الإسلامي... وهكذا فمن "العبث تصور حيادٍ إيجابي يذهل عن الإسلام أو يستهين بربط الأمة به، ودفع شؤو ا إليه".[53] فالحياد السلبي جمود أو فراغ لا تسمح به طبيعة الحياة الدولية التي هي في غالب أحوالها أما مدافعة أو عراك، أو تأهب للعراك.

وأما في مجال القانون الدولي فقد كانت مهمة الشيخ هي أن يسهم في تقديم الصياغة الحديثة لفقه الإسلام في ذلك الشأن. وفي كتابه حقوق الإنسان

---

[51] المصدر السابق، ص86.

[52] راجع نص تحليله لحركة عد الانحياز ومدى ملاءمتها لأوضاع العالم الإسلامي في فصل "الحياة... كما نفهمه" من كتابه الاستعمار أحقاد وأطماع (القاهرة دار الكتب الإسلامية، 1403هـ)، وراجع كذلك أطروحــة كتابــه الإسلام في وجه الزحف الأحمر الذي طغى على مصر في ذات أيام الدعوة إلى عدم الانحياز.

[53] قد يلاحظ طلاب العلاقات الدولية أن هذه الفكرة قريبة من طرح مدرسة رفض التبعيــة (Dependency Theory) التي نظّر لها بعض كتاب أمريكا اللاتينية، وبعض أقطاب مدرسة اليسار الجديد. ولكن ما يعاب على نظرية رفض التبعية أ ا ركزت اهتمامها على العامل الاقتصادي، ومحاولة تحليل أثر الشروط الدولية على مسارات التنمية الداخلية في البلدان المتخلفة. أما تحليل الشيخ الغزالي فقد أولى العناية الكبرى للجانب الثقافي والعقائدي في الموضوع، وهو الجانب الذي أهملته مدرس رفض التبعية. وفي هذا السياق يمكن عقد مقارنة إيجابية بــين أفكــار الشيخ الغزالي وأفكار الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي حول الفكرة الأفروآسيوية مؤتمر باندونج.

بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صياغة أولية جيدة لتعاليم الإسلام في ضمان حقوق الإنسان، مضاهاة بأحد مصادر القانون الدولي الحديث، وهو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ديسمبر 1948م. ويمكن ملاحظة أن كتاب الغزالي آنف الذكر لم يقدم الصياغة النهائية، وإنما قدم المادة الفقهية الزاخرة، التي يمكن أنت تعتبر المرجع الأوفى، والحيثيات التي يمكن أن تستند إليها الصياغة الإسلامية المطلوبة[54] في هذا ا ال.

ومضاهاة الوثائق السياسية الدولية بمعطيات الشريعة وإنجازات الفقه الإسلامي، ليست أمراً بدعاً، وإنما خطوة إيجابية حافزة سواءً على صعيد تطوير صياغة الأدبيات الإسلامية، أو على صعيد اجتذاب مزيد من المناصرين لها، من الذين لا يمكن مخاطبتهم إلا عن طريق تلك الصياغات المتطورة. وكثير من دارسي العلاقات الدولية وباحثيها لا يتيسر لهم الاطلاع على مطولات الشيباني والسرخسي وأبي يوسف وغيرهم من كتاب السير والخراج، ولذلك تأتي أعمال أمثال الشيخ الغزالي والعلامة محمد حميد الله خطوة لازمة تيسر تلك المراجع العسيرة على طلاب اليوم، و يئ لهم أمر الولوج إلى مناجمها واجتناء كنوزها.

والاطلاع على كتابي "حقوق الإنسان والتعصب" و"التسامح بين المسيحية والإسلام" للغزالي، ربما كان كافياً لإقناع طلاب العلاقات الدولية بتقدم الإسلام على الفكر البشري بقرون في شأن تقرير حقوق الإنسان الأساسية وضما ا. ومعظم ما يعزى تحقيقه إلى الثورات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية يجده المرء مسطراً في الشريعة الإسلامية وتراث الفقه، مثل حقوق الحرية، والسلامة من التمييز العنصري، والمساواة أمام القانون، والضمانات القضائية، وحق المشاركة السياسية، وحق تكوين الأسرة وحق التعليم وغير ذلك من الحقوق. ولقد يدهش دارسو العلاقات الدولية، إذ يكتشفون أن تلك الحقوق قد نالها المسلمون دونما حاجة إلى ثورات ونضالات عارمة تريق

[54] أجاز المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في لندن في أبريل 1980 صياغة "البيان العالمي عن حقوق الإنسـان في الإسلام" وكانت مبادرة رائدة، وفرت وثيقة ممتازة، تعد إضافة نوعية لأدبيات الفكر الإسلامي الحديث. ولعل تلك الوثيقة قد استقت كثيراً من ماد ا من كتاب الشيخ الغزالي، ومن بحث الإمام المودودي "نظرة عـابرة علـى حقوق الإنسان الأساسية"، المنشور بدورية المسلم المعاصر، شوال 1394هـ/ نوفمبر 1974م.

الدماء، و نـز الأوضاع الاجتماعية والسياسية هزاً عنيفاً، وإنما نالوها ضربة لازب بنـزول الحكيم. ولقد يدهشون أكثر إذ يكتشفون أن حقوق الإنسان في الإسلام ليست هي حقوق الإنسان المسلم وحده.[55] وإنما هي حقوق الإنسان، أي إنسان؛ ولذلك فقد تطوعت الحضارة الإسلامية بحماية أتباع الديانات الأخرى كأقباط مصر، ومارونيي لبنان، ويهود العالم، من الانقراض. وفي ذلك يقول الشيخ الغزالي: "وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن، فإن مرد ذلك إلى قيام الدولة الإسلامية في العصور الوسطى، ولو بقي النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاءاً مبراماً".[56] وهكذا فوجود الدولة الإسلامية يفهمها الأريحي لحرية التدين، هو الذي حمى اليهود بالأندلس وغيرها من الانقراض، كما حمى الأقباط والمارونيين من أن يذوبوا في خضم الطغيان الروماني والبيزنطي.

فوجود العامل الإسلامي في العلاقات الدولية، هو وجود موجه لحماية الإنسان بصرف النظر عن أصله أو انتمائه، وضمانة لبسط العدل المطلق عن أي اعتبار من اعتبارات القوة، أو الانتماءات الدينية أو العنصرية، ولتحقيق المسلم الذي هو حالة الأصل في تصور الإسلام للعلاقات الدولية، ولذلك فلا غرو أن كان تركيز الغزالي واضحاً على ضرورة جلب هذا العامل الإيجابي الأثر إلى حقل العلاقات الدولية.

الغزالي والثقافة السياسية للأمة

إن مصطلح "الثقافة السياسية" أحد المصطلحات حديثة الاستخدام في علم السياسة، وهو مصطلح تفسيري يوضح جانباً من أسباب نشأة أي نظام سياسي ونجاحه أو فشله، فهو يوضح مثلاً: لماذا نشأ النظام البرلماني في بريطانيا؟ ولماذا نشأ النظام الرئاسي الأمريكي مختلفاً عنه؟ ويحاول أن يستنتج أسباب ذلك من الطبيعة النفسية للشعبين، ومن الثقافة السياسية السائدة في ذينك ا تمعين، باعتبار أن هذين النظامين ما كان لهما أن يتوطدا ويستقرا ويجتازا الاختبارات

---

[55] لا يخفى أن حقوق الإنسان المستنبطة من الماجنا كارتا (Magna Carta) والثورة الفرنسية والثورة الأمريكية كانت هي حقوق الإنسان الغربي الأبيض فقط، ولذلك فلا عجب أن انتهكت حقـوق غيرهـم عيانـا بيانـاً بالتحركات الأمريكية البريطانية والفرنسية والأمريكية في الشرق، ولم يثر سؤال حينها جدي في فقـه العلاقـات الدولية عن تناقض تلك الممارسات مع إعلانات ومواثيق حقوق الإنسان.

[56] محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (القاهرة: دار الكتب الحديثة) ص210.

والهزات والشدائد ما لم تكن لهما أسس قائمة من ثقافة الناس السياسية،[57] وكما جاء في الأثر الشريف: "كما تكونوا يول عليكم".

والنظم السياسية على اختلافها لا تؤدي وظائفها مقتصرة على استخدام آليات صنع القرار السياسي من برلمانات، وجماعات ضغط، وأجهزة إدارية مقتدرة، وإنما أيضاً بالاستظلال بأجواء واعتقادات ثقافية مواتية؛ فكلما يسرت تلك الثقافة عملية الحوار والتساوم، أدى ذلك إلى صنع القرار الذي يرضي الشريحة العظمى من الشعب ويحقق مصالحها، الأمر الذي يعد دلالة على كفاءة النظام ونجاحه في التوفيق بين مصالح مواطنيه.

ولا نريد أن نمضي في تعريف مصطلح الثقافة السياسية أو تبيان أهميته لأكثر من ذلك إنما يعنينا هنا لفت الانتباه إلى الشيء الأساسي في الموضوع، وهو أن النظام السياسي (Political structure) لا بد أن يكون متوائماً بشكل دائم أو قائماً على أساس متين من الثقافة السياسية الفكرية والثقافية من موروثات ثقافة عصور الانحطاط التي قامت على لتعايش مع الاستبداد والتجافي عن التعاطي مع الشأن السياسي. وهذا داء عضال كانت له أسبابه القديمة من إدبار الحكام عن الشريعة، وكراهيتهم أو عدم رضاهم عن الحديث عن السياسة في دوائر العلم الشرعي، أو في دائرة العلماء المحظيين، ثم أصبح ذلك بمضي الزمان علة متأصلة في الثقافة الدينية، وأصبحت الكثرة الغالبة من العاملين في ميدان الفقه بمنأى عن الشأن السياسي، ومنهم من تجده يعلن ذلك بالصراحة القاطعة، ومنهم من يستنكر أصلاً أن تكون هناك علاقة من أي نوع ما بين السياسة والفقه أو الدين بشكل عام. بل إن منهم من ينعى على من يفهم الإسلام فهماً شاملاً، بأن فهمه للإسلام فهم سياسي، هذا إذا لم يتهم السرائر بسوء الغرض ونية استغلال الدين لمآرب أخرى. وفي سياق تجاهل بعض العلماء لشأن السياسة يحكي لنا الشيخ الغزالي الطرفة ذات الدلالة التالية:

"أرسل أحد الظرفاء سؤالاً إلى لجنة الفتوى ظاناً أنه يستطيع أن يستدرجها بذلك للحديث في شأن السياسة من المنظور الديني... وقد غلّف سؤاله بغلاف

---

[57] تعرف الثقافة السياسية بأ ا ذلك النسق من الإدراكات والمشاعر والمواقف والتوقعات، الذي يحمله المواطنون تجاه حكوما م، وكذلك طريقتهم في تقويم أعمال الحكومة وتقويم أعمال الحكومة وتقويم مشاركتهم في صنع القرار السياسي. لمزيد من التفصيل حول هذا المفهوم، راجع:

Almond, Gabriel A and Verba, Sidney: The Civic Culture Revisited (California: Sage Newbury, 1989), p.26-32.

اجتماعي يتعلق بقضايا الزواج والطلاق التي تركها الزمنيون لرجال لفقه، وكان السؤال كالآتي:

رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التي جرت في البلاد كانت مزورة، فهل تطلق امرأته أم لا؟.

وعلق الشيخ الغزالي قائلاً: "إن لجنة الفتوى كانت من اليقظة والانتباه بحيث لم تقع في ذلك الشرك، ولن تقع فيه ولو بقيت تلك المرأة معلقة أبد الدهر!"[58]

فهؤلاء هم العلماء الذين كان ينبغي أن يكونوا طلائع أهل الحل والعقد، الذين يزودون صناع القرار بالنصح السديد، ويقفون معترضين على كل تجاوزات الحكام للشريعة ومصالح جماهير الأمة الإسلامية؛ لقد أصبحوا من السلبية بمكان، وأسهموا في شكل الثقافة السياسية التي مكنت الحكام من الانفراد بشؤون الحكم. وعلى هذا يعلق الغزالي قائلاً:

"وثم أمر جدير بالإبراز والإثارة! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة، وهي إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها".[59] ولا سبيل لتفعيل تلك الثقافة بإحكام ربط الدين مجدداً بقضايا السياسة، وإشغال علماء الإسلام من ثم بالشأن السياسي، باعتباره جزءاً أصيلاً من مهام الشريعة والفقه.

وعلى نطاق جبهة العمل السياسي الإسلامي ثمة معوق آخر يسهم في تشويه الثقافة السياسية للأمة، وكان يثير حفيظة الشيخ وغضبه، فيشن عليه النكير في مختلف كتاباته: إنه داء النظرة التجزيئية وعدم قدرة بعض الناس على ترتيب الأولويات والمهام؛ إن الفرعيات المستصغرة من القضايا الأخلاقية تصبح هنا أهم من القضايا السياسية المصيرية الكبرى كافة، والخلاف حول هذه القضايا الهامشية قمين بأن يضرم من نيران الخلاف ما يعشِي الأبصار عن رؤية أعظم الأخطار الداهمة من قبل الأفق السياسي، وهاك مثالاً لذلك:

"سمعت جدالاً بين أناس يتحدثون عن حكم لمس المرأة، ولمس إحدى السوأتين، والأقوال المتضاربة في هذه القضية.

---

[58] الإسلام والاستبداد السياسي، ص9.

[59] محمد الغزالي: الطريق من هنا (القاهرة: دار الشروق، 1992)، ص85.

فقلت لهم: هذه أحكام تقرر في خفوت، ويذكر الخلاف فيها بكثير من التجاوز! وأمرها لا يستحق هذا الحماس ولا ذاك العناد، فنظروا إليّ مستنكرين، فقلت لكبيرهم: أتعرف شيئاً عن السوأة الكبرى في الإسلام؟

وجاء الرد بسرعة: أي سوأة؟ قلت: ضياع الإسلام في الأندلس وذهاب ريحه وانتهاء دولته ومحو حضارته! هل درستم أسباب ذلك وأخذتم الحيطة حتى لا تتكرر المأساة؟"[60]

هذه الأخطاء والكوارث الكبرى لا تلفت نظر كثير من أصحاب الثقافة الدينية أولي النظر الأخلاقي المحدود، الذين صوروا الدين وكأن رسالته العظمى محصورة في قضايا المرأة والغيرة عليها، ومن ثم فهم مفتونون بتوليد قضايا الجدل المتتالية من تلك الشاكلة، غافلين عن دروس السياسة وعظا ا في الماضي، ولآني، والآتي. وفي كثير من كتاباته لا ينبي الغزالي يبدئ ويعيد مؤكداً ضرورة دراسة ملف الأندلس الدامي، واستخراج الدروس الكافية منه؛ والحقيقة لو أننا فعلنا ذلك لأوقفنا مسلسل سقوط أطراف الوطن الإسلامي، وهو مسلسل لم تنقطع حلقاته منذ سقوط الأندلس.

وقرين بمسالك هؤلاء، تعاطي المتزمتين في الشأن السياسي، وهم من جمهرة المتدينين المتشددين الذين لا يفهمون السياسة –التي هي أساساً فن الممكن، والقدرة على المناورة والمساومة- إلا على أ ا فن المفاصلة وحرق المراحل بالجهاد والثورة. وهؤلاء كانت نتائج دخولهم معتركات العمل السياسي ويلاتٍ وكوارث متلاحقة، ابتلي ا العمل الإسلامي برمته... ولقد كان للغزالي صولات وجولات في مناهضة مثل هذا التفكير... هذا وربما ظن بعضهم أن الغزالي كان مغالياً في تقديره لخطر هؤلاء الأغرار، وأن معاركه معهم لم تكن متكافئة، بسبب التفاوت الهائل بين ثقله العلمي، وبضاعة أولئك المزجاة من العلم، ولكن تقدير الشيخ كان مصيباً لأن قلة وعي من كان يحاورهم كان تسبب تلك الكوارث، وكان يريد أن يصفي أثرهم من ميدان الدعوة، ومن مناخ الثقافة السياسية للمجتمع الإسلامي.

وبالمقابل فإن الشيخ الغزالي كان متجها، في سائر كتاباته وخطاباته، باتجاه إعطاء محتوى إيجابي لثقافة المسلمين السياسية. ولذلك فإنه لم يكن ليمل السعي

---

[60] محمد الغزالي: أزمة الشورى، ص82.

في تبصير الأمة بشؤو ا العامة، وبحقوقها، وواجبا ا، والعمل على تنشئة الشباب المسلم على الحس السياسي، والانفعال مع مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في العمل السياسي بأفق مستقبلي واسع، وعقلانية خصبة، وتربص تريث في انتظار الجولات والنتائج. فمثلما أن السلطة أثرها ووظيفتها في تحقيق قيم الإسلام، للجماهير أيضاً مثل ذلك. وفي ذلك يقول الغزالي: "لست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة، وإقرارا المعروف ومحو المنكر، وإني أعلم أن الدولة جزء من الدين، وأن أجهز ا الفعالة جزء من شعب الإيمان السبعين... وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يمارى فيها إلا جاهل أو جاحد..! وهذا كله لا يلغي ولا يوهن عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة، وفي إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية، وفي فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم، وإبطال شرعيتها إن هي نسيت وظيفتها أو جاوزت حدودها. إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة، وهي يدها التي تحقق ا ما تبغي، وقدمها التي تسعى ا إلى ما تريد".[61] وتعبير أن الدولة هي الصورة الظاهرة لباطن الأمة من أدق التعبيرات في تحديد أهمية شأن الثقافة السياسية ومركزيتها ووظيفتها في صياغة شكل الدولة ونظامها السياسي، وفي ذلك عظ بالغة لدعاة بعث دولة الإسلام، للاهتمام ببذل مزيد من الجهود لتطوير الثقافة السياسية الذاتية للأمة، وذلك بإنتاج فريدٍ من الدراسات المختصة بتحليل ذلك الشأن، وغرس خلق الشورى ممارسة في كل شؤون الحياة، وتدريب النشء على المسؤولية، والإقدام على المشاركة في اتخاذ القرارات، والجرأة على محاسبة الحكام، فذلك هو أساس التحول نحو قيم الإسلام ونظمه في محيط السياسة.

خاتمة

وفي الختام يمكن القول أن الفكر السياسي للشيخ محمد الغزالي قد كان الامتداد الطبيعي للأفكار النهضوية لمدرسة المنار: تطويراً للطروحات السياسية الإسلامية الحديثة، ومدافعة لما خالفها من واردات الفكر السياسي الغربي. وقد اتسمت أفكار الشيخ الغزالي السياسية، في مجملها، بالواقعية، والاعتدال؛ وذلك

[61] الطريق من هنا، ص128.

مع لالتزام بالأصول الإسلامية، ومماسة المستجدات والابتلاءات التي ترامت على العالم الإسلامي في هذا الزمان.

ويمكن القول أيضاً أن أفكار الغزالي السياسية كانت من أقوى الأسلحة التي كسحت جناح التغريب، إذ إن كتاباته السياسية، وإن جاءت دائما في معرض دفاع حار عن الإسلام، إلا أ ا لم تكن مجرد هتاف أجوف، وإنما اشتملت على مادة علمية أولية اتخذت بديلاً لطروحات التغريب. وكما يقول منير شفيق في كتابه الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر الصادر في أوائل الثمانينيات، فقد "كان من الممكن للفكر المتغرب قبل ثلاثين، أو عشرين سنة، أو عشر سنوات، أن ينظم القصائد الطوال في مدح علمه الاقتصادي وبرامجه الاصلاحية"،[62] ولكن بعد فشل تلك التجارب و وض البديل فقد كسدت تلك الادعاءات.

وكتابات الغزالي السياسية، قد تأسست عليها، وتفرعت عنها، كتابات سياسية إسلامية، هي أكثر تخصصاً، فهي بالتالي يمكن اعتبارها –من منظور تاريخي للفكر الإسلامي الحديث- بمثابة حلقة تطور وانتقال مهم، أفضى إلى النهضة الماثلة للفكر السياسي الإسلامي وإذا أمكن اعتبار كتب الشيخ أبي زهرة الفقهية، مدخلاً جيداً للولوج إلى عالم الفقه الإسلامي ولاستيعاب دواوينه الموسوعية الشاملة، فإنه يمكن القول كذلك إن كتب محمد الغزالي السياسية هي المدخل المناسب لولوج عالم النظم الإسلامية، مثلما أ ا حلقة انتقال وسيطة نحو التنظير السياسي الإسلامي المنشود.

---

[62] منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، لندن: دار طه للنشر، لندن، 1983، ص112. ومنير شفيق نفسه تجربة مثيرة من تجارب الخلاص الفكري، وكم نتمنى أن يتفرغ لكتابة سيرته الذاتية، ويسجل مراحل تطوره الفكري، حتى تظفر المكتبة العربية بمنقذ آخر من الضلال.

الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد

الشيخ محمد الغزالي

لعل الفتوح الإسلامية كانت أسرع الفتوح في تاريخ العالم وأبعدها أثراً؛ ففي خلال عشرين سنة بعد وفاة صاحب الرسالة الخاتمة كانت أركان الدول الكبرى تنهار، وكان الاستعمار العالمي يتقلص كما تتقلص الظلمات أمام مطالع النهار... فقد للرومان أملاكهم في إفريقية وآسيا، وتحررت شعوب احتبست قروناً داخل مصيدة محكمة من البطش.

نعم تحرر في الشمال الإفريقي ما يسمى الآن مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وتحرر من آسيا فلسطين وسوريا والأناضول، وحاول الفاتحون تحرير القسطنطينية فعجزوا، ولكنهم حرروا جزر البحر المتوسط تقريباً.

وكان جناحهم الشرقي في آسيا قد محا دولة الأكاسرة ووصل شمالاً إلى جنوب روسيا وأوغل في الشرق حتى أخذ أقطاراً من الهند والصين.

إن الدولة الإسلامية الأولى تكونت في زمن خارق للعادات في قصره، وأقامت حضارة لا تزيدها الأيام إلا قدرة على البقاء ومقاومة الأحداث.

ويرجع ذلك فيما أرى إلى أمرين:

الأول: حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام، واقتناعه ا ورضاه عنها عندما بلغته، حتى أن أبناء البلاد المفتوحة سابقوا العرب إلى فقه الإسلام ونشره، وصاروا أئمة للأمصار الكبرى تثق الجماهير م وتصدر عنهم.

الثاني: أن أصحاب محمد ﷺ قدموا الرسالة للناس علماً ذكياً وثقافة أصلية.

والإسلام من ينبوعه الأول علم ينير العقول ويمحو الأهواء، لذلك قال الله لنبيه: وَلَئِنِ اتبعت أهواءَهم بعد الذِي جاءَك مِن الْعِلْمِ ما لَك مِن اللهِ مِن ولِي ولا نصِيرٍ (البقرة:120).

ويكرر هذا المعنى فيقول في سورة أخرى: ﴿ولَئِنِ اتبعت أهواءَهم بعد ما جاءَكَ مِن الْعِلْمِ ما لَكَ مِن اللهِ مِن وليٍ ولا واقٍ﴾ (الرعد: 37).

إن الإسلام علم واسع الدوائر، وقرآنه الكريم كون مسطور يضارع الكون المنظور في تفتيق العقول وتجلية الفطرة.

ولولا ما في آيات القرآن من هدى ونور ما قامت أزهى حضارة في التاريخ! إنني رمق الأوج الذي ينقل القرآنُ الناس إليه في كل مجال فأردد قوله تعالى: ﴿لَم يكُنِ الذِين كَفَروا مِن أهلِ الْكِتابِ والْمشرِكِين منفَكين حتى تأْتِيهم الْبينةُ [تاركي خلالهم القديمة] رسولٌ مِن اللهِ يتلُو صحفاً مطَهرةً﴾ (البينة:1-2).

ثم أشعر بالأسى للأمية الثقافية التي لفت جماهيرنا في أكفا ا وجعلتهم في هذا العصر آخر الأمم وأنـزلها رتبة.

نعم، هناك أشرطة حية تحفظ القرآن حرفاً حرفاً ولا تعي منه ما يرفع رأساً.

وهناك عشرات الدول تنتمي إلى الإسلام تذكرنا بتغلب وحِمير وطسم وجديس.

ماذا حدث؟ إن الإسلام الذي سمي في وحي الله علماً أمسى أهله أسوأ الأميين في العالم...!!

تذكرت الأيام الأولى من عمري عندما كنت أحفظ القرآن الكريم -من سبعين سنة مضت.

كنا نتعلم الحساب في كتاب تضمن القواعد الأربع مترجم عن الإنجليزية ألفه مستر "تويدي"!

قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة نأخذها عن خواجة؟!

إن آباءنا وضعوا طائفة من النظريات الهندسية، وبرعوا في حساب المثلثات والمربعات فما الذي عرانا؟

إن هذا القرآن يبني الإيمان بالله على التأمل في الكون ويقول: ﴿حم تنزِيلُ الْكِتابِ مِن اللهِ الْعزِيزِ الْحكِيمِ إن فِي السماواتِ والْأَرضِ لَآياتٍ لِلْمؤمِنين وفي خلْقِكُم وما يبث مِن دابةٍ آيات لِقَومٍ يوقِنونَ﴾ (الجاثـية:1-4).

عناصر الكون ومظاهره هي مصادر الإيمان واليقين، فما يصنع مكفوف لا يرى آية؟ وما تكون معرفته لله؟

وهل المعرفة المزعزعة تضبط شهوة أو تحكم سلوكاً؟ أو تقتحم عقبة؟ أو تدفع إلى مكرمة؟

لقد بدأت بذكر المعرفة الكونية لأ ا من شؤون الدنيا التي نستوي فيها مع غيرنا، والتي قيل لنا فيها أنتم أعلم بشؤون دنياكم!.

ابتدع ما شئت! واكتشف ما استطعت! لا قيد ولا حظر.

إن غيرنا سبق سبقاً بعيداً وبرز في كل ميدان، وساند عقائده بما استطاع، فانطلق الباطل في ساحات الحياة مدرعاً بالحديد.

والتقينا به ونحن نحمل مواريث الوحي وأيدينا عزلاء وأجسادنا عارية، فلما عدنا كانت هزائمنا مضاعفة لفراغ اليد والعقل والفؤاد!

والألوف المؤلفة من مسلمي العالم يعيشون أتباعاً مغموصين لأ م يشترون أجهز م المدنية والعسكرية من خصوم العقيدة وكارهي الوحي!! وينتظرون من الباعة أن يعلموهم ماذا يصنعون ذه الأجهزة وكيف يستخدمو ا؟

أما ثقافتنا الإسلامية التي استبحرت في القرون الأولى فقد رأيت تأليف كتاب فيها سميته تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل؛ والكتاب على وجازته يلقي ضوءاً على موضوعه وقد يحتاج إلى زيادة! إن عندنا مدرسة الفقه والتشريع ومدرسة التربية والأخلاق ومدرسة العقائد والمتكلمين ومدرسة التفسير والحديث، وفنون الآداب من شعر ونثر. وقد تعرضت هذه المدارس للمد والجزر، والغزارة والضحالة، ووضعها الآن يثير الدهشة. فالأدب مثلاً كان في الجاهلية والإسلام شيئاً له وزن وقيمة. وقد ظل ينحدر حتى فقد وزنه، ثم فقد قيمته، ونحن الآن نقرأ شيئاً اسمه الشعر المنثور يمثل مرحلة من القول أدنى إلى ا ون منها إلى الرشد، وفي تسميته أدباً تجوز كبير...!! مع طول العمل وكثيرة التجارب يتحكم العقل و تدي إلى الصواب؛ وإذا كان ذلك مأنوساً في الأفراد فيجب أن يكون مألوفاً بين الجماعات والأمم.

ونحن المسلمين نحمل رسالتنا من زمن طويل، إننا الآن في القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام، ذقنا مع ديننا الحلو والمر، والهزيمة والنصر، والامتداد والانكماش، فهل تعلمنا شيئاً مما أصابنا؟

وهل استفدنا من التجارب حكمة تصقل أحكامنا وتضبط خطانا؟ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وربما قلت استفادة المنافق من الأحداث كما قال

تعالى: ﴿أولا يرونَ أنهم يفْتنونَ فِي كُل عامٍ مرةً أو مرتينِ ثُم لا يتوبونَ ولا هم يذكرونَ﴾ (التوبة:126).

ولست أتساءل الآن عن مدى اعتبارنا من سقوط الخلافة العباسية في بغداد، أو سقوط الخلافة العثمانية في الآستانة، أو ضياع الإسلام كله في الأندلس، ثم بدء الانسحاب من الأقطار أوربة الأخرى!!، مع أن هذا التساؤل مطلوب وتجاهله جريمة.

إنما أتساءل عن المدارس العلمية المختلفة في الفكر الإسلامي، ماذا حدث لها؟ وأين حطت عصا الترحال؟

ولأبدأ بمدرسة التربية والأخلاق التي اشتبكت في تاريخنا العلمي بنـزعة التصوف وفلسفته.

يجب فض الاشتباك السيئ في هذا المجال وتنشئة أجيال أزكى نفوساً من المسلمين المعاصرين لا تفصل بين الإيمان والخُلُق، ولا بين العبادة والخُلُق. إن الذي شان الخوارج قديماً وحديثاً ضعف أخلاقهم وهم يعاملون الناس، واستباحتهم المجنونة للدماء والأموال من أجل فكرة غلبت عليهم أو وجهة ساروا إليها.

إنهم لا يتواضعون لله ولا يهضمون أنفسهم لأمر ذي بال!.

أعجبني ابن القيم كبير الصوفية في عصره فيقول متواضعاً: إذا كنت قد عرفت شيئاً لم يعرفه الشيخ الكبير فأنا كالهدهد الذي قال لسليمان: ﴿أحطْت بِما لَم تحِطْ بِهِ وجِئْتك مِن سبإٍ بِنبإٍ يقِينٍ﴾ (النمل:22)، والهدهد هو الهدهد، وسليمان هو سليمان!

ومضى الرجل في كتابه يعارض حيناً ويؤيد حيناً، وكأنه الشافعي الذي قال: ما جادلت أحداً إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه!.

أين هذا الخلق من أشخاص مسعورين، همهم الأول تحقير الخصوم والنيل منهم؟ فإذا جادلوا عن رأي لهم تقمصهم حب الانتصار وإثبات الشخصية والزهو بين الناس!.

إن محنة التربية هائلة في العالم الإسلامي سواء في الأخلاق الربانية أو الأخلاق الإنسانية.

الإخلاص لله قليل، والصدق مع الناس قليل، والمفروض أن نكون وراء نبينا نتمم مكارم الأخلاق.

لا قيمة لأشكال العبادات إذا لم يكن وراءها مهاد من تقوى القلوب. والدين قبل كل شيء زكاة في النفس، وصفاء في الروح، وميل إلى العطاء لا الأخذ، وإلى السلام لا الخصام.

ولأمر ما علّمنا نبينا أن أول ثلاثة تسعر م النار هم المرابون بالعلم والجهاد والصدقة.

إن المرائي يرى نفسه ولا يرى ربه، إنه مشغول بجاهه ومكانته قبل كل شيء!!

وإذا عجز الدين عن كبت الغرائز السوء ومحوها، فإن تطبيقه في الحياة لن يكون إلا تنفيساً عن هذه الغرائز ولو أخذ صورة العبادة!

وقد راقبت حركة إسلامية فشلت في بلوغ غايا ا، كانت تضم صالحين كثيرين ولكن بينهم عصابة ترى أن تحكم هي بما أنـزل الله، وترفض أن يحكم غيرها!! إن حب الرياسة خالطها وهيمن على خططها وبواعثها فنشأت عن ذلك فتن هائلة...

والله وعد بالتمكين من هدفهم إقامة الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قبل أن يكون هدفهم تولي منصب ما... إن الأخلاق بقسميها الرباني والإنساني هي الإسلام الحق. يقول علي بن أبي طالب: "أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، ليست قراءتكم إلى قراء م بشيء، ولا صلاتكم إلى صلا م بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلا م تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"! والأجهزة الإدارية في العالم الإسلامي مصابة بمن يعبدون مناصبهم ويستغلو ا لمصالحهم ولا يعرفون أ ا أمانات يسألون عنها يوم الحساب.

وعلم القلوب الذي يسمى الآن علم التصوف لا يدري شيئاً عن علل الأمة، بل هو تائه وسط أفكار وفلسفات سقيمة، ثم هو بين العوام رقص تز به الأبدان وتموت فيه العقول والأفئدة.

وأذكر أني في صباي قرأت كتاباً يتتبع الأمانة في مسالك الناس –وأظن المؤلف أمريكياً- فاستغربت أنه قرب الفضيلة من الأذهان وكان عملياً واضحاً في إثبات السلوك الشريف ومحو السلوك الخائن.

قلت ما أحوجنا إلى مثل هذا التأليف في ميدان التربية، حتى يكثر الأمناء بيننا!

إن نبينا عليه الصلاة والسلام خلّف لنا ميراثاً ضخماً يدفع الناس دفعاً في طريق الكمال، ويصحبهم في مراحل الطريق بالتوعية والتذكير حتى لا تزل قدم أو تعرض ريبة.

ما أحوجنا إلى هذا الميراث ونحن نواجه حضارة ذكية شريرة مغرورة.

أظن كتب الفقه الإسلام تبلغ نصف المكتبة الإسلامية، فإن اشتغال المسلمين بالفقه غلب على ثقافتهم وتغلغل بين عامتهم وخاصتهم، وإن لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات.

أما الفقه الإداري والاقتصادي والسياسي فإن البحوث فيه قليلة، ولعل بعضها كان مقلقاً!!

وقد كتب تلميذا أبي حنيفة –أبو يوسف ومحمد بن الحسن- في هذه الشؤون. ألّف الأول في الخراج أو الضرائب، وألف الثاني في الشؤون الدولية.

والميدان فسيح ليقول الفقه الإسلامي كلمته في نظم الحكم وقضايا المال وأطوار أخرى جدت في أنواع المعاملات.

والطريقة التي درسنا ا الفقه في صبانا الباكر ونحن في المرحلة الابتدائية بالأزهر جديرة بالتنويه.

فقد كنت حنفي المذهب كما أراد أبي، وكان زملائي بين الشافعية ومالكية، أما الحنابلة فقليلون. وكنا نتبادل الخلاف الفقهي ونحن نتضاحك! يقول المالكي الشك ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه! أو يقول المفطر ناسيا يقضي يومه، وأقول لا يقضيه!

ويقول الشافعي لمس المرأة ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه! أو يقول ينبغي رفع اليدين قبل الركوع وبعده، وأقول لا يرفع إلا عند تكبيرة الإحرام! ومع هذا الاختلاف المتبادل كنا زملاء متحابين نؤلف المظاهرات ضد الاحتلال الإنجليزي ونتعاون في مصالح شتى.

وما فكرنا قط أن يكون هذا الاختلاف مثار خصام أو عدوان.

ويظهر أن بعض البيئات في العالم الإسلامي درست فقه الفروع على أسلوب آخر زرع الجفاء والفرقة بين المسلمين.

وأذكر أني مكثت في الجزائر بضع سنين أصلي وراء أئمتها وهم مالكية دون حرج وفي يوم ما جاءنا حنبلي زائراً وصلى معنا، وكان يجاورني في الصف، فرأيته مضطرباً غضبان يوشك أن يعيد صلاته، وأن يأمرنا بإعادة الصلاة!.

قلت له: ما بك؟

قال أرأيت هذا الإمام يكبر ثم يقول مباشرة الحمد لله رب العالمين؟ قلت له: الإمام مالك لم يثبت عنده حديث الاستفتاح، ولم يثبت عنده أن يستفيذ المصلي... وليست البسملة جزءاً من الفاتحة، وله رأيه ولك مذهبك.

ألم تقرأ كتاب ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام؟ هذا تنوع وليس اختلاف تضاد، والمرويات الواردة تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا وذاك من الأقوال فاسكت ولا تحدث بين الناس فتنة!

والواقع أني أكرهت الرجل على الصمت وأحسبه لم يصل معنا بعد ذلك اليوم...

لقائل أن يقول: ما هؤلاء الأئمة الذين ذكرت أسماءهم وربطتنا م؟ إننا نمضي بعيداً عنهم وما نحب أن نعرج عليهم!

وأجيب: لك ذلك إذا شئت، والمهم أن تكون ماهراً في القرآن، خبيراً بالسنن، ضليعاً في اللغة، ألمعياً في الذكاء، مستغنياً عن تجارب الآخرين!

إن هؤلاء الأئمة سبقوا في دراسة الكتاب والسنة ولم يجيء أحد منهم بشيء من عند نفسه. وقد عرفوا بالعلم والتقوى، وخدموا الإسلام جهدهم، ولم يجمعوا الناس حولهم بالعِصي أو بالعطايا.

إ م مدارس مجتهدة، تخطئ وتصيب، وهم جميعاً مع مالك في قولته المشهورة: "كل امرئ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام" [يعني رسول الله ﷺ]، وأشهد أ م قمم شوامخ في فقه الإسلام وفي التجرد لله وازدراء العاجلة.

وما رأيت أهل علم زهدوا في تراثهم، أو زعِم لأحدهم العصمة. وعل أي حال فقانون الاجتهاد أن من أصاب له أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد. ورأيي أن باب الاجتهاد مفتوح، ولكن يستحيل أن نأذن لكل إنسان بولوجه. لا بد من رسوخ في العلم ورسوخ في التقوى: وما يلَقاها ِإلا الذِين صبروا وما يلَقاها ِإلا ذُو حظ عظِيمٍ (فصلت:35). وميدان الفقه تعمل فيه شعبتان:

أصحاب الرأي، وأصحاب الأثر. وليس معنى الرأي الهوى، وليس معنى أصحاب الأثر أن من المسلمين من يترك نصاً وارداً. وإن الطبائع العقلية للبشر مختلفة، فقد يفهم واحد من النص ما لا يفهمه غيره.

وتدبر حار الصحابة في تنفيذ قول الرسول "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بين قريظة"، وتدبر حال داود وسليمان حين اختلفا في عقوبة من ترك قطيعه يفسد الحرث!! فَفَهمناها سلَيمانَ وكُلّاً آتينا حكْماً وعِلْماً (الأنبياء: 79). إن الخلاف واسع بين أهل الرأي وأهل الأثر في قضايا كثيرة، بعضها في العبادات وبعضها في المعاملات، لكن ما قيمة هذا الخلاف؟

إنه في بعض الفروع والتفاصيل، وما يجوز أبداً أن يفسد وداً أو يوقع خصاماً! إن الأساس الذي نحرص عليه هو العقائد والأخلاق، إنني أميل إلى مدرسة الرأي مع احترمي لأحمد بن حنبل وتقديري لصلابته وتقواه... وأشعر أحياناً بأن الخلاف –في الفروع والتفاصيل- جزء من ا تمع الواحد، ففي الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين، إ ما متفقان في الولاء لدولتهم والانتصار لها عالمياً، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر في شؤون شتى. فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهي عندنا وينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور؟

أفدت من تجارب كثيرة أن درساً في الطب أو الفلك أجدى على الإيمان من حوار فلسفي طويل. وذلك ج القرآن الكريم.

فإنه يكشف عن الحق برؤية آيات الله في الأنفس والآفاق.

سنرِيهم آياتِنا فِي الْآفَاقِ وفِي أَنفُسِهِم حتى يتبين لَهم أَنه الْحق أَولَم يكْفِ بِربك أَنه علَى كُلِ شيءٍ شهِيد (فصلت:53).

بعد ساعة من تناولي الطعام أقول لنفسي: بدأ العمل في إخراج الحي من الميت والميت من الحي.! كيف؟ إن الطعام –وكان مادة جامدة- أخذ يتحول داخل جسمي إلى دماء فيها الكرات البيضاء والحمراء، وإلى شعور وأظافر، إلى عظام ولحوم شتى.

فلحم الكبد غير لحم الرئتين، غير لحم المخ!

وللخلايا خصائص وراثية وطارئة، وللغدد وظائف تقوم ا، ونحن لا ندري.

والروح الذي يتخلل هذه المادة ويجعلها خلقاً آخر، ينبعث من الحي القيوم. ليس لدي وحدي، بل في ألوف مؤلفة من الأحياء. ثم يطرد هذا البدن ما لا يستفيد منه ليتحول في بطن الأرض شيئاً آخر. قد يصير سنابل حافلة بالحبوب، أو نخيلاً مرصعة الصدر بالطلح النضيد، أو كروماً يتدلى منها العنب عناقيد كثريات الذهب!!، أأنا أو أنت وراء هذا التحول؟ أم رب الأرباب؟ لو كان لأوامر الله –وراء كل خلق- صوت يسمع، لصمت الآذان من كثرة الأوامر بالإنشاء والتكوين.

ما أجمل الله، وأحلى صنعه! أحياناً أردد هذا الغناء:

يا غائباً لا يغيب أنت البعيد القريب!
مهما تغب عن عيوني فأنت أنت الحبيب!

إن الإسلام فطرة سليمة، وعقل سوي، وصراط مستقيم، وهو طبيعة العلاقة بين مادة الكون وبارئها الأعلى. ولذلك اتجه الوحي إلى محمد ﷺ ذه الآية: قُلْ أَغَير اللهِ أَبغِي رباً (الأنعام:164). وقوله: أَفَغير دِينِ اللهِ يبغونَ ولَه أَسلَم من فِي السماواتِ والْأَرضِ طَوعاً وكَرهاً وإِلَيهِ يرجعونَ (آل عمران:83)، ليس في العالم إله آخر! أين هو؟ وماذا يصنع؟

إن الشرك وهم لمغفل كبير، أو حلم لنائم منفوخ البطن مسهد المضجع!

ومع ذلك فالجاهلون بالله كثيرون، ويخيل إلى أن جرير م، بقدر ما تعود إلى غبائهم، تعود إلى تفريط المسلمين في خدمة الحق وفتنة الناس عنه والعجز المستغرب عن اقتياد التائهين إليه... ليس بين المسلمين خلاف في العقائد، فهم يجمعون على أن الله واحد، حقيق بكل كمال وأن لقاءه حق: لِيجزِي الَّذِين أَساءُوا بِما عمِلُوا ويجزِي الَّذِين أَحسنوا بِالْحسنى (النجم:31).

وقد تسللت إلى العقائد المقررة أفهام وأوهام من صنع الناس لا يعرفها القرآن الكريم ولا يقرها. وحسبنا كلام الله... وخذ مثلا: مبحث الصفات الإلهية: أهي عين الذات أم غير الذات أم لا عين ولا غير؟ وهذا تساؤل سمج يجب دفنه ومنع اللغط فيه، وخذ مثلاً: أعمال الناس أهي من خلقهم أم من كسبهم، وهل هم مخيرون أم مجبورون؟ وهذه أسئلة بالغة السخف، والمشتغلون ا هاربون من مستشفيات ا انين، ومن قال لا عقل لي ولا إرادة فعلاجه العصا! وفي مباحث العقائد: هل البعث للأجساد الأولى أم لأجساد مماثلة؟، وهذا كلام ولدته البطالة ولا قيمة له! لعل أفضل ما يغرس الإيمان الحق هو

منهج القرآن نفسه، وقد قرأت في مؤلفات العصر الحاضر كتاب العلم يدعو إلى الإيمان وكتاب الله يتجلى في عصر العلم؛ ولو طُعم هذان الكتابان ببعض الآيات القرآنية لكانا أفضل من كتب كثيرة عندنا ألفت في العقائد. وقد سألني أحد الناس هل في القرآن مجاز؟ فقلت له كيف تفسر قوله تعالى: ﴿إِنا جعلْنا فِي أعناقِهِم أَغْلالاً فَهِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهم مقْمحونَ وجعلْنا مِن بينِ أَيدِيهِم سداً ومِن خلْفِهِم سداً فَأَغْشيناهم فَهم لا يبصِرونَ﴾ (يـس:8-9)، هل السدود هنا سد أسوان وسد الفرات؟ إن المجاز موجود في لغة العرب، وفي لغات الناس الأخرى، ومع ذلك فما دخل هذا في العقائد؟

قال: هناك من ينكر بعض آيات الصفات ويتكلف تأويلها، قلت: هناك مرويات تتصل بذات الله تعالى لا يليق بالعقل البشري أن يحاول معرفة كنهها، إن البحث وراء المادة ليس من وظيفة العقل البشري.

وهناك مرويات يستحيل تركها على ظاهرها، ولا بد من تأويلها مثل: "مرضت فلم تعدني" و"... كنت سمعه الذي يسمع به، ورجله التي يمشي بها". ومع ذلك فما معنى اشتغال الدهماء بهذه المرويات وعكوفهم على ترديدها؟ هذه بطالة مقنعة وتسكع في طريق الحياة لا مساغ له... إن سلفنا الأول كان سليم الفطرة، خالص النية، لزم الجد في الأمور، فحكم الدنيا بدينه، ولو اهتم بهوامش العقيدة التي افتريناها ما أحرز نصراً ولا فتح بلداً.

وعندما شرف الله العرب بحمل الرسالة الخاتمة، حذرهم الفرقة وأوصاهم بالجماعة، وقال لهم كما قال لمن قبلهم: ﴿أَنْ أَقِيموا الدين ولا تتفَرقُوا فِيهِ كَبر علَى الْمشرِكِين ما تدعوهم إِلَيهِ﴾ (الشورى:13). وقد ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها جبهة واحدة.

لا الفقه المذهبي ولا هوامش العقيدة ولا الأخطاء السياسية الفاحشة أفلحت في تقطيع الأمة الإسلامية وتمكين أعدائها منها، حتى ظهرت بدعة القوميات في العصور الحديثة، وانتقلت جرثومتها إلى أرضنا، فإذا هي بلاء يهدد الحاضر والمستقبل. وكان ظهور "القومية الطورانية" في تركية أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة!

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركية انتقاماً من السلطان عبد الحميد الذي رفض باسم الإسلام أن يستوطنوا فلسطين. ومع أنهم أغروه بالمال -

وكان إليه محتاجاً- فقد أبى. ومع أن أوربة كانت تظاهرهم، فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين تمهيد لضرب الإسلام نفسه في أوطانه كلها... فماذا يفعل اليهود؟ لجأوا إلى الغزو الثقافي، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء "جمعية الاتحاد والترقي" ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش.

فقامت ثورة أودت بالخليفة، وكان رد الفعل نشوء القومية العربية التي ظاهرت الحلفاء في الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية في العالم.

وتتابع الا يار حتى قامت ثورات مشا ة للثورة الكمالية استغنت بالقومية عن العقيدة وجعلت الإيمان –إلى حين- ضيفا ثقيلاً ينتظر منه الرحيل! إن جماهير المسلمين لا تتنازل عن دينها ولا تعدل بجامعته شيئاً، والذي حدث أن الاستعمار العالمي أول ما نـزل بلادنا ألغى الشريعة واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية! ثم وضع خططاً بعيدة المدى للإجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلّين –وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض!

والحرب بيننا وبينه سجال، وهي حرب رحبة الميادين، وأسلحتها لا حصر لها... لقد استطاع أبو بكر أن يهزم أعداء الله في أول قتال مع المرتدين. فهل يستطيع رجالات الإسلام في القرن الخامس عشر للهجرة أن يستعيدوا شرائع الإسلام التي عطلت، وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال، وأن يستبقوا المعروف معروفاً والمنكر منكراً؟ إذا ا زمنا في هذه المعركة فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن... شبكات التنوير في تعاليم الإسلام ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة لأن الوحي النازل على محمد جامع مانع كما قال تعالى: ﴿ونزلْنا علَيك الْكِتاب تِبياناً لِكُل شيءٍ﴾ (النحل:89)، وعندما يكون الدواء مركباً من سبعين عنصراً، فإنه لا يحصل الشفاء الكامل إذا نقصت منه بضعة عناصر، بل قد يوصف الدواء –والحالة هذه- بأنه مغشوش؛ ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم في قوله: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". فالإسلام

ينظم شؤون البيت والشارع، والمدرسة والديوان، وعلاقات المرء مع نفسه والآخرين، وواجباته في الحرب والسلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة.

وهو يعتبر الإنسانية رحمة عامة توصل بالتعارف والخُلُق، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء.

وفي الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة، والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم كما نـزلت إليهم، وأن يبينوا للناس كافة، وأن يكونوا في حياتهم الداخلية صورة حسنة لها. وإذا وقع قصور في الفهم أو تقصير في البلاغ فهم مسؤولون عن ذلك في الدنيا والآخرة. ولست هنا أسائل نفسي وقومي عما كان منا وما نـزل بنا في هذه الأيام النحسات، فإن أيام المد ذهبت وأعقبها جزر مزعج، وعلى قدر الجبهة التي عمل الإسلام كان الغزو العلمي والمدني الذي تعرضنا له! كان اقتحام أخلاقنا يتم في وقت واحد مع اقتحام حدودنا. وإنني لأدرس المسرحيات التي تعرض من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية كما تبدل في الوقت نفسه أحكامنا على الأمور وتصورنا للحاضر والمستقبل!

إن سقوط بغداد وقرطبة أقل في نظري من سقوط أحكام العبادات والمعاملات! ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص، وتحقير المثل الإسلامية، أبشع في نظري من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا... ومن هنا فإن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها في الداخل والحديث عنها في الخارج أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسي لبلد ما في إحدى القارات...

ما قيمة هذا الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا؟ مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول في المعركة بين العلم والدين، وقيام عصر الإحياء في أوربة بعيداً عن الوحي كله!! ويبدو أن القوم لم يتغيروا، فقد وقعت أخيراً معركة في الكنيسة الإسرائيلي بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات سببها أن الوزير قال: "ليس كل ما فعله الملك داود جديراً بالإعجاب!"، مشيراً إلى ما نسب إلى داود في العهد القديم من اقتراف جريمتي الزنا والقتل. قالوا زنى بزوجة "أوريا" الحثى ثم أوصى بقتله في الميدان حتى لا يعود، ويسترد المرأة من عشيقها الملك!!

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض. وقالت إذاعة لندن إ م سيحرجون الحكومة كلها في أول اجتماع... ونترك بني إسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر. لقد جاءت من أوربة إلى إفريقيا لتبشر بالمسيح حامل الآلام عن هذا الورى –كما يقول شوقي- فماذا فعلت؟ تركت في وسط إفريقية عشرة ملايين إصابة بالإيدز، وهي تنشر الدين!

لقد حكمت بالموت على من قال إن الأرض كرة تدور حول الشمس. أما اقتراف الخنا فحسب من فعله أن يعترف ويحيا آمنا! إن تزوير الدين على هذا النحو أزرى به، وزهد فيه، وأعطى الحكم العلماني ألف سبب ليحل محل الدين، ويبتعد من الوحي كله... ونحن دعاة المسلمين نلقى العنت حين نقدم القرآن للناس لأن سيرة المسلمين مع دينهم لا تشرف، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة يرو ا أقرب إلى الفطرة والرشد... ولا بأس أن أحكي ما وقع لي أخيراً... جائتني رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول في "شيكاغو" وتستعد لعقد مؤتمرها الثاني لمناسبة مرور 50 عاماً على تأسيس هيئة الأمم المتحدة، وقيل لي بعد اختياري عضواً: إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوي أو أرضي، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأي دين.

المهم أ م يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المثل العليا التي يجب أن تحكم العالم.

وأنا رجل شري الأول والأخير أني أقول وراء محمد: ﴿إِن صلاتِي ونسكِي ومحياي ومماتِي لِلهِ رب الْعالَمِين﴾ (الأنعام: 162-136). أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي، وحين أفكر بأن الله هو الذي أسرج مصباح عقلي بأنه يستحيل أن أسوي بين مؤمن وكافر، أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها في عمل ما لرفع مستوى البشر...!!

شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم مة خطيرة، أ م لا يهتمون بتزكية الروح، وأ م قد يدفعون المظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعو ا عن غيرهم!، وأن طقوس العبادات ارجح لديهم من حقوق الإنسان، فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها ديني، جاء فيها ما يلي: "شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمي لدعم الأخلاق والتسامي بالبشر، وقلت إن الفطرة الإنسانية لا تزال طيبة تعشق الكمال وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادي الذي يربط المرء بنفسه

ومآربه وشهواته، ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره واختصرت أبعاده، ونشأت فيه –لأول مرة في تاريخه المديد- هيئة لأممه كلها، أي أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات، والتعاون على حلها. لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا في ظل الاكتمال الخلقي وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر في توفير الوسائل المنشودة لتحقيق ما نصبو إليه؟ إن نبي الإسلام يقو: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ ويقول لعي بن أب طال: "ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك"؛ ويقول لأصحابه: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين"!! إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم وتسدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى... لكنني –ولأكن صريحاً- شعرت بحرج شديد عندما علمت أن "البرلمان" الأخلاقي فتح الباب للمؤمن والكافر، للموحد والمشرك، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت!. قد تقول: هذه الدنيا وهؤلاء أبناؤها، وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل متناقضة تجاورت في مقاعدها لتدرس قضاياها المختلفة، وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك! ولي على هذه الإجابة تعليق! إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بالأخلاق أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين، أو هو أم يثير الاشمئزاز، لماذا يخلق الله ويعبد غيره؟ ولماذا يعطي ويشكر سواه؟ هل العقوق رذيلة إلا في معاملة الله؟!

إنني لو أجزلت العطاء لأحد ثم رأيته يجحدني لاشتد سخطي عليه واحتقاري له! كيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحاً ومساءً ثم تتجرأ عليه، وتنكر وجوده وحقوقه؟ أعتقد أن منكري الألوهية ينبغي أن نعترف م، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم في الحياة، من يدري؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم...

"ومن دواعي سرورنا نحن المسلمين أن نلتقي بأتباع الديانات السماوية التي سبقتنا في مؤتمر جامع لتحسين الحسن وتقبيح القبيح وتقوية الفضائل ومحاربة الرذائل. إن لدينا الكثير الذي نود أن نقوله، والتراث الذي تركه لنا

محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها، ولا رغبة في التسامي إلا زكّاها وشجع عليها. إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق، ولا أعرف رسولاً سماوياً ولا فيلسوفاً أرضياً خلّف مثل هذه التركة!! ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التي يحتاج إليها... ثم إننا نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس وأن يتعرف علينا الناس. هكذا علمنا ربنا.

فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه: هو الذِي جعلَ لَكُم الْأَرض ذَلُولاً فَامشوا ِفي مناكِبِها وكُلُوا ِمن ِرزقِهِ وإِلَيهِ النشور (الملك:15). ونحن نعتب على اليهود والنصارى أ م لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها! قرأت أن يهودياً في مدينة الخليل استولى على بيت عربي، ثم قال لرب البيت: هذا البيت ملكي من بضعة آلاف عام وقد عاد إليّ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون، لقد تنازلت عنها، فاذهب إلى أي مكان وأقم به أو اسكن في العراء إن شئت، ولا تعد هنا وإلا... هل تستقم علاقة إنسانية مع هذا المنطق؟! والسياسة الاستعمارية التي سيرت العالم في العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها.

فإن الجريمة التي ارتكبها الإسلام -كما يرى بعضهم- أنه دحر الامبرطورية الرومانية التي كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادي النيل وشمال إفريقية وأقطار كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين، الذين اعتنقوا الإسلام بداهة...!!

وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمرا م القديمة كأ ا أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها وإلى ملايين المسلمين كأ م عبيدهم الأقدمون.

ولا شك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة فتح صفحة جديدة في تاريخ العالم، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق. لكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من سورات الحقد القديم وحاربوا التعصب والجشع؟ لعل إنشاء جهاز أخلاقي عالمي يساند الخصائص الإنسانية العليا وينشط الجهود المبذولة لدعمها ويصل بالهيئة إلى ما نريد ويقي العالم شرور الانقسام والخصام.

عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"، وفي الحديث أيضاً: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة". والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفاً في رضاه وفي غضبه،فلا يستبيح خصماً، ولا يجوز على ضعيف، بل يقف عند الحق ويستريح للعمل، ويعلم أن النـزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان.

ويؤسفني أن الإنسانية في تاريخها الطويل احتالت على ارتكاب المظالم ورأت في اختلاف البشر –قوة وضعفاً، وغنى وفقرا، وإيماناً وكفراً- ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد، وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شيء مادياً كان أو أدبياً: ﴿كُونوا قَوامِين بِالْقِسطِ شهداءَ لِلهِ ولَو علَى أَنفُسِكُم أَوِ الْوالِدينِ والْأَقْربِين﴾ (النساء:135) وفي آية أخرى: ﴿ولا يجرِمنكُم شنآنُ قَومٍ علَى أَلا تعدِلُوا اعدِلُوا هو أَقْرب لِلتقْوى﴾ (المائدة: 8). لقد وهِل الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك ا ال رحباً للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين: ﴿إِن الله يأْمر بِالْعدل والْإِحسان...﴾ (النحل: 90). وأذكر ثلاثة أحادث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة.

الحديث الأول: "دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه".

والحديث الثاني: "دعوة المظلوم [وإن كان كافرا] ليس دو ا حجاب".

والحديث الثالث: عن أبي ذر قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال ﷺ : "كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إن لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر..."!!

ومن دواهي الدهشة أن يموت نبي الإسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله!.

ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودي التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال في عاصمة الإسلام! هل كانت غربته سبباً في أن يجور عليه أحد؟ لقد حصن الحكم الإسلامي حقوقه فعاش ومات لا يشكو شيئاً، إننا نحترم الرأي والرأي الآخر.

وإذا كنا –نحن المسلمين- نشكو شيئاً فمواريث الضغائن التي نعاملُ ا في ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان".

مقتطفات من مذكرات للشيخ

قصة حياة

محمد الغزالي

ذكريات طفولة

لا يسأل أحدنا ِلم في زمان كذا، أو في مكان كذا؟ فهذا قدر سابق لا خيرة لنا فيه وإنما لفت نظري أني برزت إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام، وأيام كئيبة كان الإنجليز فيها يحتلون مصر، كما احتلوا أقطاراً فيحاء من أرض الإسلام الجريح!!

ومع الهزائم المرة التي أحرجت الآباء والأولاد، فإن المقاومة الشعبية كانت عامة. ورفْض الاستسلام للغاصب الكفور كان يعم الأرجاء.

وأذكر أن قريتي الصغيرة "تكلا العنب -محافظة البحيرة" شاركت في الثورة العامة ضد الإنجليز، وقطعت أسلاك الهاتف وأعلنت التمرد!

وجاءت فرقة من جيش الاحتلال وعسكرت أمام أحد المساجد واستخفى الناس في البيوت، وقتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بتعليمات منع التجول...

وقد علق بذاكرتي ما حدث في ذلك اليوم، وكانت أمي تحملني على ذراعها ونحن ننظر إلى الجيش الزاحف –من فوق سطح بعيد- أظنني يومئذ في الثالثة من عمري، فقد ولدت ف ي22 سبتمبر 1971، وكانت هذه الثورة سنة 1920 للميلاد!

هل يعني ذلك السرد أن ذاكرتي حسنة؟ إنني أبادر بالنفي! فإنني قد أنى ما عرفته منذ دقائق، وفي الوقت نفسه أذكر أموراً مرت عليها عشرات السنين...

سألني مدرس النحو وأنا طالب في المرحلة الابتدائية: أعرب يا ولد "رأيت الله أكبر كل شيء"، فقلت على عجل: رأيت فعل وفاعل، والله منصوب على التعظيم!

وحدثت ضجة من الطلبة، ونظرت مذعوراً إلى الأستاذ، فرأيت عينيه تذرفان!! كان الرجل من القلوب الخاشعة، وقد هزه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة –كما علموني- فلم أقل إنه مفعول أول، ودمعت عيناه تأدباً مع الله!

كان ذلك من ستين سنة أو يزيد... رحمه الله وأجزل مثوبته!

إن هناك أشياء تفرض نفسها على ذاكرتي، ولو اختلف الليل والنهار، وأخرى تقرع الباب فلا يؤذن لها فتمر كأن لم تكن...

والقرن الذي ولدت فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف! لم أبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال قد رمى "بالخلافة الإسلامية" في البحر! نعم كانت شبحاً لا روح له، بيد أن هذا الشبح كان مفزعاً لأعداء الإسلام، وإذا كان مغمى عليه تحت هوي المطارق على أم رأسه، فمن يدري؟ قد يستيقظ فجأة ويستأنف نشاطه المخوف، فموته أجدى على أعداء الإسلام...

وعندما كبرت وقرأت لم أشعر بالخزي لهذا الظروف التي اكتنفت ميلادي!

لقد رأيت ابن تيمية يولد وينمو في ظروف مشا ة، فقد برز إلى الحياة مع سقوط الخلافة العباسية، وكانت أمواج الغزو التتاري تتدافع بعنف، وترغمه هو وأسرته على الفرار من بلد إلى بلد، والسير في طريق مليئة بصرعى الفتك والضياع والهزائم المتتابعة.

إن الشعوب الإسلامية تجني المصائب من تفريط الحكام وإضاعتهم لأمانات الله التي طوقت أعناقهم، ما ذنبنا نحن الأطفال، وما ذنب آبائنا الذين يحبون الإسلام ويفتدونه بالنفس والنفيس؟

أشهد أن أبي رحمه الله، كان عابداً قواماً ومكافحاً جلداً، وقد سماني محمد الغزالي لأن أبا حامد رضي الله عنه أوصاه بذلك في رؤيا صالحة رآها وهو أعزب...

وعندما ولدت شرع يهتم بي، فما بلغت الخامسة حتى كنت في الكُتاب، أحفظ القرآن مع غيري من الصبية، ولما كان هو من الحفاظ، فقد تعاون مع فقهاء الكتاب على ألا أضيع سدى، يجب أن أستظهر القرآن الكريم في أقصر مدة!

حياة الكُتاب

لم أكن بليداً ولا نابغاً، كنت متوسط الذكاء، ضئيل الجسم، قصير القامةَ وكان وقع العصا على جلدي رهيباً عندما أخطئ، وربما أكرهتني الهيبة على التلعثم، فإذا ارتفعت العصا أسرعت إلى استعادة وعيي وتابعت القراءة، بعدما انتهوا من مرحلة الكتابة.

وعلى بعد مائة ذراع تسمع هدير التلاوة، تقطعه بين الحين والحين استغاثة مضروب لم يحسن الأداء، يتوجع من لذع العصا...

والآباء يوصون المعلمين بألا تأخذهم شفقة في التعليم والتأديب، فعصى الفقيه من الجنة كما يقولون...!

سألت نفسي بعدما كبرت سني عن جدوى هذه الطريقة، ولم أنته إلى إجابة حاسمة!

هناك من رفضها بحجة أن شحن أذهان الأولاد غير مفهومة يعطل نموهم العقلي...!

ولكني رأيت هؤلاء يشحنون عقول الأطفال بخيالات مجنونة لا أصل لها ولا جدوى منها، عن طريق الحكايات الخرافية المصورة في "التلفاز" أو المروية بوسائل الإعلام الأخرى.

قلت: لأن أملأ الذاكرة بشيء أستفيد منه في المستقبل خير من ملء الدماغ بأوهام الصور المتحركة، والأقاصيص السخيفة...

ومع هذا الرد فإن الاعتراض بقي قائما، هل يستفيد القرآن نفسه من هذه الأشرطة التي استوعبت ألفاظه، وحفظت آياته في الصدور؟ حفظاً لا تدبر معه ولا فقه فيه؟

ربما قيل: بقي القرآن متواتراً على حين ضاعت كتب سماوية أخرى!

وذلك حق! فإن ضمانات الخلود توفرت لهذا القرآن العظيم فما ضاع منه حرف، غير أن ذلك لا يقصد لذاته، فبقاء المبنى إنما هو من أجل حياة المعنى،

وازدهاره، والعمل به، وإقامة حضارة على دعائمه، والإمساك بالألفاظ لا يحقق هذه الغايات العظام...

إن نظام الكُتاب قد تلاشى تقريبا، وحلّت محلّه مدارس للقرآن فيها وجود يشبه العدم! وتكاد التربية الإسلامية والعربية عندنا تجف ينابيعها...!

ووددت لو انعقدت مؤتمرات دائمة لاستبقاء محاسن الكُتاب واستبعاد مساوئه ووضع سياسة جديدة لربط الأجيال الناشئة بأصولها وقيمها...

بقيت في الكُتاب إلى سن العاشرة، فأتَممت حفظ الكتاب العزيز، وعرفت مبادئ الحساب، وشيئاً قليلاً من قواعد الإملاء، ورأى أبي أن يقدم على مرحلة تعد عصبية بالنسبة له، لكنها مهمة بالنسبة لي!

التعليم الابتدائي

يجب أن يلحقني بالمعهد الأزهري المخصص في هذا العصر لمحافظة البحيرة، وكان ذلك المعهد في مدينة الإسكندرية...

وطفل في العاشرة من عمره لا يقدر أن يعيش وحده، لا بد إذن أن تنتقل الأسرة معه، فباع دكانه الذي يرتزق منه، واشترى في الإسكندرية مكتبة بحي "كرموز" كانت تبيع الأوراق والكراريس، والروايات المترجمة، والكتب المدرسية والعلمية، والقصص الشعبية، والأسفار الدينية المختلفة.

ونقل الأسرة التي أصبحت تضم معي شخصين آخرين غير من ماتوا واستقبل مرحلة شاقة من مراحل السعي واللغوب!

لم أكن يومئذ مغارم هذا التحول من القرية الهادئة إلى المدينة المائجة، ويظهر أن أبي واجه أزمات وضوائق فلم ينهزم، وخفّف عنه آلام الحياة أني نجحت في امتحان القبول، الذي عقدته مشيخة معهد الإسكندرية الديني، وكان الناجحون نحو مائتي طالب، كُلّفوا بارتداء العمامة والجبة المقررة.

ويظهر أن منظري وأنا في هذه السن الصغيرة كان مثيراً للضحك! مما جعلني أتنكر لهذا الزي المفروض أمداً طويلاً...

أصبحت الشيخ محمد وأنا لم أبلغ الحلم! كنت أحب اللعب ولكن كيف يلعب شيخ؟ وكنت كثير الضحك وجزائي على ذلك طول الزجر والتوبيخ...

وتطلعت إلى المكتبة التي نرتزق منها وكنت منهوماً بالقراءة، فتركني أبي أقرأ، وإن كان قد لاحظ في أسف أني آبى القراءة في الكتب الدينية، وأوثر

مطالعة الروايات الأجنبية، وربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هو من كتب...

عرفت بعد ما كبرت أن هذه الكتب مليئة بالأحاديث الموضوعة والواهية والخرافات العلمية، ولكن الناس كانوا مقبلين عليها، مثل: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، والروض الفائق في الوعظ والرقائق، وتنبيه الغافلين، وقصص الأنبياء، والخمرة الإلهية، والفتوحات المكية...إلخ.

لقد كانت الثقافة الإسلامية –وما زالت- حافلة بالسموم والمخدرات، والحاجة ماسة إلى غربلتها ونفي الأقذاء عنها.

دخلت المرحلة الابتدائية من التعليم الأزهري مع بدايات الحادية عشر من عمري، وكان ذلك عام 1928 للميلاد، وأشعر الآن أن العقد الأول من حياتي تضمن خيراً كثيراً، يكفي أني حفظت فيه القرآن، و يأت لدراسة يصبو إليها الكثيرون.

وكان بطل هذه المرحلة أبا وهب ابنه لله على حد التعبير الشائع! وباع ما يملك ليصلني بدراسة تخدم الإسلام، وكان الأزهر يومئذ حصن الدين واللغة، بل كان موقفه من الاحتلال الإنجليزي صورة لموقفه من الاحتلال الفرنسوي، كان قذى في عيون المستعمرين وكهفا للأحرار وا اهدين.

تعليم ديني ومدني

دخلت معهد الإسكندرية الديني لأقضي فيه تسع سنين من أغلى أيام العمر، كانت الدراسة وفق نظام اليوم الكامل تبدأ صباحاً وتنتهي في الأصيل، وهي دراسة حسنة لا يجوز وصفها بأ ا دينية خالصة، فإن العلوم المدنية كانت لها أنصبة محترمة، ولم يكن مستوانا فيها دون مستوى أندادنا من طلاب التعليم العام، إلا في اللغات الأجنبية فقد حرمنا منها، وكنا نستطيع –لو قررت علينا- أن ننجح فيها...

والمنهج الذي ارتبطنا به كان من وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي، وهو من مدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية، ولذلك لم يبق طويلاً حتى عصف القصر الملكي به، وأتى بالشيخ الأحمدي الظواهري.

وقد نفذ الشيخ الجديد برنامج سلفه بدقة، وأعتقد أن هذه الفترة من أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر، لأن دراسة الطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة، والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي

والعالمي، ودراسة جغرافية العالم كله... إن هذا كله يصقل فكر الطالب ويعينه على تكوين حكم صائب، بل إن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا ـذه المعرفة...

وقد رأيت ناساً من المشتغلين بالدين وعلومه، قرؤوا بعض المتون والمؤلفات القديمة، ثم أخذوا باسم الإسلام يكذبون غزو الفضاء والوصول إلى القمر، بل يكذبون كروية الأرض ودورا ـا، ولهم في هذا تبجح منكر!

ذلك مبلغهم من العلم!

وكانت الدراسة في معهدنا نصف داخلية، أُعِدت غرف فسيحة للنوم، ويصرف للطالب نحو ثلاثين قرشاً في الشهر يستعين ـا على طعامه اليومي. وقد نفعني هذا أكبر النفع، عندما اضطربت أحوال أبي الاقتصادية، وقارب الإفلاس، واضطر بعد أربع سنين أن يعود إلى القرية من حيث جاء...

وثلاثون قرشاً ليست يوم ذاك شيئاً تافها، فإن القرش الواحد كان يشتري عشر بيضات تساوي في عصرنا الآن مائة وخمسين قرشاً...

وهذا الإنفاق كان من أوقاف المسلمين!

لقد عرفت سر حرص الاستعمار على إلغاء الوقف الخيري، وترك جهات البر لا مورد لها، ولأدع هذا الحديث الآن إلى وصف حياتي في المعهد...

إنني منذ نعومة أظافري أهتم بالأحوال العامة، وأكترث للمبادئ التي يعتمد عليها الحكم، وأتعشق الحرية والعزة، وأكاد أذوب إذا تورطت فيما يعاب، وأصادق بإخلاص، وأعادي الخصوم بنـزاهة، وأتطلع إلى الصدارة وأبذل ثمنها بطيب نفس!

اضطرابات سياسية

ولما كنت يافعاً تولّى إسماعيل صدقي باشا الحكم، فألغى الدستور القائم، وجاء بدستور آخر، وقبل ذلك كان محمد محمود باشا قد عطل الدستور مؤقتاً ومهد للضربة القادمة...

وكانت الأمة كلها ضد هذه التصرفات، وترى أن القصر وأحزابه يعملون لمصلحة إنجلترا ضد جمهرة الشعب المصري، وكان الطلاب المصريون يقودون حركة تمرد لا آخر لها... فلم يكن عجباً أن يشارك معهدنا في هذه الثورات، ولم يكن مستغرباً أن أكون بين قاد ـا.

وقد دفعت ثمن ذلك غاليا، قُدت إحدى المظاهرات العنيفة، وحقّق معي ثم أفرجت النيابة عني بكفالة مالية قدرها جنيهان، دفعها أبي وهو يلهث من الإعياء. ومضت القضية في طريقها العتيد، وما كنت أدري ما يفعل بي لولا أن قانوناً بالعفو العام شملها فيما شمل من أمثالها، ونجوت من السجن.

وقُدت أخرى داخل المعهد، وبعد التحقيق رئي فصلي سنة من الدراسة، أو بعبارة أخرى رئي منعي من دخول امتحان آخر العام، وكنت في السنة الثانية الثانوية، فعز علي أن أتخلف سنة عن زملائي فتركت الدراسة ائياً وانفصلت من المعهد، وقلت: أتقدم لامتحان "الشهادة الثانوية –القسم الأول" من الخارج.

وكانت مغامرة لا يقدم عليها أحد! ورأيت أبي –رحمه الله- يكاد يقتله الحزن لخيبة أمله في مستقبلي، وفي الرؤيا التي سيطرت عليه.

عقبات

غير أن علّة فادحة دهمتني سقطت بعدها طريح الفراش ثلاثة شهور، وانفتحت في جسدي عدة خراجات قاتلة، وكنت خلال هذه الشهور في عالم آخر، واتجهت الظنون إلى أني مائت لا محالة، وترقب أهل القرية بين الحين والحين نعيي! وعلمت بعد ما دخلت في مرحلة الشفاء أن تموين البيت كله بيع في تمريضي! وأن الأب الجلد المؤمن لم يدخر وسعاً في علاجي لأصح، ماذا أفعل؟ ضت من هذا المرض جلداً على عظم، وأرسلت لأصدقائي في المعهد أن يبعثوا إلي بالكراسات التي يكتبون فيها مسائل الرياضة، وبعض الكتب المقررة، وكانوا عند حسن الظن، فأنجدوني بما يعينني على المذاكرة...

كان علي أن أستعد للامتحان في نحو عشرين علما، هي المقررات الرسمية للسنوات الأولى والثانية والثالثة الثانوية، وذلك وفق ما يقضي به قانون الذين يمتحنون من منازلهم!

كان زملائي يحضرون في معمل الطبيعة والكيمياء، وكانوا يسمعون المدرس وهو يشرح الجبر والحساب والهندسة، أما أنا فكنت ممدداً على عيدان الذرة الجافة فوق سطح دارنا، أقرأ وأعاني وأستعين بالله!

إن حالتي في المعهد كانت عادية، كنت سباقاً في علوم اللغة والأدب فقط، أما في الفقه والتفسير وغيرهما فقد كان نفوري شديداً من كتب نور الإيضاح،

ومتن القدوري، ومجمع الأ ر على ملتقى الأبحر، التي كانت تقدم لنا الفقه الحنفين كما كنت ضائقاً بتفسير النسفي وأبي السعود وغيرهما...

لا بد مما ليس منه بد! وبعد عام من فصلي ذهبت مرة أخرى إلى المعهد متقدماً من الخارج في امتحان صعب، وكان زملائي يرثون لحالي، ولكنهم لا يحبون أن يجرحوا كبريائي، فيسكتون مشفقين...

لا أدري كيف أديت الامتحان دوء! وكرهت أن أعود إلى أبي أنتظر النتيجة في جواره! وعشت في مساكن المعهد حتى تم إعلان النتيجة، وكانت المفاجأة: نجحت في هذا الامتحان الصعب، بل كنت من الأوائل في القطر كله والأول في معهد الإسكندرية...

وأحسست داخل نفسي أن هذه ليست مهارتي، بل كانت دعوات أبي المؤمن المتوكل الصبور!

في المرحلة الثانوية

واستأنفت الدراسة مع زملائي ملتحقاً بالسنة الرابعة، فلم يضع من عمري ما كان مفروضاً أن يضيع، وعندما راجعت نفسي لم أكن أشعر بأني أخطأت. لقد أديت واجبي، وانسقت مع عاطفة شريفة، إنني كنت أحارب الاستبداد، وأخدم أمتي وبلادي! بيد أن ذلك الشعور كان يصحبه شعور آخر بالألم الفادح الذي نالني ونال أسرتي معي، وانضم إلى ذلك إدراك بأني كنت غارقاً حتماً لولا القد الذي حنا علينا وانتشلني من اللجة!

نعم لقد مرت بي لحظات استوحشت فيه من كل شيء، واستبان لي عجز الخلائق أجمعين، ولم يأخذ بيدي إلا الواحد القهار.

وازدادت أزمات أبي، فأخذت أدرس لبعض الأطفال نظير أجر تافه، وأحتال على البقاء في المعهد بما أتكسبه من قريشات قليلة... حتى أحرزت الشهادة الثانوية الأخيرة.

إن هذه الشهادة كانت تمثل آخر تطبيق للنظام الإصلاحي الذي وضعه رجل تتلمذ على الشيخ محمد عبده، وكانت فرقتنا آخر من حصل على هذا النوع من الشهادات، وعدلت البرامج بعد ذلك تعديلاً حذف كثيراً من المواد الرياضية والعلمية والإنسانية العظيمة النفق.

وكنا نتحدث فيما بيننا أن الشيخ المراغي سئم تكاليف الجهاد العلمي وآثر الراحة بالتعاون مع الأحزاب المتعاونة مع القصر، وترك الأزهر حبله على غاربه، فأخذ التعليم الديني ينحدر رويداً رويداً...

لقد استفدت كثيراً من دراستي في المعهد بين عامي (1928،1937) وأذكر أن المشرفين على الإدارة حاربوا الأمراض المتواطنة الفاشية في أجسامنا، فبعد أن أظهر الكشف الطبي أنني مصاب بالبلهارسيا، تعهدني المسؤولون بالعلاج أربع سنين معاقبة، أخذت خلالها نحو خمسين حقنة حتى انقطع دابر المرض، وكنت قبلها أحسب أن أبناء آدم يبولون دماً آخر ما يقضون حاجا م...

تساؤل

وقد أصبنا مقادير جيدة من علوم اللغة والدين.

ولا أدري لماذا كل هذا الحرص على الكتب القديمة؟ إن مؤلفي النحو قديماً كانوا مشغولين بالاستدلال على قواعدهم من شواهد الشعر والنثر والقرآن الكريم، كانت القضية تذكر ثم يساق البرهان بعدها...

لقد ثبتت هذه القضايا واستقرت، وبقي أن تدخل مرحلة التطبيق في كل نواحي الحياة... فإذا كان من الضروري أن يدرس هذا العهد ففي مرحلة التخصص.

أما قبل ذلك فكان يجب أن تدرس كتب النحو والبلاغة على الطريقة التي قدمها الأديب الشاعر علي الجارم في مؤلفاته القيمة.

ولعل ذلك يراعى في تعليم اللغة مستقبلاً، إن لغتنا تتعرض لإهمال شديد لعله مقصود!

وفقه دورة المياه الذي يدرس للناس كافة وكأ م يعيشون في صحراء الجزيرة! إن تغييراً واسعاً طرأ على ا تمع البشري ينبغي أن يلاحظ عند درس الأحكام الفقهية، لا في النظافة وحدها بل في معاملات شتى...

كنا نحس ذلك ونحن طلاب في تلك المرحلة، مرحلة الشباب المتطلع الناشط الدؤوب...

وفي السنة الأخيرة من مقامي بالإسكندرية التقيت بالأستاذ الإمام حسن البنا، كنت جالساً في مسجد عبد الرحمن بن هرمز بحي رأس التين أقرأ وردي

القرآني، وانتظرت لأصلي المغرب وأخرج، فإذا رجل يقوم بعد الصلاة يلقي درساً جامعاً يتسم بالوضوح والتأثير والصدق.

قررت من يومها أن أتبعه، وأن أسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام والمسلمين...

التحقت بكلية أصول الدين من كليات جامع الأزهر، وبدأت الدراسة عام 1938، ونظرت إلى زملائي القادمين من معهد الإسكندرية فوجدت جلّهم من النا بين ذوي المواهب الحسنة، لكن عددهم قليل! لقد كنا عندما التحقنا بالمعهد قريباً من مائتين، فلما دخلنا امتحان الثانوية العامة كنا نحو السبعين طالبا... توزعتنا الكليات الأزهرية الثلاث: اللغة العربية، والشريعة الإسلامية، وأصول الدين، والتحق آخرون بدار العلوم.

وتخلف عدد كبير في قراهم لم يستكملوا دراستهم لأسباب كثيرة. وجدير بالذكر أن هؤلاء الذين لم تصل م حظوظهم إلى اية التعليم الأزهري كانوا يحيون في القرى شبه شيوخ، وكانوا يدرسون للناس علوم الفقه والحديث والتفسير، ويربطون سواد الأمة بدينها وتراثها...!

ولا بد أن الاستعمار العالمي يدرك خطورة هذا التعليم الديني الشعبي ودوره الممتد في بقاء الروح الإسلامية، ومن ثم فهو يكره بقاءه ويبيت له أسوأ التدبير!...

وبدأنا نحن نواجه هذه المرحلة من حياتنا العلمية، مع زملائنا القادمين من مدائن القطر كله.

حادث طريف

وجمعنا عميد الكلية في مسجد "الخازندارة" في حفل عام للتعارف واستقبال العام الجديد، وتوثيق العرى بين الطلاب وهيئة التدريس، وحدث في هذا الحفل أمر ذو بال، فقد كان من بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية، وجرى على لسانه ثناء حار على ا تمع الفرنسي، وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام، وأهاب بنا أن نتمسك ذه الخلال!.

وغاظني ما سمعت، فانتفضت قائماً أصيح: أي خلال يا أستاذ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية، اللص عندنا يسرق آنية من بيت، أو حافظة من جيب، أو ثمرة من حقل، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس، ويختلسون العقائد

من القول! أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين عل إخواننا في أقطار المغرب –وكانت كلها محتلة-؟ ولماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم؟

وانطلقت بطريقة همجية اضطرب ا نظام الحفل، ثم أمسك بي بعض المشرفين وقادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد ا يد اللبان فرأى شاباً في العشرين أفقده الحماس وعيه، فقال لي بصوت وديع: أقعد يا ولد! فجلست أمامه، وكلف شيخاً آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أ م متعاطفون معي، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف، وأ م يؤيدون موقفي...!

لم يعاقبني عميد الكلية مكتفياً بإسداء بعض النصائح، وصرفني بعد انتهاء الحفل...

والغريب أن علاقتي بالأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى توطدت، وكنت فيما بعد أثيراً عنده، وطيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه وإرشاده، وبعد التخرج نمت بيننا صداقة عميقة وتعاون في خدمة الدعوة الإسلامية...

دراسة الإسلام في أوربا

والواقع أن هناك شيوخاً أخذوا الدكتوراه من جامعات أوربة بجدارة، وعادوا إلى بلادهم يخدمون دينهم بقوة، ويسعينون بالمزيد الذي نالوه على تحسين مواقف الأزهريين في مجال الكفاح العلمي.

وهناك شيوخ ذهبوا إلى أوربا لا يردون يد لامس! أخذوا شهادات مزورة في النحو واللغة والفقه والتاريخ! وعادوا بعدما فقدوا حصيلتهم الأولى. ويخيل إلي أن رسائل كتبت لهم لا يدرون هم خباياها! وقد ناقشت بعضهم في شيء مما كتب -لأنه ضد الإسلام- فاستغربه، وفوجئ به، فأدركت أنه حمل الدكتوراه سفاحا...! ومن المحزن أن نفراً من هؤلاء قاد الأزهر في تاريخه الأخير...

الدراسة الأزهرية القديمة

لنعد إلى كليتنا التي التحقنا ا. إن المناهج الموضوعة تكفي وتشفي، ولو وجدت الأستاذ الكفء لخرجت دعاة ومدرسين من طراز رفيع... إن الطريقة التي تعلمنا ا تفتق الأذهان، وتحرر المراد، وتضبط المفاهيم...

ومع أن المذاهب الفقهية الثلاثة كانت منتشرة بين الطلاب والمدرسين بنسب متقاربة، إلا أن ذلك لم يكن له أي أثر في تحزب أو انقسام، بل كانت الدعابة أحياناً تصبغ البحوث العلمية.

كذلك عرض تفكير السلف والخلف في الأسماء والصفات! كان يتم بحياد ورحابة صدر! وتضمنت مناهج الكلية إلى جانب العلوم التقليدية دراسة موسعة للفلسفة في شتى العصور، وتوسعاً آخر في علم النفس والأخلاق... إلخ.

وأرى أن علماء المسلمين يجب أن يتبحروا في هذه المعارف كلها، وأن تكون لديهم قدرة نفسية على فهم المتناقضات، والإحاطة بأبعادها، فيفهم أحدهم الشيوعية بنفس القدرة الذهنية التي يفهم ا الصوفية، بنفس القدرة التي يفهم ا حقائق الدين...

ومع رحابة الفكر تكون رحابة الصدر، وإدراك وجهات النظر الأخرى، بغير تضخيم ولا وين، وينتهي الأمر عندئذ بألا يثور المرء إلا لشؤون ذات بال من الأمهات والأصول.

إن نسيان هذه الحقيقة أحدث فتوقاً جساماً في تاريخنا العلمي...!

لقد رأيت المراسيم السلطانية التي صدرت ضد ابن تيمية، فوجد ا تأمر بحبسه مرتين:

الأولى: لفتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، يقع واحداً.

والأخرى: لأنه كره زيارة قبر النبي ﷺ، للتبرك، ولما يذكر العامة أحياناً من طلب استشفاع وتضرع إلى الله.

وما كان الأمر ليتطلب الحبس في الأولى ولا في الآخرة، إذ الخطأ والصواب هنا في أمور فرعية، ليس السجن هو الذي يبت فيها...

والتهويل في هذه القضايا صرف للجماهير عن الفساد السياسي، وشغلهم بما يربح الحاكمين!

ولا زلت أرى أن فقه الفروع لا ينبغي أن يقسم الأمة شيعاً، ولا أن يصرفها عن أركان الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، بله الأركان الأخرى...

ومن ثم فقد أعجبتني الدراسة في الأزهر -قبل أن يطيح-، وقلت: لو مضى هذا التيار إلى مداه فسيكسب المسلمون الكثير...

صلتنا بالمدرسين

وكان يدرس في الكلية عدد من الرجال الراسخين أمثال الشيخ محمد أبي زهرة، والدكتور محمد أحمد الغمراوي، والشيخ أمين الخولي، والدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبد الوهاب خلاف، والشيخ محمد الخضر حسني، الدكتور محمد البهي، والدكتور محمد عبد الله ماضي، والعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ ا اهد الغيور محمد الأودن... وآخرون.

إلا أننا لاحظنا آسفين أن مستقبلنا في مهاب الرياح، وأن الخريجين يلقون مصيرهم في الشوارع، وأن الذين يدرسون لنا لا يكترثون لمصيرنا، وأن الأزهر كله يواجه أياماً عصيبة...

وأخذ عدد من أصحاب الأسماء اللاّمعة يختفي، وعكف الباقون من الشيوخ -وهم عشرات- يؤدون المحاصرات التي كُلّفوا به وينصرفون إلى بيو م على عجل...

وأحسسنا أنه ليس لنا آباء يحنون علينا أو يهتمون بقضايانا، وأن علينا أن نمهد لمستقبلنا بأنفسنا وإلا ضعنا.

والحق أننا كرهنا شيوخنا على اختلاف مناصبهم الإدارية. كان الدكتور طه حسن في كلية الآداب يدعو طلبته إلى حفل شاي ويسمر معهم، ويظل مع الخريج حتى يعرف أين استقر به المقام، أما نحن فالعلاقة بيننا وبين شيوخنا رسمية.

ولهذه الجفوة جذورٌ قديمة، فهل تعجب إذا علمت أن الطلاب ذهبوا محنقين إلى مكتب الشيخ الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر، فحطّموه بالعصي وأحسبهم لو وجدوا الشيخ لتركوه كومة عظام...

ثم جاء الشيخ المراغي وارتبطت بعودته آمال عراض سرعان ما تبخرت! ولم يكن خيراً من سابقه!

إن علماء الدين الذين يحصرون واجبهم في كلمات تؤدي بقصور أو وفاء، ثم يقبعون في بيو م بعد ذلك، لا ينصرون حقاً ولا ينشئون جيلاً...

وقد رأيت شيوخ طرق يغرسون الخرافة ويحرسو ا حتى تنمو، وعد م في ذلك قدر من البِشرِ والحفاوة والكرم، أما من لديهم فقه صحيح فقد أضاعوه بالجلافة والكزازة والجبن عن لقاء الناس.

وعلى أية حال فقد مضينا في تلقي الدروس واجتياز الامتحانات، غير أن الأحوال السياسية في مصر يومئذ كانت تموج موجاً، فالصراع شديد بين القصر الملكي والأحزاب التي تؤيده من جهة والوفد المصري الذي يمثل الكثرة الكاثرة من الجماهير، من جهة أخرى.

وظهر تيار آخر لم يكترث به المسؤولون أول الأمر هو تيار الأخوان المسلمين. لقد بدأ هين الشأن، لا يثير قلقا، ولا يخيف أحدا، ثم تضاعف مائة مرة خلال بضع سنين لسببين:

أولهما: الطبيعة الدينية للشعب المصري وحنينه المثالي للإسلام، وإلقاؤه مقاليده كلها لمن يثق في صلاحه وتقواه...

الثاني: عبقرية حسن البنا الذي أوتي موهبة في البيان والشرح والتجميع والتنسيق جعلته ينفذ إلى غرضه من خلال أصعب العوائق...

وأعانه على ذلك أن الغزو الثقافي كان قد كشف عن مقاصده ، فأدركت الجماهير أنه ستخسر دينها ودنياها إذا بقيت مستكينة له، وماذا بعد أن ينقَدَ القرآن الكرم في كلية الآداب بالقاهرة، ويهان الرسول الكريم في تمثيلية تعرض بدار الأوبرا؟...

كان مستحيلاً أن تبقى كليتنا بعيدة عن هذه الأحوال...

كان سهلاً إنشاء شعبة لجماعة الإخوان المسلمين بكليتنا، وقد انتظمت من عناصر قوية اليقين، زاكية الخلق، راغبة في نصرة الإسلام وإعلاء رايته، وكنت الرجل الثالث تقريباً في هذا التشكيل، غير أني كنت أتردد على المركز العام يومياً تقريباً، لما كان في "العتبة الخضراء"، ثم لما انتقل إلى "الحلمية الجديدة".

ولم يخف على فضيلة المرشد العام هذا الدأب الذي يمده روح ناشط؛ والحق أن عددا من الزملاء في كلية أصول الدين برزوا في ميدان الدعوة، وكانوا أنجح مني في ميدان الخطابة والتأثير العام...

وقد أحسن المركز العام استغلال هذه الطاقات الشابة النقية، فنظم لها رحلات في الأقاليم، وهيأ لها ميادين العمل في مختلف الشعب والمساجد...

رسالة من المرشد

وبدأ العمل المستمر ينمي ملكاتنا، ويصقُل معادننا، وفي أثناء الدراسة وقع لي مع الأستاذ المرشد شيء سار، كان له وقع عظيم في حياتي...

كتبت يوماً مقالاً، وأرسلته إلى مجلة الإخوان، وارتقبت نشره، فلم ينشر، وساء ظني بنفسي فتركت الكتابة...

وبغتة تلقيت بالبريد رسالة من المرشد العام، عرفت فيما بعد نبأها... لقد دخل إدارة ا لمة وساءل الأستاذ صالح عشماوي رئيس التحرير: لماذا لا أقرأ للإخوان مقالات جيدة؟ وما السبب في ضعف ا لمة؟ ومد يده -غير متعمد- إلى ملف المحفوظات المنتفخ بالمقالات التي رئي عدم نشرها، ووقع بصره على مقالي! وغضب غضباً شديداً لإهماله، وأمر بجعله "افتتاحية" العدد المقبل.

وبعث إلى برسالة شخصية هذا نصها: "أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته –قرأت مقالك "الإخوان المسلمون والأحزاب" فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين، هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون. اكتب دائماً وروح القدس يؤيدك والله معك. أخوك حسن البنا، المرشد العام للإخوان المسلمين".

وأصبحت بعد هذه الرسالة من كتاب الجماعة الأوائل، واستبشرت بأن الله سيلهمني الرشد فيما أكتب!

طبائع بيئات

كنت أتحدث مع شيخي الجليل محمد عرفة –رحمه الله- وكان عضواً في جماعة كبار العلماء، فقال لي: هناك بيئات خاذلة مثبطة، وهناك بيئات دافعة منشطة! تأمل في قول الشافعي: الليث أفقه من مالك، ولكن قومه لم ينهضوا به!

إن أهل المدينة عظموا مالكاً ودفعوه إلى الصدارة، أما المصريون فأهملوا الليث حتى نسي...

قال: والبيئة الأزهرية من النوع الأخير! ما تنهض لواحد من بينها، إلا إذا فرضته عليهم قوى من الخارج.

ومع سير الأحداث واختلاف الأيام شعرت بأن الشيخ محمد عرفة كان على حق في الحكم الذي أصدره، وهو حكم على الأعم الأغلب.

ويوجد في كل أوان من يلتزم بالإنصاف ويكره الحيف: وِمن قَومِ موسى أُمةٌ يهدونَ ِبالْحق وِبِهِ يعدِلُونَ (الأعراف:159).

طلب مرفوض

أقول ذلك متعجلاً قصة وقعت لي بعد التخرج بسنين، أسوقها الآن للموازنة بين مسلك ومسلك، أو بين إنصاف وإجحاف! في الخمسينيات كان في مصر ما يسمى بالمؤتمر الإسلامي، يتولى أمانته العامة القائمقام أنور السادات. وحدث أن وجه المؤتمر دعوة إلى الكتاب والمفكرين المسلمين ليقوموا بعمل ما في خدمة الرسالة الإسلامية، وضم المدعوين اجتماع تمهيدي كان من بين رجاله لأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى، الذي نظر فيمن حوله فلم يرني! وكان لي يومئذ بضعة عشر مؤلفاً في خدمة الدعوة والدفاع عنها...

وكان الجمع يضم عدداً من علماء الأزهر، وكبار الأدباء... وما كان الشمل يلتئم والعمل يبدأ حتى قال الدكتور محمد يوسف موسى للسادات –أمين المؤتمر- بصوت مسموع: "أرى أن يكون معنا في تحقيق أهدافنا رجل ليس بيننا الآن، الشيخ محمد الغزالي!"

قال الدكتور الفاضل: "وما كدت أنتهي من قولي حتى خيم على ا لمس صمت شامل، طال فترة حتى أحسست بالحرج، وما أغراني بالكلام إلا أن هناك أزهريين كثيرين، اعتقدت أ م سوف يؤيدونني! لقد لاذوا بالسكوت جميعا!

وما أنقذني من الخجل إلا صوت الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو ينطلق أجش على عادته: نعم أنا قرأت لهذا الشاب، وينبغي أن يكون معنا!"

وعندئذ تحرك جمهور المشايخ يثني علي ويؤيد وجودي...!

ولم توجه إليّ دعوة، ولم أعرف ما تم بعد ذلك، وأظن الأستاذ العقاد ألف كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه إجابة لرغبة المؤتمر...

ومن المفيد أن أذكر أنه لا علاقة بيني وبين العقاد ولم أحضر للكاتب العملاق ندوة أو تربطني به صحبة، وإن كنت من أشد الناس إعظاماً لأدبه وعلمه.

إن تشجيع حسن البنا لي، وإقبال الإخوان علي كانا من أقوى الأسباب في عكوفي على التأليف؛ مع تجهم الحكام لي وضيقهم بي... واستطعت –وأنا طالب- أن أجمع بين مواصلة التعليم ونشر الدعوة في العاصمة والأقاليم...

ولا ريب أن الخطابة الدينية ارتقت في مصر، وفي أقطار أخرى مع نماء جماعة الإخوان، وتحولت الكلمات الميتة التي كانت تسع من المنابر إلى كلمات

تنز بالحياة والحماس، ويدرس فيها التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، وتتأكد فيها رغبة الإسلام في استعادة أمجاده واستئناف سيره...

وسمع الطعن صريحاً في القوانين الوضعية والتقاليد الأجنبية، كما طُلبت العودة صريحة إلى تعاليم الإسلام في كل شيء.

وفي هذه الآونة أنشئت ـفرق العمل، أو ما سمي بعد ذلك بالنظام الخاص، وأساس تكوينه مواجهة الوضع في فلسطين، بعد عربدة العصابات اليهودية فيها، وإتمام تحرير مصر بالسلاح إذا لم يخرج الإنجليز طوعا...

بعض صفاتي

وكتب اسمي بين عدد كبير من المرشحين للتدريب... وعرضت قوائم الأسماء على الأستاذ المرشد، فلم يوافق على تجنيدي! وقال له المسؤول عني، هذا رجل مخلص! فقال له: أعرف ذلك من قبلك، لكن هذا نظام عسكري يتطلب طاعة مطلقة...

والشيخ الغزلي يعترض على ما لا يروقه من أوامر، ويقول لك: ما السبب؟ وأين الدليل؟ ثم هو لا يحسن الكتمان، إذا سخط بدا سخطه على وجهه، والسرية المطلقة أساس هذا النظام...!

دعوه يكتب ويخطب وينشر الدعوة الإسلامية في الميدان الذي يصلح له ولا يصلح لغيره...

وغضبت عندما بلغني هذا الحوار، وبقيت كسير الخاطر أمداً، وإن كنت أؤدي عملي برتابة ووفاء...

وجاءني يوماً الأستاذ محمد فريد عبد الخالق، وهو من أنضج رجال المركز العام، جاءني يزورني في البيت، ورأى على الجدار شيئاً أثار انتباهه، قال: ما هذا؟ وأمسك بإطار ساذج، فيه صورتي بملابس التدريب العسكرية مثبتة في فراغ كتاب موجه لي من الأستاذ المرشد العام، الكتاب الذي أثنى علي فيه ودعا لي بخير!

قلت: هذا أثر أعتز به! قال: أتحب المرشد إلى هذا الحد؟ وأجبت ببراءة: نعم!...

وعرفت فيما بعد أن ناساً كانت تشكك في ولائي للدعوة وقائدها، لأني كنت في مناسبات وجلسات مختلفة أعترض أو أرفض ما لا أسيغ...

على أن حسن البنا كان أذكى وأكبر من أن تغيره تعليقات المبغضين، بيد أن ذلك جعلني أحاسب نفسي فيما أقول وأنقد، وجعلني أحذر غَدرات الناس ومفتريا م...

ترى هل نجحت في تغيير طبعي؟ ليس كثيراً على أية حال...!

لقد مشيت وراء الرجل الذي عرفته في طريق الحق وعبادة الله، لم يكن حسن البنا محترف سياسة، ولا صاحب دهاء وحيل، وإنما كان ربانياً عامر القلب بذكر الله، وبجمع الشباب والشيب في الصلوات الخاشعة والتلاوة الباكية، والخطابة التي ترفع مستمعيها إلى مستوى رفيع من الروحانية والتجرد وحب العلم لله والذود عن دينه...

وكانت هذه المشاعر الجياشة تنقص أساتذتنا في كلية أصول الدين، إذا كانت الدراسة نظرية شاحبة، تجري على الألسنة ولا تتحرك ا القلوب!

بل أرى أنه من الناحية العلمية بحاجة إلى إضافات مفيدة، وإلى بتر أو إيجاز موضوعات أثرية لا قيمة لها، وربما احتاج الأمر إلى إعادة تشكيلها في نظام داخلي يمتد إشراقه على اليقظة والمنام والعمل والاستجمام.

لا أدري كيف حصلت على شهادتي العالية 1941؟ إنه لولا عون الله ما تم ذلك!

ولم أكن متقدماً في ترتيب الناجحين، فهل أحزنني أني لم اكن من العشرة الأوائل؟ كلا! إنني ما تأخرت عن بلادة أو تقصير، كانت الأحوال التي تكتنفني رديئة، لا أذكر أنني ملكت كتاباً طول السنوات الأربع، وأنى لي ذلك؟

وعندما عرض علينا شرح النووي لصحيح مسلم بنصف جنيه مقسطاً على عشرة شهور؛ هززت رأسي بأساً، وقلت: ما معي يكفي للأطعمة والملابس...! واختفيت دون أي يشعر بي أحد!

عذر مقبول

واضطرني هذا للإنصات بعمق إلى شروح الأساتذة، وكنت استحضرت من دكان أبي بعض الأوراق التي تلف ا السلع، لأدون فيها ما أرى ضرورة تدوينه.

وربما جالست بعض الزملاء الذين يملكون كتباً لأتثبت من حكم أو أستذكر ما نسيت! وكم نسيت من قضايا وحقائق!

وأورثني هذا خلالاً أصبحت طبعاً ثانيا؛ صرت كالمكفوفين الذين يعتمدون كثيراً على ذاكرتهم.! وتعلمت الاقتصاد في الأوراق، فليس هناك مبيضة ومسودة، هي ورقة واحدة تلك التي تكتب، والتي ستقدم للمطبعة فيما بعد وهذه الورقة لا يترك فيها فراغ، ينبغي أن تستغل من أولها إلى آخرها...!

حتى بعد أن أفاء الله وبارك، بقيت هذه الخلال تغلبني...!

ووقعت حادثة أريد إثباتها لما فيها من عبرة! جاءتني "برقية" من البلد تطلب حضوري فوراً، فأدركت أن خطراً داهم الأسرة، وسافرت وأنا مشتت الذهن، واسودت أفكاري عندما رأيت دكان أبي –عن بعد- وهو مغلق.

دعوة مستجابة

تحركت قدماي بلا وعي إلى البيت، ورأيت أبي يصرخ من "مغص كلوي" أصيب به، والأولاد من حوله حيارى، وقد أعطاه الطبيب بعض الأقراص المخدرة، ولكن الآلام كانت أربى وأقسى، وقالوا: لا بد من جراحة تستخرج ما في الكلى من حصيات...

وفتحت الدكان ووقفت مكان أبي أعمل، وأنا خبير بذلك لأني في أثناء الإجازة الصيفية أساعده، ومضت عدة أيام ونحن نتروى ونتدارس ما نصنع... أجور الأطباء فوق الطاقة، ولو أمكن إعدادها فإن الجراحة يومئذ غير مأمونة العقبى، وقد مات عم لي في جراحة مشابهة... ماذا نصنع؟

وحاصرني غم ثقيل، وأخذت شخوص الأشياء تتقلص أمام عيني، وثبتت بصيرتي على شيء واحد، الله وحسب! وكأنما كنت أكلم الناس وأنا حالم...

وجاء رجل يشتري بعض الأغذية، ولما قدمتها له قال لي بصوت ضارع: ليس معي ثمن الآن، وأقسم بالله أنه صادق، وأنه غدا يجيء بالثمن!

ووقر في نفسي أن الرجل محرج فقلت له: خذ البضاعة وهي مني إليك... وانصرف الرجل غير مصدق ما سمع...!

أما أنا فذهبت إلى ركن في الدكان، وقلت: يا رب، نبيك قال لنا داووا مرضاكم بالصدقة! فأسألك أن تشفي أبي بهذه الصدقة...!

وجلست على الأرض أبكي، وبعد ساعة سمعت من يناديني من البيت –وكان قريباً- فذهبت على عجل وقد طاش صوابي...

وفوجئت بأبي يلقاني وراء الباب يقول: نزلت هذه الحصاة مني –وكانت حصاة أكبر قليلاً من حبة الفول- لا أدري ما حدث، لقد شفيت...!

وفي صباح اليوم التالي كنت في الكلية أحضر الدروس مع الزملاء...!

إن الذي يجيب المضطر إذا دعاه رحمني ورحم الأسرة كلها، فله الحمد...

حول منهج الدراسة

إن المناهج العلمية التي قُدمت لنا في كلية أصول الدين تكفي –مع إضافات قليلة- لتكوين مدرس ناجح وداعية موفق، غير أني أقول بتواضع إن عرض الإسلام وعلومه اليوم بالأسلوب نفسه الذي كان يعرض به في القرن السادس أو السابع غير مفهوم، ولا دلالة له على أزمة حادة في المواهب والعزائم...

ولا أدري ما يحدث الآن في الأزهر، وإنما أشكو أن علم أصول الفقه – وهو علم ثانوي في كليتنا- درس لنا بطريقة مخلّة، والقدر الذي قدم لنا من حقائقه غير كاف، ومنهج هذا العلم من ينابيعه الأولى متفاوت، وما سلكه الغزالي والآمدي غير ما سلكه الشاطبي في الموافقات، وهؤلاء لهم مسلك يخالف من وجه مسلك فقهاء الأحناف...

وهناك مع الأصول العامة قواعد فقهية نشأ عنها تباين وجهات النظر بين الشافعية والأحناف، كما أشار إلى ذلك الزنجاني.

وبديهي أن الاستبحار في هذا العلم من اختصاص كلية الشريعة، ولما كان الدعاة المسلمون يواجهون مشكلات مذهبية وفقهية فيجب أن تقدم لهم خلاصات معقولة، يتوسع بعدها الدارس كيف يشاء.

والمؤسف أنه لا الكلية الأصلية، ولا الكلية التابعة يتحقق فيها ما ينبغي، ويوشك أن يوضع هذا العلم في المتاحف!

وما يقال في علم أصول الفقه، يقال في علوم السنة، وعلم مصطلح الحديث الذي يدرس قواعد وتعاريف تحتاج إلى التطبيق الواسع، ولا تساق على هذا النحو الجاف العقيم! سمعت أستاذ المنطق يعرف علم المنطق بأنه آلة قانونية تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر! ورآني بعض الزملاء مشمئزاً، قال: ما خطبك؟ قلت: تعريف سخيف!

قال: وما التعريف الصحيح عندك؟ قلت: ماذا لو قيل: قواعد تصون العقل عن الخطأ في التفكير؟ بدل عبارة "آلة قانونية"؟

قال: إن الكتاب المقرر وهو "القطب على الشمسية" عليه شروح وحواش وتقارير كثيرة، تريد أن ندعها لاقتراحك هذا؟ دعنا من فلسفتك! وقال: آخر -يمزح وهو في الواقع جاد- هل هذا أيضاً من الدعوة الإسلامية؟

قلت: المعروف عن الداعي أن يكون لديه من كل روض زهرة! وأرى أن الدعاة الكبار قد يكونون أقدر منا لأخصائيين في فنو م الأصلية، ألا ترى أبا حامد الغزالي كتب افت الفلاسفة فكان يطر من عقله الكبير على أرسطو وجماعته، فيكتشف مواقع القصور في نظرهم والخلل في قولهم؟

إن الدعوة الإسلامية ليست ثرثرة واعظ منكم؛ يزهد في الدنيا، إ ا فكر كشاف يعمل قبل كل شيء على ميز الخبيث من الطيب والخطأ من الصواب...

وقلت -مؤثراً عدم الاشتباك- الإنسان هو العنصر الأول في كل معركة، إنه قبل أي سلاح مهما بلغ فتكه وبعد مداه...

الحق أن الأزهر يحتاج إلى تجديد ثقافي وروحاني يقوم به رجال أولو عزم...

وقد كان ذلك مطلوباً قبل ما عراه على يد الناصريين، فكيف بعد ما غاض رونقه وقاده المهازيل؟

قلت: إنني تخرجت من الكلية السنة 1941، وصحيح أن أمامي تخصصاً في الدعوة والإرشاد، أقضي فيه عامين حتى أنال "العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد"...! بيد أن شهادتي العالية تتيح لي أن أجد عملاً أرتزق منه، وكنت -على فقري- جامح الرغبة في الزواج!

البحث عن وظيفة...؟

وحصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئاً بعيد المنال، وهذا جزء من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله...

ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف "الإمامة والخطابة والتدريس" الخالية بمساجدها...

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من "العلماء العاطلين"، وكانت تحريرية وشفوية...

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة؛ بدأت بعمل مني كان طائشاً... كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت

أحفظه جيداً، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، وينتقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماض في التلاوة...

وردني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقا؟ فأنا أحفظ جيداً...!

وشتمني رئيس اللجنة -وكان الأستاذ أحمد حسين أخا الدكتور طه حسني، وهو يومئذ مفتي الأوقاف.

وجاء دور الأستاذ أمين الخولي الذي طلب مني تفسير آيات قرأ ا، وأجبت فخطأني، وذكرت رأياً آخر في التفسير فخطأني، فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف! قال: ذاك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلاً للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه، فدله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا...

فقلت بنـزق: لا جواب إلا ما قلت، وأتحدى إذا كان هناك جواب آخر!

وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فأدار ظهره معرضاً عني ومنهياً المناقشة.

ولكن سؤالاً وجه إلي من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعدد ا، فقلت اقترح أي موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت...

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات! وعينت إماماً وخطيباً ومدرساً بمسجد "عزبان" بالعتبة الخضراء، ولم يلق هذا الحظّ أحد من زملائي معي!

"الإمامة والخطابة والتدريس" هذه الوظيفة المثلثة هي التي كلفت ا ورزقت منها صدر شبابي، لقد كان عملي في مسجد محدود المساحة، لكن موقعه في قلب القاهرة، وفي سوق تزدحم بالناس سحابة النهار وزلفاً من الليل...

والمصريون شعب له حس مرهف من الناحية الدينية! عندما يجد واعظاً جاداً يدرس موضوعه، ويحسن شرحه يلتف حوله ويعمر مسجده، ومن ثم لم

يمض شهر حتى كان جزء كبير من ميدان العتبة يفرش بالحُصر، وتنقل له الخطبة بالمكبرات!

اكتشاف مهم

وأدركت بعد شهر واحد أنني جاهل، وأن حصيلتي العلمية استنفذت خلال أسابيع، وأني إذا لم أجدد نفسي، وأقع على ينابيع ثرة تمدني بالمعرفة افتضحت حتماً...

لقد كنت مغروراً بعدد من المحاضرات والدروس أجيده، وأتنقل به في أنحاء البلاد! أما الآن فأمامي منبر واحد يثوب الناس إليه من كل فج، وينبغي أن أقدم كل يوم درساً، وكل أسبوع خطبة!

إنني في هذا المسجد عدت تلميذاً مرة أخرى، وكان الكتاب الديني وغير الديني أستاذي، وكان إذا حضر عميد كلية أصول الدين في طريقه إلى مجلس الأزهر الأعلى، أحبسه لأستفيد منه حلولاً كثيرة لمشكلات علمية تعترضني...

فإذا تبرم لطول ما أحبسه أقول له في جد: أنتم أعطيتموني الشهادة على جهل، فتداركوا ما فعلتم، يضحك ويصبر!

في هذا المسجد وفيما تلاه من ميادين عمل كانت لي صفة مزدوجة، فأنا من رجال الإخوان المسلمين، وأنا من علماء الوزارة، ولم أكترث أو أشعر بحرج ما في المزج بين الصفتين: الرسمية والشعبية...

وانضم إلى ذلك أني أنتسب إلى تخصص الدعوة والإرشاد، فضممت صفة ثالثة، صفة طالب يستطيع القيادة لزملائه...

قصة مضحكة

وأحكي هنا طرفة حدثت لي أول عهدي بالإمامة، كان مدير المساجد حسن الظن بي منذ أن شارك في اختباري، فاستدعاني إلى مكتبه وكلفني بالاستعداد لصلاة الجمعة بالملك فاروق، وامرني بإعداد الخطبة المناسبة، وأفهمني أن ذلك في افتتاح مسجد بحي "المنيل"...

وفي يوم الخميس كنت بوزارة الأوقاف، وأخذ الرجل الخطبة وراجعها، وذهب ا إلى قصر عابدين فأقرت، واتصل بي من القصر تلفونياً يطلب مني الاستعداد لإلقاء الخطبة غداً! ثم قال: وللحيطة تعال إليّ في البيت نذهب إلى المسجد معاً...

وفي الصباح كنت عنده جالساً في حجرة الاستقبال أنتظر دخوله بعد ما فتح الخادم لي...

ودخل المدير ونظر إليّ فكاد يصعق، وأخذ يجمجم بكلمات لم أتبينها وهو يتميز من الغيظ! يا أستاذ تجيء للصلاة بجلالة الملك في هذه الجبة البالية وهذا الجلباب الرخيص؟

وشعرت بحرج بالغ، وتملكني الخجل، ثم غلبتني طبيعتي الضاحكة فقلت: الجبة حسنة، أما الجلباب فأنا ألبس ما ترتديه الشيوخ من نسيج براق لمّاع، ثم لا تنس أني ألقاك ذه الثياب، وأنت والملك سواء...!

فقال: الرسميات يا...!

وأخذ الرجل يفكر بسرعة ليخرج من هذه الورطة، وأرسل إلى مفتش مساجد قريب في مثل جسمي، واستعار منه ملابس أخرى فاخرة، وأكرهني على ارتدائها، وكانت أطول مني قليلاً، فعلمني كيف أحافظ على سمتي داخلها...!

وانتهت الصلاة بخير، وكان شديد القلق إلى أن انصرف صاحب الجلالة، فاقتادني إلى البيت وهو يسب الظروف التي عرفته بي! ويحمد الله أن تم الأمر بستر! وأنا أواجه هذا كله بالضحك، وأقول: أما من وسيلة للهرب ذه الملابس؟

ومع هذه الحادثة الطريفة فإن الصداقة ربطت بيني وبين المدير، وكنت أعاونه في بعض القضايا العلمية حتى مات رحمه الله...

زواج سعيد

ومع تسلمي للعمل الحكومي تم زواجي، وكان الأستاذ حسن البنا تدخل في المسألة التي بدأت معقدة، فإن والد الفتاة التي اختر ا كان يطمع في زوج أغنى مني؛ إنه من قريتنا، وإن كان موظفاً بوزارة العدل في القاهرة، وعلم أن مرتبي ستة جنيهات، أعطي أبي نصفها تقريبا...!

لكن الأستاذ المرشد أقنع الرجل بأني أفضل من غيري، والمستقبل بيد الله، وسيكون خيراً...

وتزوجت، وسألني الأستاذ المرشد: ماذا فعلت مع فلان –يعني صهري- فقلت له: دخلت بابنته! قال عاتبا: لمَ لم تدعني وتمثل بقول الشاعر وهو يبتسم:

وإذا تكون كريهة أُدعى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى جندب!

فقلت: لم تكن هناك وليمة! اكتفينا بأشربة حلوة، تناولها بعض الزملاء، وأوسع لي الرجل غرفة في بيته والحمد لله... فدعا لنا بالبركة...!

... و اية!

لقد عشت مع زوجتي ثلاثين سنة كأسعد زوجين في الدنيا، وكافأ ا على رضاها بفقري، فأسكنتها الغرف، وأذقتها الترف، وجعلتها تدوس الحرير والذهب! وأنجبت منها تسعاً من الولد، استودعت ربي اثنين، وبقي لي سبع من الإناث والذكور، ثم فارقت الدنيا على غير انتظار، فبكيتها من أعماقي، وتمثلت بما قيل:

أما والذي أبكى وأضحك والذي   أمات وأحيا والذي أمره الأمر!

لقد تركتني أحسن الطير أن أرى   أليفين منها لا يروعهما الذعر!

رحمها الله أوسع رحمة، ورفع درجتها في عليين...

فلأترك هذه الزفرة التي غلبتني، ولأعدل إلى شرخ الشباب وأيام السير الحثيث والكدح الدؤوب...

ولكي أشرح عملي يجب أن ألقي الضوء على الأحوال الاجتماعية والسياسية التي تمر بأمتنا يومئذ.

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت بنصر إنجلترا وفرنسا وأمريكا؛ ومع أن الحرب دارت رحاها وتمت معاركها الحاسمة في أرضنا، فقد كان العرب والمسلمون فيها عنصراً تافهاً...

حال المسلمين يومئذ

إن تخلفنا الحضاري والإسلامي كان بعيد المدى، والفُرقة التي مزقت جماعتنا أذهبت ريحنا وأحبطت سعينا، وبلغ من جنون الحقد على المستعمر المباشر أن بعض الشباب هتف في الإسكندرية تقدم يا روميل عندما كان القائد الألماني يطارد الفلول الإنجليزية المبعثرة في الصحراء!

وأنا أفهم كره العرب لمن خلفوا إسرائيل في أرضنا -وكانت وقتئذ جنيناً في المخاض- لكن ماذا يفيده استبدال مستعمر بمستعمر؟

إن هذا الاتجاه الأعمى دليل فراغ رهيب! والذين يريدون النهوض بأمتنا على نحو راشد ليس أمامهم إلا إزالة هذا الفراغ، وإحلال عقائدنا ومناهجنا مكانه، وذلك ما كنا نصنعه مع أستاذنا حين البنا، وليتنا توفرنا على هذا

مكانه، وذلك ما كنا نصنعه مع أستاذنا حسن البنا، وليتنا توفرنا على هذا وحده، والحديث في هذا ذو شجوني، وليس هنا مكانه!

ومع النشاط الذكي الذي قام به حسن البنا في إيقاظ القاعدة الشعبية، كانت في مصر أحساب صورية، ما عدا حزب الوفد الذي كان يمثل تسعة أعشار المصريين في أي انتخاب حر، أما الأحزاب الأخرى فتدور في فلك القصر الملكي، ترتقب خلاص الملك من ممثلي الشعب لتتولى هي الحكم في ظل انتخابات مفتعلة...

ومن الواجب أن يعرف الوضع الديني على صورته الكاملة، إن جمهرة المنتمين للأحزاب السياسية، الصحيحة والمزورة، كانوا مسلمين يسود بينهم المفهوم الغربي لمعنى الدين!

الدين عندهم ليس إلا صلة بين المرء وربه تظهر في الصلاة والأخلاق، وبعض المسالك الخاصة! أما أنه تشريع شامل يصوغ الروابط بين الإنسان والإنسان، ويملي تعاليمه في شؤون الحكم والاقتصاد فذاك ما لا يدرى!

وهناك ناس تمردوا على الدين كله، عقائده وشرائعه، وساروا وراء ملاحدة الغرب والشرق، لا يلوون على أحد، وكلا الصنفين يضيق بجماعة الإخوان ودعو م، وقد يرفضها دون مبالاة، أو يعلن الحرب عليها بقسوة!

ولما انتظمت في تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين عن لي أن أؤلف اتحاداً لإعادة التشريع الإسلامي، يزاحم الاتحادات الطلابية الأخرى، ويظهر أن الأرض كانت ممهدة، فسرعان ما اكتسحنا الساحات الأخرى، وأخذنا نوزع ألوف المنشورات لنبلغ غايتنا!

محاولة فاشلة

طلبنا مقابلة رئيس الوزراء –وكان مصطفى النحاس باشا- للتفاهم معه، فحدد لنا الرجل موعداً ضحى أحد الأيام، ودخلت أتقدم زملائي، فرأيت الباشا متجهماً، وبعد أن نظر إلينا بازدراء قال لنا: إنه مؤمن بالله، وإنه أكثر إيماناً من شيوخنا، وإنه كان في المعتقل لا يدع صلاة! ثم شرع يوجه إلينا نقداً أشبه بالسباب...!

ونظرت إلى الرجل فوجدته غير متكلف، وشعرت أن لشعبيته أساساً من بساطة خلقه، ورأيت أن أقاطعه على عجل قبل أن ينال منا!

فقلت له: إنك تحكم بلداً يصدر تراخيص بالزنا، ويفتح حانات الخمور، ويحل ما حرم الله! فأين ما تحكي عنه من إيمان وصلاة؟

وقدمت له مطالبنا فأخذها ورمى ا في وجهي، وكان معه الشيخ محمد البنا وكيل الوزارة للشؤون الدينية، فقال بأدب جم، مهلاً يا رفعت باشا إ م يطلبون بعض الإصلاحات الاجتماعية التي تفكر فيها والتي سبق أن كلمتني عنها، وأخذ ورقة المطالب وانسحب إلى غرفة أخرى.

وبعد جدال ممِل انصرفنا، وعلم الأستاذ المرشد بما وقع فاستدعاني ولامني على تأليف الاتحاد، وعلى السير به إلى هذه المرحلة، وأفهمني أن منهج الإخوان وحده هو الموصل للهدف المنشود، وإن طال المدى، ومن الخير أن أكرس جهودي كلها له، وتم الوفاق على ذلك، وأ ينا التشكيل الذي صنعناه.

استأنفت العمل ناشطاً راغباً في ميدان الدعوة، وسرني أن الأستاذ المرشد العام جعلني سكرتيراً لة الإخوان المسلمين، فكنت أكتب كثيراً، تارة بتوقيعي وتارات بتوقيعات أخرى، وكنت أتردد على مكتبي بانتظام، وأجمع بين عملي في المسجد وعملي في التحرير...

الديمقراطية

وكونت عدة أحكام على أوضاعنا المختلفة كان لها أثر في حاضري ومستقبلي!

ففي أعقاب لقائي برئيس الوزراء، وزعيم حزب الوفد مصطفى النحاس باشا، قلت لمن معي: هذه هي الديمقراطية الغربية بخيرها وشرها!

طالبنا بمقابلة الرجل فلقينا وأسمعنا رأيه فينا، وأسمعناها رأينا فيه! وبعد نقاش عاصف أذن لأحد مساعديه أن يجتمع بنا، ثم عدنا إلى أعمالنا العادية، فما صدر أمر بنقل موظف، أو فصل طالب أو اعتقال إنسان!

وأذكر أنه عندما رشح الأستاذ حسن البنا نفسه في دائرة الإسماعيلية استدعاه النحاس باشا، وقال له: إن الإنجليز يأبون أن تكون في مجلس النواب، وأنا لا أزور انتخاباً أبداً، فهل تنقذنا من هذا الحرج، وتنسحب بإرادتك، ونعدك بتمكينك من نشر دعوتك حيث أحببت، بعيداً عن ا لس...؟

وعرض الأستاذ المرشد الأمر على الإخوان فوافقت كثر م... وانسحب حسن البنا من الانتخابات.

والواقع أن وزراء الوفد زاروا المركز العام، ومنعوا عوائق كانت في طريق الدعوة، وتضاعفت شعب الإخوان...

بيد أن هذا الجسر بين الفريقين ا ار لأسباب أر أن كلا الفريقين مسؤول عنها... فالوفديون شعروا بالغيرة من اتساع نفوذ الإخوان، والترحيب الحار الذي يستقبل المصريون به الدعاة المسلمين، وضموا إلى هذا الشعور كلاماً سفيهاً عن حسن البنا يصفونه بأنه موظف صغير، أو مدرس لغة عربية، أو مدرس خط!

أما الإخوان فقد كان همزة الوصل بينهم وبين الوفد الأستاذ أحمد السكري وكيل الجماعة، على حين كان هناك رجل آخر يؤثر أن تقام الجسور بين الإخوان من ناحية، والقصر وأحزابه من ناحية أخرى، هو الأستاذ منير الدلّة رحمه الله...

وقد رأى الإخوان فصل الأستاذ السكري، ولقحت بعد ذلك الحرب بين الفريقين...

لم أكن أهتم بغلبة تيار على تيار، أو قيام شخص على أنقاض آخر، كان المهم عندي ألا يوصف الإسلام بأنه ظهير الاستبداد السياسي، وأن فكرته غامضة عن الحريات الإنسانية!

وكنت أشعر بأن الأحزاب المصرية، صحيحها وسقيمها، لا تعرف الأصول الاجتماعية للإسلام، ولا الطريقة المثلى لمداواة عللنا وعلل الحضارة التي تغزونا...

وكان المنهج الذي نعرضه من خلال دعوة الإخوان هو في نظري خير ما يقال للناس، وكان حسن البنا –فيما رأيت منه- قائداً عابداً، ومجاهداً صامداً، ومربياً قديراً، وداعياً متفانياً، يضن باللحظة من عمره أن تضيع في غير عمل للإسلام!

الأنظمة العالمية

التفاوت الذي أحسسته كان في التطبيق فقط...!

فطويت نفسي على ما ا، ومشيت مع القافلة التي تكبر الله، وترفع علم الإسلام، وقلت: أُصدر –إلى جانب ذلك- كتباً أشرح فيها وجهة نظري... تدعم تعاليم الإِسلام في جانب غير مطروق...!

قال لي صديق أحس حالة الانقسام النفسي التي اعترتني:

كأنك تحب الديمقراطية الغربية؟ قلت: بإجمال نعم! لقد رأيت الشعب الإنجليزي يقول لرئيسه تشرشل بعد ما كسب الحرب: عد إلى بيتك! نحن بحاجة إلى كفاية من نوع آخر! ورأيت الرجل يستقبل القرار مبتسماً، ويعود إلى قريته يستريح ويضاحك الأطفال، كأن شيئاً لم يقع!

قال: والاشتراكية؟ قلت: العناوين لا تخدعني، إن النظام الملكي الرأسمالي في إنجلترا وفّر للطبقات الكادحة حقوقاً يحلم ا زملاؤهم في روسيا، ألم تسمع ما قيل: إن الإنجليز شعب سعيد، والروس شعب لا غني ولا سعيد؟

إن المال على كل حال أحد عناصر الاستقرار النفسي والاجتماعي، لا بد منه يقيناً، ولكنه ليس كل شيء، ولست أقبل حرية لا غنى معها، ولا غنى لا حرية معه...

ونحن المسلمين ننتمي إلى دين الفطرة، قل لي: بأي عقل يطلب من مسلم أن يحيا فاقداً كرامته المادية والأدبية...؟

إنني أريد توكيد هذه المعاني للأجيال الجديدة حتى لا ترنو إلى مبادئ مستوردة، أو تفقد الثقة في صلاحية دينها للحياة...

وقد أخطئ في تشخيص علة أو اقتراح دواء! فما ادعيت العصمة، إنني أسرع الناس إلى قبول الحق من غيري، وإعلان فضله، ونشر الثناء عليه.

راحة الكادح الصبور

وبينما أنا أعمل في مسجدي بالعتبة الخضراء، والمركز العام للإخوان بالحلمية، إذ تلقيت برقية تستدعيني إلى قريتي...

كنت أعلم أن أبي متعب، ولم يخطر ببالي أن حالته سيئة ودخلت القرية متوجساً أتصفح الوجوه وأتعجل الأخبار، حتى وقع بصري على دكاننا من بعيد فرأيت أخاً لي يقف به فأدركت أن أبي مريض، واتجهت تواً إلى الدار...

وجدت أمي تبكي، وأبي طريح الفراش إلى جوارها، تناولت يده وقبلتها بحنان، فنظر إلي واستراح لمرآي! ورأيت علباً وقوارير فعرفت أن الطبيب حضر، وكتب هذه العقاقير، ويظهر أ ا لم تحقق نفعاً يذكر...

وجئت بالطبيب مرة أخرى لأن هيئته أقلقتني، ولما حضر الرجل لم يحاول أن يخدعني، وفهمت أن هناك عدة أمراض بالمسالك البولية يعجزه التغلب عليها، ويوشك مع تضخم "البروستاتا" أن يحتبس البول، وحالة الجسم لا تتحمل الجراحة...!

وتناوبنا بالسهر على تمريضه، وتحت ضغط أمي طلبنا الطبيب ليعالج التدهور المستمر... واعتذر الرجل عن الحضور، إنه يائس...

ونمت بعد الظهيرة نوماً طويلاً لأني سهرت أمس، وجلست إلى جوار أبي، وقررت أن أصلي جنبه، وبعد العشاء أخذت أرقبه...

كانت ليلة ليلاء هدأ كل من في البيت بعد أن غلبه الإعياء، وبقيت يقظان، قال لي بصوت خافت: إنني أموت! وخرست فلم أنطق! كان المصباح المضاء بالبترول مثبتاً في الجدار، فشعرت كأن ذبالته ارتعشت، قلت في نفسي: أدخلَ ملك الموت فخفق جناحه خفقة اضطرب لها المصباح؟ وأصخت إلى أبي فسمعته يدعو لي... ثم سكت السكوت الأخير...

في الصباح كان الرجال يحملون الجثة، ورأيت أمي متعلقة بأقدام الميت الراحل تقبلها، وتدفن وجهها في باطن الأقدام، وهي في شبه غيبوبة، خلّصت الجثة منها بصعوبة...

إنني أنا الآخر أريد من أعماق قلبي أن أنفجر بالبكاء، ولكني لا أقدر، يجب أن أتماسك، فقد أصبحت كبير هذه الأسرة، إذا ا رت ا اروا، يجب أن أتشبه بأبي الذي كان يتظاهر بأن أزمة الأمور كلها في يده؛ وهو لا يملك شيئاً إلا الثقة في الله...

ما أعظم الأواصر التي تشد الأسرة المسلمة، قلت لوالدتي وأخوتي وأنا أسافر إلى القاهرة لأستأنف عملي: لم يمت أبي، سأرعى الجميع بفضل الله، حتى يتم الذكور تعليمهم، وتتزوج من لم تتزوج من البنات وحقق الله برحماته كل حرف قلته...!

واعظ إخواني

وقد أشرت إلى الميزة التي وفرها القدر لي، وهي أني أجمع في منصبي بين الصفين الشعبي والرسمي، مما جعلني أملك حق الكلام في مختلف المحافل والمساجد...

وقد اجتهدت إذا تحدثت في أمر ما أن أستوفي عناصره العلمية، وأن أربطه بالمناسبات العابرة على نحو معقول، وأن أجرد كلامي من أي زلفى للحاكمين، وأن أضمنه تصريحاً أو تلميحاً ما أنصف به ديني وأسترضي به ربي...

وهي خطة ضاق ا أصحاب السلطة، ولكنهم لم يتحاملوا عليها! وقد ضممت إلى هذا أني ألفت كتاباً عن الإسلام والاستبداد السياسي، لخصت فيه بعض ما كنت ألقيه على المعتقلين في "طور سينا" والكتاب نابض بكره الفرعنة؛ ومساوئ الحكم الفردي الغشوم، ومفعمٌ بالتوجيهات الإسلامية في سياسة الحكم...

الانتفاع بالحريات الديمقراطية

وبديهي أن يجعلني هذا الكتاب وما سبقه في "القائمة السوداء"...! كانت جماعة الإخوان المسلمين منحلة، بحكم القانون، غير أننا رفضنا أن نعترف ذا الوضع، وسحنا في أرجاء البلاد، نؤكد حياتنا ورسالتنا بلباقة...

ونفعتنا الأوضاع الدستورية القائمة حين ذلك، فتلاقينا وتدارسنا حالتنا، بل إن التيار الإسلامي زاد مده، وتضاعف رِفده، وبرغم المصائب التي حاقت بكثير منا فإن طبيعة التدين في شعبنا؛ والحفظ الذي كتبه الله لدينه جعل علم الإسلام يرتفع مرة أخرى...

وفي هذه الأثناء جاءنا من الهند الأستاذ الداعية أبو الحسن الندوي، فكان مدداً من أمداد الخير، وترافقنا معاً في الانطلاق من القاهرة إلى الأقاليم، ندعو إلى الله، ونرجع الناس إلى صراطه المستقيم، وقد لاحظت أن التوافق في الفكر يجمع بيننا، في اغل بالنظرات والأحكام، وشعر إخواننا بذلك عن طريق المصادفة المحضة، فكان موضع ترحيب وسرور...

إن السنوات الأربع التي سبقت الانقلاب العسكري الناصري، كانت من أعمق السنوات أثراً في تاريخنا المصري، فقد استطاع الإخوان –في القدر المتاح من الحريات الدستورية- أن يجمعوا شملهم، وينموا كيا م، ويؤكدوا بقاءهم...!

الأحوال السياسية وجماعة الإخوان

وانـزاح حكم الأقليات، ورجع حزب الوفد إلى الحكم، وكان نجاحه الكاسح سبباً في أن الأستاذ مصطفى أمين، وهو عدو الوفد المبين، يقول معلقاً على هذه النتيجة: لكل داء دواء إلا الوفد...!

ولم أكن يوماً أنتمي إلى حزب الوفد، فقد عرفت حسن البنا وأنا طالب في الرابعة الثانوية، بمعهد الإسكندرية الديني، ويشرفن أني كنت تلميذاً لهذا

الرجل، بيد أنني حسن الدراسة لديننا ودنيانا، برئ من العلل التي تشوه النظر، وتفسد الحكم على الأمور...

واعتقادي أنه لو تم تفاهم بين الهيئتين الشعبيتين لنجت مصر من النكسة الهائلة التي وقعت فيها بعد ذلك...

وما أحببت هذا التفاهم إلا لشيء واحد، هو ضمان بقاء الدستور الذي نالته مصر 1923، والذي يوفر للمصريين من الحريات –لو نفذ- ما يمنع الفرعنة، ويحمي المستضعفين من الهوان...

إنني –أنا الداعي المسلم- لا أحتاج إلا إلى الحرية، لأؤدي واجبي، وأُنجح رسالتي، ويوم أفقد الحرية أفقد كياني كله!

إن الإسلام لا يحتاج إلا لهذه الحرية كي ينتشر وينتصر! وإذا كان بعض الفاشلين في العرض أو القاصرين في الفقه يخشون هذه الحرية فليجاوزوا ميداناً لا يستطيعون أعباءه، وليحترفوا شيئاً آخر غير الدعوة الإسلامية...!

وكان ظني أن الإخوان بعد مقتل مرشدهم وحل جماعتهم في ظل استبداد مسعور، سوف يستفيدون من التجربة، ويستبقون في مصر ضمانات الكرامة الإنسانية، ومعالم الحيات العامة، أفذلك وقع؟ كلا... لقد مشى الأمر في طريق آخر!

وقد أحزنني وأن في "الطور" أن الإخوان عموماً يرفضون أي ا ام لسياستهم، وقد قلت: إنه بعد هزيمة "أحد" وقع اللوم على "البعض" من الصحابة، فلماذا لا نفتش في مسالكنا الخاصة والعام، فقد يكون ا ما يستدعي التغيير! وما يفرض تعديل الخطة؟ لكن هذا التفكير لم يلق ترحيباً...!

والواقع أن الفكر السياسي عند جمهرة المتدينين يتسم بالقصور البالغ، إ م يرون الفساد ولا يعرفون سببه، ويقرؤون التاريخ ولا يكشفون عبره، ويقال لهم كان لنا ماض عزيز، فلا يعرفون سر هذه العزة، وا زمنا في عصر كذا، فلا يدركون سبب هذه الكبوة، ويشعرون أن العالم الغربي بزغ نجمه، فلا يدرسون ما وراء هذا البزوغ...!

قلت لأحدهم –وكان يكابرني- أما الفرق بين دستور سنة 1923؛ والدستور الذي جاء بعد أيام الانقلاب الناصري فقال بعد تحير: لا أدري ولا يضرني هذا الجهل!

نقاش حول الدساتير

قلت: تدري فقط أن تثير الشغب حول الصلاة بالنعل أو بدو ا، وحول انتقاض الوضوء من لمس المرأة أو عدم انتقاضه! فإذا اتصل الأمر بقدرة حاكم ما على تخريب البيوت وتعمير السجون، وحرق الكرامات، وترويع العائلات؛ قلت: الجهل بأسباب ذلك لا يضر!

إن العودة إلى الكتاب والسنة عنوان جميل، وسيكون هذا العنوان على فراغ قاتل يوم يتاح للفراعنة أن يتخطفونا مستندين إلى دستور وضعوه، لم نعرف نحن لِم وضع وكيف؟

قال لي آخ آخر يرقب الحوار: لا تنس أن الدستور الذي نوهت به مستورد من الخارج! قلت: لا أنسى ذلك، إنه فعلاً مترجم، ومنقول عن جملة من الدساتير الأوربية الحديثة، وليس كل ما جاء من الخارج يعاب...

إن القوم حصنوا أنفسهم ضد المظالم المتوقعة ذه المبادئ القانونية...

فإذا كنا في مصر نتعرض لذات المرض، فلا حرج من مواجهته بالحصانة ا ربة! إننا نرفض الاستيراد إذا كان ما نجلبه مضاداً لما عندنا، أو كان عندنا ما يغني عنه...

ومن حقي أن أرتقب من الإخوان كراهية من آذَوهم، وأهانوا إيما م، وكانوا يد الاستعمار العالمي التي بطشت م، وزلزلت أركا م! وأن نترجم هذه الكراهية إلى موقف سياسي صلب ضد الأقليات السياسية أو الأحزاب المصنوعة لخدمة فرد مسلّط...

وعلى أية حال فإنني سوف أعد من كبائر الإثم والفواحش، تزوير الانتخابات، وكبت الحريات، والافتيات على الجماهير، وسأسلك هذه الجرائم مع أنواع الخنا والربا، والسرقات الكبرى، وسأعتبر الحياد في مواجهة هذه الانحرافات خيانة لله ولرسوله ولجماعة المسلمين...

واستطاع الأستاذ صالح عشماوي وكيل جماعة الإخوان، على عهد الإمام الشهيد، أن يفتتح مقراً لهذا النشاط الإسلامي ببيته في حي "الظاهر" وشرع يجمع فلول الإخوان من هنا وهناك، ثم تحول هذا المركز المؤقت إلى مركز عام، يلقى فيه دروس الثلاثاء، كما كان الأستاذ البنا يصنع، ويجتمع فيه محامو الإخوان لبحث قضاياهم، ويفِد إليه ممثلوا الشعب القديمة من الوجهين البحري والقبلي...!

وكنا نحس أن وكيل الجماعة يقوم مقام المرشد في غيابه إلى أن ينتخب هو أو غيره من أعضاء الجماعة مرشداً جديداً مكان الإمام الشهيد...

ولم يكن المضي في هذا النشاط تسلية بل تضحية، ومغامرة قد تطيح بالنفس والمال، لأن الملك فاروقاً كان قائماً على عرشه، وقد كثر خلصاؤه من أمثال "بوللي" و "إدجار جلاد" و "كريم ثابت"، وآخرين نسيت أسماءهم لبعد العهد.

عندما عدت إلى القاهرة وجدت أمامي مشكلة عويصة، فإن المحكمة أبت أن تطبق على علماء المساجد قانوناً صدر لإنصاف حملة الشهادات العالية، ومعنى ذلك أن تبقى مرتباتنا خمسة جنيهات، بينما يأخذ زملاؤنا المدرسون إثني عشر جنيهاً، وكذلك الكتبة والإداريون ومن إليهم!

انقلاب على الأوقاف

عندما التحقت بوزارة الأوقاف أول عهدي بالوظائف وجد ا دولة داخل الدولة! ولا عَرو فهي تنفق في مصاريف الصدقات، وتشرف على أنواع الخيرات والمبرات، وتقوم على تحفيظ القرآن وتنشيط الجوانب الروحية والثقافية في المساجد!

وضماناً لذلك كله فهي تزرع عشرات الألوف من الأفدنة، وتؤجر مثلها للفلاحين، وتبني مئات الدور والقصور، بل دخلت في بعض الصناعات الزراعية، وأصبحت في الواقع وزارة زراعة واستصلاح، وبلديات ومرافق، وتعليم وثقافة، وصحة وهندسة، وذلك كله لحساب جهات البر الإسلامية...

فلما عدت إليها ثانية كانت الخطة قد أُحكمت للإجهاز عليها، أو تقليص رسالتها في أضيق نطاق، وبدأ التنفيذ بسلخ كل المستشفيات الإسلامية من الوزارة، وإلحاقها بوزارة الصحة...

امرأة صالحة كالخازندارة، وصدت ما تلك لمسجد وملجأ ومستشفى، ابتغاء مرضاة الله وطلباً لمثوبته؛ يجيء الانقلاب العسكري، فيضع مشروعاته لأخذ المستشفى وجعله عاماً لا خاصاً بالمسلمين، ثم يأخذ بعد فترة الملجأ، ثم يجرد جهة البر الباقية مما تلك من عار أو أرض لتتولى الموازنة العامة شؤون المسجد.

وسوف نرى ما كان يبيت له

كان وزير الأوقاف بصفته أميناً على أموال الأبرار من المسلمين، هو الذي يعين مدير مستشفى "بولاق" للولادة مثلاً، وكان هو الذي يسأل عن إمداد المستشفى بكل ما يحتاج إليه...

فإذا الوزارة تكلّف بترك جميع مستشفيا ا، ويلغى القسم الطبي ا، وتضيع صلة الوزارة الدينية بمستشفى "قلاوون"، ومستشفى "الملك"، ومبرة محمد علي، ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية، ومستشفيات ومستوصفات شتى في القاهرة والأقاليم...

المعروف أن المستشفيات تستقبل المرضى من أهل كل دين، ولكن ذلك لا يعني أن ينـ ـزع طابعها الديني لأنه الإسلام!

إن جمعيات الشباب المسيحية ينتسب إليها مسلمون، فهل يعني ذلك رفع الانتماء المسيحي عنها؟...

إن من حق المسلمين في مصر وفي غير مصر، أن يكون لهم مستشفيات لها طابعها الإسلامي الخاص، ويتأكد ذلك إذا أعدوا لها من خالص أموالهم ما يكفي ويغني...

أما الآن ففي مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية بالعجوزة مكان للراهبات المسيحيات، يؤدين فيه شعائر العبادة وهي جمعية خيرية إسلامية. أحرام على بلابله الدوح، حلال للطير من كل جنس؟

وبدأت الأخبار الحزينة تتوالى،فقد صدر قرار ثوري بأن تسلم وزارة الأوقاف كل ثروا ا الزراعية والعقارية لوزارتي الإصلاح الزراعي والإدارة المحلية، وجاءني أحد الموظفين المكلفين بالتنفيذ، يقول لي: إن الوقف الخيري أكبر إقطاعي في مصر! فقلت له: أيوصف أحد بأنه إقطاعي إذا كان ملكه كله للخير؟

إن هذه الأموال لله وحده، حبست عينها، وبقيت ثمر ا تبذل في صالح الإسلام وأمته.

فكيف تؤخذ منه؟

إن هذا الاغتصاب أكبر أعمال القهر والاجتياح في تاريخ مصر –وماذا عساي أفعل؟ سكت مكظوماً...

ثم جاء نبأ آخر، حلّت جماعة الإخوان المسلمين، وصودرت أموالها، وألقي القبض على أعداد كبيرة من أعضائها.

لقد كنت مفصولاً بقرار عرف القاصي والداني، فلما وقعت هذه المصيبة أحسست أن رياحاً عاصفة ب بعنف لتدمر حاضر الإسلام ومستقبله، ووقفت من بعيد أرقب، وماذا عساي أن أفعل...؟

ثم تقرر في محاكمة هزلية قتل ستة من رجال الإخوان بينهم الأستاذ عبد القادر عودة، والشيخ محمد فرغلي و... و... وآخرون...

وقلت لمن أحاطوا بي: طالما حدثتكم عن مساوئ الحكم الفردي، وعدم وجود دستور محترم...

إن الملك فاروقاً لما أراد قتل حسن البنا، دبر اغتياله في ظلام الليل، وظهرت الجريمة للناس دون أن يعرف للشهيد الراحل قاتل معروف، أما اليوم فإن لجنة تؤلف من بعض الضباط لتقتل في وضح النهار ستة من خيار المسلمين، دون أن يجرؤ أحد على اعتراض...

إن الرعب ألجَم الألسنة! أين الذين كانوا يرجمون النحاس باشا بالبيض الفاسد؟

إن الأستاذ العقاد هاجم الملك في روعة سلطانه فدخل السجن بضعة شهور، تعلّم خلالها اللغة الألمانية!

كنتم تضحكون مني وأنا أتحمس للحريات وأركا ا... هل عرفتم الآن؟ وتذكرت جدالاً دار في المركز العام للإخوان المسلمين، يوم كنت عضواً في الجماعة، فقد كان معروضاً علينا أن نوافق على إلغاء دستور 1923، ورأى الأستاذ عبد القادر عودة –وكان رئيس الجلسة- أن هناك تردداً، وسمع من يقول له: كيف سنحكم في غيبة الدستور؟ فقال رحمه الله متعجباً: كيف سنحكم؟ ثم ارتسمت على فهم ابتسامة عريضة: إنكم أنتم الذين ستحكمون! أنتم أيها الإخوان!

إنني والأستاذ عبد القادر صديقان متحابان، ولا أدري أينا أكبر سذاجة من الآخر؟ كلانا مشهور بأنه لا يصلح في ميدان السياسة...

الرجل الوحيد الذي قاوم القرار ورفضه، هو الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال –الذي فُصل معي- في حركة إبعادنا عن الجماعة! كان –أطال الله بقاءه- أبعدنا نظراً...

ونعود إلى وزارتنا التي تضأل وتنكمش، كان منصب مدير المساجد خالياً، فكنت أقوم بأعماله –بصفتي وكيلاً- حتى يجيء من يحتله، وذات يوم عرفنا أن

القائمقام أنور السادات نفسه، فاستغربت لأن المسجد يتبع الجمعية الشرعية، وللقوم تقاليد معينة في زي الخطيب...

وفيما أنا أفكر دخل السيد أنور، مرتدياً عباءة عربية، وعلى رأسه عمامة لها ذنب يغطي قفاه، كأنه من رجال الجمعية القدامى!

وتأملت وجهه فتذكرت التعايشي*، خليفة المهدي السوداني المعروف...

كان في سمرته وسمته الديني شيئاً عجباً...

وألقى الخطبة باللغة العامية حيناً، وبالعربية المشوهة حينا، ثم انتهى منها وتقدم للصلاة ونحن خلفه، قرأ في الركعة الأولى سورة الماعون، فاضطرب، وقد وأخر، ثم ختمها على أي نحو! ولطف الله في الركعة الثانية، وسلّم من الصلاة، ونظر إلينا من علٍ، وكأنه يقول: ما أنتم؟ إذا وجدت بطل وجودكم!

ولم أكن أعرف الرجل من قبل، مبلغ ما أسمع عنه أن الأستاذ حسن البنا، كان يرسل إلى بيته بعض المساعدات عندما يقع في ورطة، لكنه الآن –فيما أحسست- يجمع بين الكبر والجهل!

وهمست إلى صديق معي: إن الخطأ في العبادات، أو الهزل في أدائها حسابه عند الله...

إن الذي أخشاه أن تعالج أمور الأمة المدنية والعسكرية بالادعاء والجهالة معاً، وقد كن نحفظ قديماً:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت   فإن تولت فبالأشرار تنقاد

إن وظيفة المسجد في ا تمع الإسلامي عظيمة الخطر! إنه صانع الفكر والضمير، ومطهر البدن، ومنظم الصفوف، وصائغ العلاقات الإنسانية المشربة بالحب والإخاء...

وقد اجتهدنا –أنا وصديقي الشيخ سيد سابق- في ربط الناس بالمسجد، وإحسان التوجيهات الثقافية التي تصدر عنه.

وكان من بين المقترحات التي نفذناها، إنشاء جمعية أهلية لكل مسجد تتعاون مع الإمام في تحسين أدائه المادي والروحي...! فا منا الأفاكون أننا نحاول إعادة الإخوان المسلمين...!

* يشير الشيخ رحمه الله هنا إلى عبد الله التعايشي الذي خلف محمد أحمد المهدي في قيادة الدولة المهدية إثر انتصار ثورة المهدي على الإنجليز وقتل المقيم العام البريطاني في الخرطوم، عام 1885م.

فحولنا اسم "الجمعية" إلى "مجلس المسجد"، على غرار مجالس الآباء التي أُنشئت في مدارس وزارة التربية والتعليم، كما وضعنا مناهج وكتباً يدرسها الإمام طوال الأسبوع، وكراسات للتحضير، تدون فيها المادة العلمية المقروءة أو المخطوبة...

بيد أن الأمور كانت تسير إلى وجهة أخرى...!

وظهر ذلك بوضوح لما تولّى الوزارة السيد حسين الشافعي، وهو –فيما أعلم- رجل مسلم، نقي اليد، عف اللسان، محب لدينه!

لكنه كان يومئذ من رجال الثورة السائرين وراء جمال عبد الناصر،... فتبنى فكرة غريبة، أن توكل المساجد إلى جمعيات شعبية تديرها، وتسأل عنها، وتمنحها الوزارة الإعانة الكافية، وتكون هذه الجمعيات تحت رقابة وزارة الشؤون الاجتماعية!

وسألت: لم ذلك؟ قيل: هذا أفضل! سألت: هل سيصنع هذا بالمدار التي تتبع وزارة التربية والتعليم؟ قيل: لا...! فأدركت أن المقصود جعل الدولة علمانية، لا صلة لها مباشرة بالدين...!

وقمنا بحركة هائلة شملت المساجد في القطر كله، وقابلني مندوب الأهرام، الأستاذ محمود الكولّي، وقال لي، إنه علم أن هذا هو النظام المتبع في يوغسلافيا!

وصدر ضد هذا المقترح بيان شديد الغضب من اتحاد الأئمة في الإسكندرية، وشاء الله أن يوضع المشروع على الرف، لأسباب نجهلها...!

الحق أن الانقلاب الناصري رسمه الذين نفذوا الانقلاب الكماليّ في تركيا، مع تغيير في العناوين والأساليب، يتفق مع أحوال مصر وطبيعة شعبها...

وقد ذكرت في كتابي كفاح دين أن الطيار عبد اللطيف بغدادي، هدم قريباً من عشرين مسجداً في جراحة لتجميل القاهرة! ترى؛ لو كانت هذه معابد يهودية، أكان يفعل ذلك؟ إ ا المؤامرة على دين غظ حراسه في نوم عميق...!

قررت أن أتفرد بالعمل للدعوة، على النحو الذي أختار، وبالطريقة التي أُحسن، وأمامي ميدانان فسيحان: ميدان التأليف، وقد وضع الله لي القبول فيه، وميدان المساجد، وأنا قادر على إلقاء الدروس والخطب، وعلى توجيه ألوف الأئمة إلى الغاية الأرشد، والنهج الأمثل...

غير أن العقبات التي بعثرت أمامي كانت كثيرة، وخيل غلي أن الخدمة الصحيحة للإسلام عملٌ يبعث على التهمة، إن لم يكن جريمة تقذف في السجون...!

والغريب أن البيئات الدينية تنظر إلى الدعاة بجفاء، وترى أجهزة الدعوة كياناً ملصقاً ا، لا يقبل إلا على كره، كذلك الحال في الجامع الأزهر، ووزارة الأوقاف جميعاً...

وقد يكون سلوك بعض الدعاة علة هذا النفور، بيد أني بعد تأمل طويل وجدت أن الضيق بالإسلام نفسه من وراء هذا الصدود، ينضم إليه إيثار السلامة بالبعد عن مجالات النصيحة، وغلبة الاحتراف على عبيد الحياة، وشيوع القصور العلمي بين جمهرة من "رجال الدين" كما يسمون!

فالداعي يعرض عقله وأدبه، وقد قيل لعبد الملك بن مروان: شبت يا أمير المؤمنين! فقال: شيبني صعود المنابر وتوقف اللحن، فإذا لم يكن لدى امرئ علم يعرضه، أو أدب ينطقه فلم يصعد المنابر؟ إنه سيتراجع، ثم يقول: هذه أعمال تافهة!

إ ا عقدة الوضاعة عند التافهين!

ومذ عملت في السلك الإداري وأنا أرفض الاكتفاء به، وأركض ركضاً إلى المساجد والأندية والكليات، أتحدث عن الإسلام، أذود عنه الهاجمين، وأكشف كامنه للمتوسمين، وأتعرض للمدح والقدح والتكريم والإهانة...

كنت أول موظف كبير يدخل الديوان، أستفتح عملي بقراءة جزء من القرآن على أحد شيوخ المقارئ، ثم أنظر في الملفات المعدة، وأتتبع مصالح الناس بالإنجاز، وأغشى عشرات المكاتب شفاء لهذا، أو إعانة لذاك، كنت كما وصف المأمون نفسه: "حبب إلي فعل الخير، حتى ظننت أن لا أُوجر عليه"!

وقد أحصى مكتب الاستعلامات في الوزارة من يطلبون الدخول إليها، فوجد ثلاثة أرباعهم يذكرون اسمي، ولما كُلمت في ذلك قلت: معنى موظف عام أنه خادم للجماهير حقيقة لا دعوى...

إن الذين سيتكبرون عن ذلك إنما يأكلون السحت...!

وبديهي أن يكون الإخوان المسلمون –فرادى- أول من يسعهم هذا النشاط، طالما هششت للقائهم، وطمأنت قَلَقهم، وأريته من نفسي الاستعداد التام لعونه!

لقد هاجمت الإخوان وهاجموني يوم فصلت، وكان تظالماً وخيم العقبى على مستقبل الجماعة، يغفر الله لنا فيه ما كان مني ومنهم!

فلما حلت الدولة الجماعة للمرة الثانية، وأحسست أن ذلك لا يستفيد منه إلا اليهودية والنصرانية، سكت مبتئساً!

فلما بدأ التعذيب والتقتيل انضممت بقلبي وكياني كله إلى المستضعفين في الأرض، وبكيت لهم ما يلقون! وماذا عساي أفعل؟

إن المأساة التي يجب كشفها أن الإسلام نفسه يضرب، باسم ضرب الإخوان...!

لو أن واحداً أو أكثر يعاقبون لأخطائهم باسم الدين، لقلنا: العدل يأخذ مجراه...!

أما أن تصادر نصوص، وتطمس تعاليم، ويلغى نصف الكتاب والسنة، لأن جماعة ما أخطأت، فهذا هو العجب...

ما معنى أن يعلن رئيس دولة إعجابه بشخص مرتد كمصطفى كمال، وأن يأمر بإصدار طوابع بريد لتخليد ذكراه؟ كيف تخلد ذكرى فصل الدين عن الدولة، وجعل الحكم علمانيا؟ كيف تخلد ذكرى ضرب الإسلام، وإسقاط رايته وخلافته؟

والأعجب أن يصمت علماء السوء فلا يقولوا كلمة أبداً في هذا الفسوق، ثم تراهم بعد يتسابقون في هجاء الإخوان لأ م خرجوا على الحاكم؟ هل ولاؤكم أنتم له هو الإيمان؟

قال لي صديق يشتغل في الإعلام: طلبنا من فلان أن يضع لنا جملة أحاديث في تحديد النسل. قال: تريدون أن أكتب بالتحليل أم بالتحريم؟ فقال له ا يب ساخراً: خمسة أحاديث بالحلّ، وخمسة أخرى بالحرمة!

قلت:هذا الشيخ يصلح مفتيا للجمهورية، أو وزيراً للأوقاف! قال: أو شيخاً للأزهر؟ قلت بعد تريث: أو شيخاً للأزهر...!

إن أولئك الثلاثة في إبان حكم العسكر حملوا الإسلام ما لا يطيق، لا في مصر وحدها، بل في أقطار أخرى! إ م ونظرائهم سخرا الفقه لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أحكاما ما أنـزل الله ا من سلطان...

وما كسبوا إلا غضب الله سبحانه، وكراهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها...

في هؤلاء يقول أحمد محرم:

أرى علماء الدين لا يحفظونه ولا يرفعون اليوم رايته العليا...
هم اتخذوا ما أحرزوا من علومه سبيلا إلى ما يبتغون من الدنيا
إذا ما أتاهم جاهل بضلالة! أتوه بألفي عالم يحمل الفُتيا

في عصرنا هذا أقامت اليهودية جولة لها على أنقاضنا؛ وأقامت الصليبية استعماراً طحن معالمنا وتراثنا، واصطنع نوعاً من الحكم في بلاد الإسلام ليس لله ولاؤه، ولا للإسلام انتماؤه...

فإذا تمرد أهل الإيمان، وهاجت غير م على دينهم، قيل لهم: إن أحسن الحاكم فله الشكر وإن أساء فعلينا الصبر! وخير لنا أن نعتزل ونعض بأصل شجرة فلا نصنع شيئا!...!

أين فريضة النصح؟ أين فريضة الأمر والنهي؟

أين فرائض الجهاد بأنواعه: البدنية، والمالية، والبيانية؟ اختفى هذا كله ليقول عالم ينتسب إلى الأزهر في حاكم من أسوأ الحكام سيرة وأبينهم خيانة: لو استطعت لجعلته في مستوى من لا يسأل عما يفعل!

إن الذين ا موا الدين بأنه مخدر للشعوب، إنما استمدوا هذه التهمة من أقوال أولئك "العلماء" المفرطين...

تجنبت من شبابي الباكر هذه القافلة الخائنة، وقلت: الوفاء لله ورسوله أبقى وأجدى!

وبعد فترة قليلة من قيام ثورة 23 يوليه 1952 –وهي في حقيقتها انقلاب عسكري، دبر بعناية لغايات معينة- ألفت عدة كتب، مر بعضها بسهولة، واعترضت وزارة الداخلية على كتابي الاستعمار أحقاد وأطماع وكفاح دين.

فأما الأول فقد رفضت النيابة الاعتراض، تركته ينشر، وأما الثاني فقد أقرت عدم النشر، ورفعت الأمر للقضاء، كي يبت في القضية في جلسة أحضرها وأناقش فيها...

وطُلبت إلى المحكمة، فذهبت وأنا شاعر بالحرج، لأن مصادرة كتاب لي شيء ثقيل الوطأة على نفسي، والخسارة الأدبية والمادية شديدة، ثم إن عملي في الوزارة أحاطت به الظنون، والأعداء متربصون، وسيقال: استغلّ منصبه الديني في تعكير الأمن العام!

ووقفت أمام المحكمة، وكان رئيسها مستشاراً نـزيهاً شجاعاً:

قال: أنت مؤلف هذا الكتاب كفاح دين؟

قلت: نعم..

- ألا ترى أن فيه فصولاً وبحوثاً مثيرة؟ قلت: المهم أن تستيقن المحكمة من صدق ما قيل، فإذا كان ما أثبته حقاً فلا أُلام على تقريره!

قد يكون الكلام حقاً ولكن ليس كل ما يعلم يقال، فربما أهاج ذكره الخواطر، ونحن بحاجة إلى الهدوء!

- قلت: أنا أحصيت أسماء المساجد التي هدمت في القاهرة وحدها كي أوقف هذا التخريب العمد لبيوت الله، وذكرت أن في مصر الجديدة وحدها 34 كنيسة و7 مساجد فقط، مع أن نسبة المسلمين هائلة، ونسبة الأقباط دون العشر، فهل أن أخطأت في ذكر الأعداد؟ إنني استقيت معلوماتي من بلدية القاهرة 1957.

قال الأستاذ المستشار: ليس لدي ما يخطّئ هذه الأعداد التي ذكر ا، وإنما المخوف من طريقة العرض فهي تبعث على البلبلة...!

- قلت: سيدي المستشار، قد يسير رجل في الطريق فيرى لصاً يعالج باب دكان يريد كسره ليسرقه، فيقول في نفسه لو تعرضت له ربما أصابني، فيدعه ويمضي لشانه...! قد يعذر على نحو ما هذا الجبان! لكن ما الرأي إذا كان الفار من وجه اللص واحداً من رجال الشرطة؟ إنه يعد خائناً يقيناً، لأن مهمته حراسة الأمن!

- قال الأستاذ المستشار: هذا صحيح!

قلت: فأنا -في وظيفتي الرسمية- حارس للإيمان، سأكون خائناً إذا سكت عن هدم المساجد، أو غلبة غيرها عليها!

شعرت بأن الأستاذ العادل رئيس المحكمة قد تغير وجهه، وأخذت صورة من التفكير الجاد، والتجرد لله تظهر على ملامحه، وأخذ يناقشني بشيء من الحنو والهدوء، ويقلب صفحات الكتاب، ويسألني عن بعض الحقائق العلمية، ثم أصدر حكمه برفض المصادرة، وترك الكتاب للتداول الحر!

صفّق قلبي بين جوانحي، وخرجت من الجلسة شاكراً، وإذا رجال الشرطة يلقونني ببرود أقرب إلى السخرية! إن إجراءات الداخلية لا توقفها أحكام القضاء، فقد تفرج المحكمة عن شخص وتعتقله الداخلية لأسباب لديها...

وصودر الكتاب فلم يفرج عنه إلا بعد أن مات جمال عبد الناصر فاتح باب الحرية، الرئيس الكبير القلب!

منهجي في الدعوة

أرى أن ألقي ضوءاً على طريقتي في الدعوة، ووسائل لدعم الإيمان والمنهج الإسلامي!

إنني أعتقد أن الدين هو الفطرة السليمة، قبل أن تشوهها تقاليد سيئة وأفكار سقيمة، وأن أنصبة الناس من سلامة الفطرة شديدة التفاوت، وأن هذه الأنصبة موزعة على خلق الله حيث كانوا، ومن ثم فأنا أرقب ما يصدر عن الناس من أقوال وأفعال، وأزنه بمعيار الفطرة المقررة عندي، فما كان خيراً قبلته، وما كان شراً رفضته...

وفي حالتي الرفض والقبول فأنا أكمل للناس ما نقصهم، أو أؤكد ما لديهم، من التراث الذي خصني الله به! أعني من الإسلام الذي هداني الله إليه، إذ أوجدني في بيئة يسرته لي، ومكنتني منه.

إن الأديان أقدار! وإذا أنعم الله علي بالإسلام فلأقدر هذه النعمة، وليكن تقديري لها أن أعامل من حموها بشيء من الوعي للظروف التي أحاطت م...

والواقع أني أكره العنف والتحامل على الآخرين، وبقدر ذلك أكره العدوان على ديني، الافتيات على حقي...!

من أجل ذلك لم أ يب أي مجتمع أدعو فيه، ولم أستوحش من الأسماء السائدة أو العناوين الشائعة للمذاهب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، بل من نقطة التلاقي بين الفطرة التي عرفتها بالوحي، وعرفها غيري بالتجربة أو بالفلسفة أو بالعلم، من هذه النقطة أبدأ العمل لديني وأنا متمكن ومستريح...!

نعم قبلت ما رفضه غيري من كلمات الديمقراطية والاشتراكية مثلاً، وعن طريق الكراهية الفطرية للاستبداد السياسي أو الجشع الرأسمالي؛ أخذت أعرض من ديني النواحي المقابلة أو المماثلة، فإذا نجحت في إبراز الحقيقة الإسلامية – ويجب أن أنجح وإلا كنت داعياً فاشلا- انتقلت بالفرد الذي أحدثه أو ا تمع الذي أخاطبه، إلى آفاق أوسع ونواح تمس العقيدة والعبادة وسائر شعب الإيمان.

بل إنني دخلت في ميدان "العروبة" ذه الخطة، وقلت لأولئك الناس: تريدون بعثاً عربياً؟ وأنا كذلك أريد بعثاً عربياً!

هل رفع شأن العرب رجل أعظم من محمد؟ هل خلّد لغتهم إلا القرآن؟ هل دخل م في التاريخ إلا الإسلام؟ هل كفكف عصبيا م وأمات حزازا م إلا هذا الدين؟ فأذهب فرقتهم، ورفع رايتهم، ونصرهم على عدوهم، وحملهم رسالة خالدة، هي الرحمة للعالمين...!

ما هي الرسالة التي يحملها العرب إذا تركوا الإسلام؟

تقولون: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة؟ ما هي هذه الرسالة؟ إن لم تكن الإسلام؟ ثم إن الإسلام جعل العربي النصراني مضمون البر والعدل، موفور الكرامة والذمة؛ وما أظن أحداً من العرب الذين يحترمون جنسهم يكره محمداً أو يود العنت لقومه والهوان لرسالته...!

الذي وجدته في أدعياء العروبة أ م يكرهون اللغة العربية، والتراث العربي، التاريخ العربي، حتى لقد استيقنت أ م سماسرة الاستعمار خبيث، يريد القضاء على العرب باسم "العروبة"...!

هناك ناس من الدعاة يضيقون أشد الضيق بالعناوين المحدثة، ويشمئزون من ديمقراطية أو اشتراكية، أو ما شابه ذلك!

وهؤلاء الناس نوعان: نوع يريد الإسلام عنواناً فجاً على ركام من التعاليم المدونة بلغة العصر المملوكي، أو لتركي، ولا يتحرك قيد أنملة لتوضيح يطلبه العصر، ولا يقبل مقترحات جديدة للوسائل التي تخدم أهدافنا وشرائعنا... إن هذا النوع يشبه من يريد المقاتلة بالخيل في عصر التفجير الذر معتمداً على نصوص لم يفهمها...

وأنا أرفض التعاون مع هذا النوع، ولا أكترث بإنكاره علي، أو تبرمه بي...!

وهناك نوع غيور على الإسلام شكلاً وموضوعاً يقول:إن العناوين ا لموبة من الخارج قد تقدح في الحقائق الجليلة التي ورثناها، ومن الممكن أن ننظر إلى أحسن ما لدى الآخرين ملاءمة للفطرة، وموافقة للوحي، فنأخذه ليكون –بعد ذيبه- من بين الوسائل التي نخدم ا قيمنا المقررة!

إن الخلاف مع هذا النوع شكلي، وإنني لأغار على ديني كما يغارون، وإنما لأريد ألا أُلدغ من جحر مرتين! فكم من متدينين يتصورون الخلافة فرعونية جديدة تحكم دون معقب، أو قارونية جديدة تحب المال حباً جماً، وتريقه في أهوائها دون رقيب!

مع الاتحاد الاشتراكي

على أية حال، إننا نحن المسلمين نتبع ديناً واضح المحجة، منير النهج، وقد أبحث لنفسي، وأنا في مصر، أن أدخل فيما يسمى الاتحاد الاشتراكي، وقررت عن طريقه أن أحاول خدمة الإسلام ونشر الدعوة...

لقد كان أستاذي حسن البنا يقول: أنا لا أخاف العمل مع الشيطان، فلنسِر معاً، وسنرى من يفر من صاحبه!

إنني سأدخل هذه الهيئة، وسأرى هل سأنتصر بالإسلام أم لا؟ وكان معي شيخ حمن الدين كثير الدعابة، نتعاون معاً على صنع النكتة، إذا حز بنا أمر، أو أردنا التنفيس عن متاعبنا، قال لي يوما: أجز هذا البيت:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما يروح إلى اتحاد الشر كفينا!

فقلت:

فيهتف للزعيم هتاف عبد يخاف السجن أو يخشى المنونا!

واستغرقنا في الضحك، ماذا نصنع؟ إن الفكاهة تريح الأعصاب أحياناً...

ودخلت الاتحاد الاشتراكي، وكانت تجربة شاقة، لا عهد لي بمثلها، فهناك لجنة أساسية ينتخب الجمهور أعضاءها بطريق القوائم في كل وزارة، أو حي، أو مصنع... إلخ؛ ثم يجتمع مندوبو اللجان الأساسية في كل قسم لينتخبوا لجنة القسم أو المركز، ثم يجتمع مندوبو المراكز أو الأقسام لينتخبوا لجنة المحافظة، ثم تجتمع لجان المحافظات لتختار ضعف الأعضاء المطلوبين للجنة المركزية، فيختار نصفهم لعضوية اللجنة المركزية، ومن اللجنة المركزية تكون اللجنة التنفيذية التي تدير شؤون الدولة تقريباً، لأن الوزراء منها، أو خاضعون لها...

ومن السهل إدراك أن هذا التنظيم صورة لتنظيم الحزب الشيوعي في أي بلد اشتراكي، فالقمة تصنع القاعدة أكثر مما تصنع القاعدة القمة...!

وقد رأيت أني في المركز أشاهد أناساً لا أدري كيف نبتوا، فلا يكاد يعرفهم أحد! يمشون معنا ليصلوا بقدرة قادر إلى مستوى المحافظة، ثم يتم تصعيدهم إلى اللجنة المركزية، بطريق الاختيار الصريح من أعلى!

وشاء الله أن أصعد في هذه لدرجات مستوى بعد مستوى، حتى بلغت اللجنة المركزية، فاختار المسؤولون أسماء ارتضوها، ورد اسمي لأنه لا يوثق به! قلت: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون!

وأخذت أعمل مكاني، أحاول خدمة ديني... كان الجو موبوءاً، فالشيوعيون رتبوا صفوفهم لقيادة البلد، وغيرهم بين متملق يتسكع على أبواب الرؤساء، أو أناني لا تحركه إلا مآربه المكشوفة؛ وإذا جاء وقت صلاة فما يتحرك إلا قليل...

والفكر الإسلامي غريب، واتخاذه شعاراً أغرب، والقضايا بط من فوق لتلقى التأييد، والشيطان يذرع الساحة كلها جيئة وذهاباً...

وأذكر أننا في أحد المؤتمرات، سمعت المقرر يعلن باسمنا أننا قررنا تعديل قوانين الأحوال الشخصية!

فنهضت من مكاني صائحاً: هذا غير صحيح، لم نقرر شيئاً من هذا، هذا افتعال لا أصل له...

وتواثب الحراس من حولي يشدونني لأجلس، ولما لم يقم أحد معي يرفض هذا الزيف؛ صحت:أنا منسحب من المؤتمر، وخرجت عائداً إلى بيتي...!

ويظهر أن هذا الموقف كان له بعض الأثر، فقد أعيد تنظيم لجنة الأسرة، ووضعت فيها، وكان معنا الدكتور محمد عبد الله ماضي وكيل الأزهر يوم ذاك، وأمكن حجز الشر إلى حين...

لقد لامني بعض الصالحين على قبول عضوية الاتحاد الاشتراكي! والعمل في هذا الوسط الرديء، فقلت له: أنبقى مكتوفي الأيدي والغير يصنع القرارات، ويفاجئنا بما يهوى؟ إن السلبية لا تفيد!

قال: وماذا صنعت أنت؟ قلت: أنا وحدي لا أغني، إن الجبن في هذه التنظيمات هو سيد الأخلاق! عندما وقفت أعترض المقرر، كان جاري الأيمن وكيل وزارة، والجار الأيسر من كبار الشيوخ في الأزهر، ومع ذلك فإن كليهما فزع، وكأنه لعن الظروف التي قاربته مني، إ ما يفقدان شجاعة الإيمان، وقد فهمت لماذا كان حسن البنا حريصاً على"التربية الدينية الصحيحة"؟

وذكرت أني مسؤول كبير في أجهزة الدعوة، وأني من بضع سنين أخطب الجمعة في الأزهر، فقررت مضاعفة الجهد، وفتق الحيل لعلم إسلامي مثمر، وقلت: تستعد شعبياً لعودة أشمل وأسرع إلى الإسلام...

وعرفت أن مؤتمراً كبيراً سوف ينعقد لمراجعة إقرار "الميثاق الوطني" الذي ستمضي البلاد على ضوئه في السنوات القادمة...

إنني هنا أروي قصة حياتي، ولست أؤرخ للأحداث الهائلة التي تعرضت لها مصر، عندما هاجمتها إسرائيل وفرنسا وإنجلترا، ولا مولد الاتحاد بين مصر وسوريا ووفاة هذا الاتحاد، ولا الأهوال التي غَشِيت المحبوسين والمعتقلين من جماعة الإخوان المسلمين، ولا الهمات التي صدعت الكيان الإسلامي في القاهرة –العاصمة الثقافية للمسلمين- وأخرت، ولا أقول، أماتت الدور التاريخي الذي تقوم به في خدمة الإسلام ولمّ فلوله...

إنني أمر ـذه الأحداث كما يمر راكب القطار بمعالم الطريق، واقف وقفة طويلة عندما يكون الحديث ذا شجون.

انعقد المؤتمر الكبير، وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر، وكان يعاونه السيد كمال الدين حسني، وينوب عنه في غيابه، وكان الأمين العام السيد أنور السادات.

وبعد الأعمال التمهيدية أخذ الأعضاء يسجلون أسماءهم طالبين التحدث إلى الحضور ليشرحوا وجهات نظرهم، وكنت من أوائل الذين طلبوا الكلمة، وقد حددت موضوعي بأناة، وقررت البعد عن التحدي والإسهاب...!

قلت: "أيها الأخوة، إن الشعار الذي رفعناه هو تحرير الوطن والمواطن، فهل يتحقق هذا الشعار إذا أخرجنا الإنجليز من أرضنا وبقيت قوانينهم، وتقاليدهم، ولغتهم تحتلّ مجتمعنا وتسيره؟ فيم كان الجهاد إذن؟ إذا كانت تبعيتنا لهم ظاهرة، وولاؤنا لمخالفا ـم قائما؟

"إن التحرير الحق هو أن نحيي تراثنا، ونقدم لغتنا وأدبنا، وننفذ شريعتنا،وننبذ هذه القوانين التي وضعها المستعمرون لنا، وسلخونا ـا عن ديننا وتاريخنا!

"ولننظر إلى مصلحتنا الاجتماعية موازنين بين الربح والخسارة! آلاف من جرائم القتل تقع، والذين يعاقبون بالإعدام نفر قليل، ويحكم على الأكثرين بالسجن، ثم تمر الأعوام، ويخرج السجين القاتل، ويرى الإنسان قاتل أبيه أو أخيه في الطريق فيقتله أخذً بالثأر!

"أيكفي في علاج هذه الحال تكليف بعض الوعاظ بمحاربة عادة الأخذ بالثأر؟ ما الذي يمنع من القصاص الذي كتبه الله لصيانة الحياة وتحقيق العدالة؟ فنرضى ربنا، ونحصن مجتمعنا...!

"وإني واحد من الذين يأبون قبل جائع يسرق ليقوت نفسه أو أهله، والشريعة يستحيل أن تقطع هؤلاء البائسين؛ لكن إذا وجدنا من يسرق مثنى وثلاث ورباع ليعربد، وينفق عن سفه ذات اليمين وذات الشمال، كيف نتركه؟ لماذا لا نحمي الكسب الحلال من عدوان أولئك ا رمين؟ إن يداً واحدة تقطع ستقضي على العصابات التي احترفت اللصوصية!"

ومضيت في شرح الحقائق الإسلامية الضائعة، مطالباً بعودة ا تمع إليها... وبعد ربع ساعة تكلمت عن "الملابس" في أقل من ثلاث دقائق مطالباً بتوحيد الزي للرجال، وتوحيده كذلك للنساء خصوصاً الطالبات...

ووضعت مواصفات سهلة: أن يكون رخيص السعر، وأن يكون من الإنتاج الوطني، وأن يلبسه الرئيس والوزراء، ويعد اللباس الرسمي في كل ديوان أو حفل!

وبالنسبة للنساء يكون ساتراً للجسم كله ما عدا الوجه والكفين، قلت: ولعل أقرب مثل له زي الراهبات المسيحيات أو الفلاحات المصريات...!

وكنت في حديثي سهل العبارة، متودداً إلى الجمع الذي يزيد على الألف، وكنت قبل الحديث قد دعوت الله أن يلهمني الرشد، وأن يفتح لي القلوب...!

ويظهر أن الله استجاب لي، فإن كلمتي –وإن عدها البعض شرحاً ماكراً لدعوة الإخوان المسلمين- بلغت أعماق النفوس، ولقيت ترحاباً واضحاً وتصفيقاً شديداً...

وكان بين أعضاء المؤتمر سبعون شيوعياً، أفزعهم هذا الجو الإسلامي، وزاد من ضيقهم أن جماعات ضخمة كانت تردي الصلوات في الأوقات، وتتحدث عن ضرورة التمسك بالإسلام.

وقد اتفقت كلمتهم على توجيه ضربة سيئة لي توقف نشاطي، فأوعزوا إلى الرسام الهزلي صلاح جاهين ألا يدع الكلمة التي ألقيتها تمر دون تعليق ساخر يفقدها قيمتها!

وظهرت صحيفة الأهرام في اليوم التالي، وقد صورتني عاري الرأس ساقط العمامة على الأرض، لأن قوانين الجاذبية شد ا، وفق التطور العلمي!

ونظرت إلى الصورة وقد تملكني الغضب، فإن العمامة ليست لباساً خاصاً بي، وإنما هي رمز العلماء المسلمين! والرسام الشيوعي يريد الإيحاء بأن القوانين العلمية ستعصف بالإسلام...!

ورئيس تحرير الأهرام، فيما علمت، له دور في وضع الميثاق، وصلت الميثاق بالإسلام خافية أو حائلة...

قلت في نفسي: بدأ الهجوم! إنه بدأ في الأهرام واستمر في الكلمات التي تتابعت بالرد علي من شيوعيين آخرين داخل المؤتمر نفسه...

وطلبت التعقيب على ما وجه إلي من تساؤلات و م، وأُعطيت الكلمة، فقسمتها شطرين...

"الأول: هل لأعضاء المؤتمر حرية الكلام دون أن ينهم الصحف أم لا...؟ إن كان كل عضو هنا له حق عرض رأيه، فهل هذا الحق مصون، أم أنه ما يكاد يتكلم حتى يناوشه النباح من هنا ومن هناك؟

إنني أترك لأعضاء المؤتمر أن يتخذوا قرارهم في هذا الموضوع المهم...

الثاني: لقد عرضت حقائق إسلامية كثيرة، عجز أعداء الإسلام عن مناقشتها، وأخذوا يوجهون سهامهم إلى قضية الملابس وحدها، وإلى ملابس النساء بالذات! فهل المطالبة بالاحتشام جريمة أو خروج عن القانون؟"

ثم شرحت موقف الإسلام من المرأة، وبينت أخطار فصل قضية المرأة عن الدين، ثم حملت حملة شعواء على الإباحيين وفاقدي الشعور الديني في بلادنا...

واقتربت مرة أخرى من نفوس الأعضاء الذين تضاعف حماسهم للإسلام، وظهر أن اتجاههم إلى تحكيمه قوي!

ولا بد أن أقول هنا: إني وجدت تجاوباً وترحاباً من السيد كمال الدين حسني، على حين كان غيره من المسؤولين يكاد يتميز من الغيظ...!

لكني طالعت الصحف في اليوم التالي، فوجدت عدوى الضلال قد انتقلت إلى بقية الجرائد وا لات، وأن الحملة علي اتسمت بالحدة والقسوة!

وتحرك الشيوعيون داخل المؤتمر مرة أخرى، وسمعت هجاء كثيراً، وتكلمت امرأة كانت وزيرة للشؤون الاجتماعية فوصفتني بما أضحكني! ولم أتابعها لأني وجدتها تلغو بما لا يساوي سماعه!

إن حدة عاطفتي تسيء إليّ كثيراً، وقد حزنت لأني أصبحت مادة لكتاب تافهين، وتيقظت في دمي غرائز القتال، فشرعت أهاجم بضراوة، وأتحدث عن كبار وصغار باحتقار، وأرسل إليّ بعض المسؤولين يطلب مني التحفظ...

وشاء الله أن يشعر أعضاء المؤتمر بأ م أهينوا في شخصي، فكتبوا طلباً للرئيس عبد الناصر أن أُعطي الكلمة مرة ثالثة لأُسكت هذا الضجيج...

حمل الطلب بعض الأعضاء من الصعيد، ومروا به بين الصفوف ليأخذوا إمضاء أكبر عدد من الحضور، فإذا المئات يوافقون، وأحس الرئيس جمال عبد الناصر بالحركة، وكان متيقظاً لكل ما يحدث، وجاءه الطلب، ولم أعرف الرأي في قبوله!

وأخذ الأعضاء استراحة نحو نصف ساعة، ثم عادوا إلى مقاعدهم، وكنت يائساً من أن أتكلم مرة ثالثة، فاخترت أن أجلس في مؤخرة الصفوف...

وعندما التأم شمل الجلسة لاحظت أن الرئيس انصرف!

كنت أسترجع الماضي القريب! إنه من بضع سنين فقط كان رؤساء التحرير الذين سخروا صحفهم لشتمي من رجال القصر الملكي، وبغتة ركبوا عربة هذا الانقلاب المشؤوم، وزعموا أنفسهم طلائع الحرية...!

وافتتح أنور السادات الجلسة، وقال: هناك طلب وقعه كثيرون بأن يعود الشيخ الغزالي إلى المنصة، فتعالى التصفيق، وغلبت صيحات الموافقة كل شيء! فقال السادات في هدوء: ليحضر العضو المحترم، وليتكلم...!

كنت بعيداً لأني في آخر صف، ولما دوى التصفيق تذكرت كلمة لأبي يوسف الفقيه الحنفي: أيها الناس، أريدوا الله بعملكم، فوالله ما أردت غير الله بعمل إلا خذلت، فطأطأت رأسي، وتذكرت ربي، وقلت: أجعلْت الوقفة له، فما أحب الخذلان، وإذا غرني هذا التصفيق المتتابع حبط عملي، حتى لو نجحت في كلمتي وأعجبت هؤلاء الأخوة، فلا قيمة لي بعد أن خسرت وجه الله...!

وبدأت الحديث مع إخواني قائلاً: أهي جريمة لا تغتفر أن أقف إلى جانب الإسلام، وأن أشرح بعض تعاليمه؟ هل الحرية تكفَل لكل من أراد نصرة مبدأ ما؛ فإذا انتهى الأمر إلى الإسلام فلا حرية...!

"أين كانت أصوات الشاغبين علي وأنا أحامي عن المستضعفين، أنشد لهم الكرامة، وعن الفقراء أتطلّب له من القوت، أين كان هؤلاء يوم ألّفت كتابي الإسلام والاستبداد السياسي، في ظل أزمات عصيبة أوقعها القصر بالشعب...!

إنني لم أسمع لواحد من هؤلاء الشجعان صوتا، ولم أر لهم أثراً...!

لقد اعتقلت عاماً في الطور وهم يلهون ويلعبون!

الآن نتحدث عن الإسلام يستباح ـذا الأسلوب؟

يا عجباً، إنه عندما كان الملك فاروق يبحث عن الشهوات كان أولئك المهاجمون لي من رجال الصحافة يشتغلون قوادين للملك الماجن!"

وانطلقت بعد ذلك أتناول موضوع النـزاع، ولا أدري ما قلت بدقة... وإنما الذي أذكره أن الرئيس السادات حاول ثني زمامي، وتذكيري بأني تجاوزت الوقت، فرفضت السماع له، وشفيت مما نالني ونال المؤمنين معي...

وفي اليوم التالي، وكان يوم جمعة، نشرت الأهرام عشر صور هزلية في صفحة كانت فيما يبدو مخصصة للنيل مني، ولكني هذه المرة لم أكترث لهذا الهزل، ولم أعتبر نفسي مهزوما...

وألقيت خطبة الجمعة في الأزهر مختاراً لها موضوعاً أبعد ما يكون عن قضية الساعة، وأحسست أن الزحام شديد جداً، وبعد الصلاة سكنت مكاني دقيقة واحدة، انفجر المسجد المكتظ بعدها بصياح اختلط فيه التكبير بالبكاء وبالهتاف، ورأيتني محمولاً فوق الرؤوس، لا أعرف ما أصنع...!

وحاولت الإمساك بأي عمود يلقاني من أعمدة المسجد، وهيهات! فلما اقتربنا بعد لأي من الباب بذلت جهد اليأس في الإمساك به، وأعانني رجال الشرطة على النـزول بالأرض والاحتماء بإدارة الأزهر، وكان المصلون في المسجد يزيدون على عشرين ألفا، انضم إليهم مثلهم من مسجد الحسين والمساجد القريبة، وانطلقت المظاهرة إلى جريدة الأهرام لتحرقها، وكلما قاربت هدفها تضاعف عددها، ولكن رجال الشرطة استدعوا نجدات كثيفة لحماية الجريدة، فدار الجمهور حول نفسه في غضب رهيب، وقال كبير في الداخلية: لو كانت هذه المظاهرة منظمة أو مدبرة لأحرقت القاهرة...!

عندما أقبل صباح الغد علمنا أن المظاهرات لم تكن مقصورة على القاهرة وحدها، بل إن بعض عواصم الأقاليم تحركت فيها الجماهير مناصرة للإسلام، وناقمة على النيل من علمائه...

ولذلك قرأنا ونحن نضحك ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل يوم السبت، من أن الشيخ الغزالي سير لفيفاً من تلامذته لتهاجم الأهرام!

إن الحشود التي سارت صوب الصحيفة المتجنية، فوق المائة ألف، فهل أولئك جميعاً تلامذتي الذين أوعزت إليهم بما حدث؟

إن أمتنا تحب دينها، وتريد أن تحيا وتحكم وتوجه به وحده! وقد ربت ثقتنا في أنفسنا عندما استأنفنا جلسات المؤتمر، ولم نكترث لما كان يلوح على وجه جمال والسادات من ضيق مكتوم!

ولما تقرر تأليف لجنة لوضع التقرير المطلوب عن الميثاق المقترح، همست في أذن الشيخ سيد سابق أن العمل الحقيقي قد بدأن فإن المهم أن يوضع تقرير تبرز فيه الصبغة الإسلامية لمصر، ويخسر هذا التيار اليساري المنكور...

والواقع أن الجهاد المضني بذل في لجنة التقرير، واستمات فيه الشيخ سيد سابق، مع عدد من أولي الإخلاص والغيرة، وأمكنهم تقليم أظافر الشيوعيين، ووضع التقرير المطلوب...

ومن الإنصاف أن نوضح هنا أن عملنا كله كان سيذهب سدى، لولا صلابة الرجل المؤمن الصبور كمال الدين حسني، فقد أبى المداهنة والعبث، ووفر الحرية كاملة للأعضاء، وهم لا يبغون بالإسلام بديلاً...

ولذلك انمحت الميوعة العقائدية التي تجعل الميثاق المقترح يصلح كما قلنا لدول أوربا الشرقية، ويجعل الشعب المصري مبتوت الصلة بدينه وشعائره...

وأثبتنا أننا على الإسلام نبين، ومنه نستمد، وجعلنا التقرير المحتفي بكتاب الله مهيمناً على ما سواه، ولا بد من طبعه مع الميثاق ليكون جزءاً متمماً له!

وقرء التقرير، ونال موافقة شبه إجماعية! ولم تكن هذه النتيجة متوقعة، ولم يرض عنها جمال عبد الناصر...!

والحق أن الخصومة التي وقعت بين كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر بدأت من ذلك اليوم، واتسعت الهوة على مر الأيام، حتى أُبعد الرجل الذي استمسك بدينه، ودمرت حياته المادية، وعاش بعيداً عن أسباب السلطة!

لو يجد جمال صعوبة في طي التقرير وإهمال إرادة المؤتمر، وفرض ما يريده هو على المصريين...!

أما أنور السادات فهو صوت سيده! كان أقلّ وأذلّ من أن ينأى عن هوى زعيمه قيد أنملة! بل كان معروفاً بأنه الرجل الذي يسلّي ويسري، ويسارع في مرضاة سيده!

وعدت إلى عملي بوزارة الأوقاف، وقلبي مستريح لما بذلت، وإن كنت محزوناً لما تمّ!

شيء ثمين استفدته من هذه المعركة، أن الدعايات التي كانت يقوم ا بعض الإخوان ضدي توقفت، وخرست الألسنة التي استمرأت عرضي حيناً من الدهر...! ولا أكتم أني كنت أهتاج إذا سمعت من يقول: انضم إلى الحكومة أو باع دينه بعرضٍ من الدنيا!

ولا أزال أرى أن معاصي القلوب تفتك بإيمان بعض المنتمين إلى الدين! وأن التماسهم للبرآء العيب أمر يبطل طاعتهم...!

وما أبرئ نفسي من التقصير، وإني لأعلم فقري المدقع إلى غفران الله، ولكني بعيد عما أشاعوه عني، وشاء الله في مواطن كثيرة أن يكشف كذبه من حيث لا أدري!

ولم يلحقني ضر عاجل من موقفي في المؤتمر، ويبدوا أن القوم أمكر من ذلك، فقد تربصوا بي عدة شهور، ثم جاء وزير هبط بي من مدير للمساجد إلى مفتش ا، أي رجع بي القهقري خمسة عشر عاماً في سلّم الوظائف، ونقلني من مكتبي الخاص إلى مكتب به بعض الموظفين والموظفات!

وأجدني هنا مسوقاً إلى ذكر رجل عسكري ولِي وزارة الأوقاف، قبل هذه الأحداث بسنين، هو أحمد عبد الله طعيمة، لم أر مثله حباً في الخير، ورغبة في خدمة الإسلام، وحماساً في فتح المساجد، ودعم الدعوة، وتذليل العقبات أمامها...

جئته يوما –وأنا معتزٌ بتقويته لي- وقلت له: قمت بعمل لله في المحلّة الكبرى لا يجيزه القانون، ولكني ثقة فيك، واطمئناناً إلى عونك فعلته! قال مبتسماً: ماذا فعلت؟

قلت: وجدت الكنيسة التي تقع أمام مسجد أبي الفضل الوزيري، يعاد تشييدها، ورفع أبراجها، وتجديد معالمها، وبدا المسجد أمامها قزما، وعلمت أن أرض الأوقاف حول المسجد سوف تباع بالمزاد، وقد يشتريها إخواننا الأقباط ويتم حصار المسجد، فأمرت الأهالي بالاستيلاء عليها وتوسيع المسجد فوقها، وأثبت ذلك في دفتر الأحوال، وكلفت مدير المساجد بمتابعة التنفيذ وتلقي التبرعات لتجديد المسجد على النحو المعقول!

فأطال الرجل النظر في وجهي وسأل: باسم من مِن الواقفين يكون هذا العقار المراد ضمه إلى المسجد؟ قلت: لا أدري! قال: ابحث على عجل وتعال إليّ...

ولم يمض غير أسبوع حتى كان العقار قد ضم إلى المسجد ضماً قانونياً وصدرت الأوامر بجعل مسجد الوزيري مسجداً نموذجياً... وتم ذلك كله بفضل الله...

وكوفئ الوزير الغيور على الإسلام بإخراجه من الوزارة، وإرساله سفيراً إلى أمريكا الجنوبية...

وعندما خرج الرجل القوي الشجاع من الوزارة تذكرت قول الشاعر:

إن الأمير هو الذي يضحي أميراً يوم عزله!

إن ضاع سلطان الولاية لم يضع سلطان فضله!

وربما نسي الناس كفاح هذا الرجل، لكن الله لا ينسى عمل عامل...!

مرت بي هذه الذكرى وأنا أنزوي في مكتبي المتواضع بالوزارة، بعد ما نـزل بي من ظلم، ثم انضم إلي ذلك أني منعت من الخطابة في الجامع الأزهر! فقلت: لا داعي للعطلة، فلأتفرغ للتأليف...

أتممت في هذه العزلة ثلاثة كتب: الجانب العاطفي من الإسلام، ومعركة المصحف، ودفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ووجدت من جميع العاملين بالوزارة معاونة تامة في العمل الصغير الذي كلّفت به، وإحساساً بالغضب المكتوم لما حل بي من غمط...

غير أن مصيبة لم تكن متوقعة هبطت علي ففزعتني...!

أبلغني الناشر أن الشرطة تحفظت على ثلاثة كتب كانت في المطابع يعاد طبعها، بعد نفاد طبعا ا الأولى هي: مع الله والتعصب والتسامح، أما كفاح دين فقد نقل إلى الداخلية، وتمت مصادرته...!

وشيء آخر حدث، أبلغني أصدقائي أن حظراً صدر يقضي ألاّ أظهر في الإذاعات كلها مسموعة أو مرئية، فإذا انضم ذلك كله بعضه إلى بعض، فالقصد واضح، هو تجميدي مادياً وأدبياً، وضرب حصار خانق حولي...!

والمقلق في هذا الوضع أني كنت بدأت بناء مسكن لي في الجيزة، وسأضطر لعدم الوفاء بما التزمت به! ثم إن نفقاتي أنا ستقلّ بعد أن جف أغلب المنابع!

وأنـزلت بالله حاجتي، وكتمت مخاوفي في أعماقي، ولم تزل ابتسامتي عن فمي أمام أهلي وأصدقائي، وكل يوم يمر يتناقص معه رصيدي، ويتسلل القلق إلى فؤادي، بيد أني أعلل النفس بالأمل، وأرقب من الله الفرج...

وذهب الوزير الذي آذاني، وجاء آخر، لم يلبث غير قليل حتى أرسل إليّ، فصعدت إلى مكتبه، قال لي باقتضاب: دولة الكويت أرسلت تطلبك لتقضي شهر رمضان ا في الدعوة والوعظ! ألديك مانع؟ قلت: لا، فأمر باتخاذ إجراءات السفر!

عدت من الكويت، وقد قضيت شهراً مباركاً، أبيح لي فيه ما كان محظوراً علي في القاهرة، حاضرت في المساجد الكبرى، وتحدثت إلى أمهات الصحف، وسجلت دروساً كثيرة في التلفاز، والإذاعة، وتعاقدت مع الناشرين على طبع عشرة كتب من مؤلفاتي!

ماذا كان على القاهرة لو وسعتني كما وسعت الشيوعيين والملحدين من كل لون...؟

إنني أحتقر من أقصى القلب ناساً يتشدقون بالحرية العقلانية، فإذا تحدث الربانيون الدارسون، وشرعت الجماهير تتدافع إلى ساحتهم، جفّت حلوقهم من الذعر والهلع، وتنادوا فيما بينهم: امنعوا فلاناً وفلاناً من الكلام، وحولوا بين الناس وبينهم حتى لا يسمعوا منهم حجة...

ثم رجعوا في صفاقة نادرة يقولون: الحرية، التقدمية، العلمانية... إلخ!

كأن الحرية لهم وحدهم، والسجون والمنافي لخصومهم في الرأي...

عدت من الكويت، وكنت قبل سفري شديد الوجل من الأزمات الزاحفة علي، وكنت أحفظ حديثاً عن رمضان أنه شهر "يزاد رزق المؤمن فيه"، فسرني أن جعلني ربي في عداد أولئك المؤمنين المعانين، ووفيت بالتزاماتي كلها، ومنحت قصادي ما ألفوا نيله مني، لو يشعر ذو سلطة أني محتاج إلى بابه، فلله الحمد والمنة...

واستدعاني السيد حسين الشافعي، وفهمت منه أني أستطيع أن أخطب الجمعة، واختار لي وكيل الوزارة مسجد عمر مكرم بميدان التحرير، وذهبت إلى المسجد، وبدأت أؤدي فيه واجبي، وما أن علم الناس أني أخطب هناك حتى تدفقوا ألوفاً على المسجد والميدان المحيط به...!

وتكرر اعتراض الداخلية على ظهوري مرة أخرى، وهمس في أذني الأستاذ القرماني وكيل الوزارة، أن أدع الخطابة من تلقاء نفسي بدل أن أحرج السيد حسين الشافعي مع الوزارة المسؤولة عن الأمن!

فكتبت اعتذاراً عن أداء الخطبة، وتوفرت على الكتابة –وهي هواي الأصيل،ورأيت أن أحاضر في المساجد الأهلية، والأندية العامة، وأن أعمل مع العاملين على تقوية الروح الديني، ونشر الثقافة الإسلامية، ومطاردة الانحراف الفكري والخلقي، وشعرت بفطرة المؤمن أن هذا التنقل أفاد، وأن جيشاً من

أهل الإيمان استطاع أن يثب بالدعوة إلى الأمام، فهل يترك الإسلام يتحرك وحده؟ كلا، لقد وقع ما ليس في الحسبان!

أحس أعداء الإسلام أن المصريين متمسكون بدينهم، راغبون في إعلاء شعائره، وإحياء شرائعه، وأ م تحت وطأة القمع ينكمشون، ثم سرعان ما يفيقون ويسمع جؤارهم بضرورة العودة إلى الدين...!

وكانت مصر في أوائل الستينيات تتجه نحو الشيوعية وتطبق أوامر صارمة ضد الأغنياء عموماً، وذهب جمال عبد الناصر إلى "موسكو"، وهناك قيل له: إن ترك الجماعات الإسلامية خصوصاً الإخوان المسلمين ينشطون على هذا النحو، سوف يدمر مستقبل الاشتراكية، فأسرع جمال –وهو لا يزال في موسكو- بإعلان الحرب على الإخوان، وإنذارهم بالويل والثبور...!

وكان الشعار الذي تحركت تحته عساكر السلطة هو محاربة الإرهاب!
والمرء يدهش للتوافق التام بين منطق الفراعنة في العصر القديم والحديث...!

إن موسى لما بعثه الله نبياً قال لرمسيس -فرعون مصر السابق-: فَأَرسِلْ معنا بني إسرائيلَ ولا تعذبهم (طـه: 47)!

فكان جوابه بعد أن رأى المعجزات: أجِئْتنا لِتخرِجنا مِن أرضِنا بِسِحرِك يا موسى (طـه:57).

إن موسى يقول له: ابق وحدك في أرضك... وأرسل معنا هؤلاء الذين ضِقت م! فيكون الرد: أتريد إخراجنا من أرضنا؟ ويمضي فرعون في قلب الحقائق، فيقول: ذَروني أَقْتلْ موسى ولْيدع ربه إني أخاف أنْ يبدلَ دِينكُم أو أنْ يظْهِر فِي الْأَرضِ الْفَساد (غافر:26)!

فرعون خائف من أن موسى يفسد في الأرض!

على هذا العوج في اختلاق التهم، والتماس العيب للأبرياء، قيل في دعاة الإسلام إ م إرهابيون!

ترى، لو قال هؤلاء الإرهابيون لأصحاب السلطة: اقتلونا، ونحن بذلك راضون، على شرط أن تتركوا الإسلام يحكم أمته ويسيرها في كل ميدان! أيرضون؟... كلا، لأن الحرب ضد الإسلام ذاته!

وفي سبيل ضرب الإسلام ضربة تشرد القريب والبعيد، اعتقل في ليلة واحدة ثمانية عشر ألفاً من العاملين في الحقل الإسلامي، وكنت أنا واحداً من هذه الآلاف!

وقبل أن أصف أحداث هذه الليلة، أريد أن أذكر السبب المباشر الذي أدى إلى اعتقالي، وزجي في سجن "طرة"...

طُلبت إلى الإذاعة، فلما ذهبت وجدت عدداً من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليقات محددة: إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين، وتحذير الأمة من الثقة م أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم ذا الواجب الوطني على عجل!

تملْملت فوق كرسي ضائقاً، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني، ثم كلفوني –بوصفي مفصولاً من الإخوان- أن أبدأ التسجيل!

كان جوابي حاسماً: أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه! ومستعد لإرشاد المخطئين، حكاماً كانوا أو محكومين، لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ، أما شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح...!

قيل: إ م فصلوك من جماعتهم؟ فلماذا تبقي عليهم؟ قلت: إذا استضعفوني أيام قو م، فلن أستضعفهم أيام حريتي...!

وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي!

جاءت الشرطة بعد منتصف الليل بساعة، وطرقت الباب ففتحت، ودخلوا يديرون عيو م في أرجاء المكان، ثم أفهموني بأدب أن أجيء معهم! وعرفت الوضع، وكانت إحدى بناتي قد استيقظت، فصاحت: بابا، فأمسكتها بلطف، وقلت لها: لا تخافي، سأعود بسرعة إن شاء الله، وقلت لزوجتي: أعدي حقيبة فيها عدد من الثياب...

وانطلقت السيارة بنا إلى سجن طرة...

نظر الضابط إليّ نظرة سيئة، ثم أمرني أن أخلع ملابسي وأرتدي ملابس السجن فاستجبت، ثم نظر مرة أخرى وصاح بغضب: في رجلك جوربٌ؟ ممنوع! فخلعت الجورب، واقتادني اثنان من الجنود إلى "الزنزانة" المعدة لي، وأرياني داخلها، على ضوء خافت، "جردلين": أحدهما لقضاء الحاجة، والآخر غطاء! ثم أوصدا الباب وتركاني وحدي في ظلمة يضيئها جو السماء من خلال كُوة في السقف...

كأنما حدث كله مباغتة بعيدة التصور! فبقيت مكاني أفكر كيف سأحيا هنا؟ وعلى أي نحو وهل سأعذب كثيرا؟ وبينما أنا في استغراقي سمعت أذان

الفجر، فصليت إلى ما ظننت أنه قبلة، ولفَفْت حذائي في سراويل معي، وجعلته وسادة، واستغرقت في النوم، بعد أن قلت لربي: جعلت زمامي في يدك، آمنت بك وتوكلت عليك، "رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين"، لن أفكر في أسرتي أبداً فهي في ودائعك، اخلفني في أهلي بخير...! ثم رحت في سبات عميق!

وصحوت مع مطلع الشمس، فإذا خنفساء إلى جواري تزحف على الأرض المليئة بالحفر والشقوق، فقلت لها ضاحكاً: متى اعتقلت أنت الأخرى؟ امضي بسلام فلن يمسك مني سوء...

وبدأت قراءة القرآن الكريم، واضعاً نصب عيني أن أختمه كل أربعة أيام...

كان الأكل رديئاً جداً، ولكنه يقيم الأود مهما تقزز المرء عند تناوله! أما المشكلة التي خشيت منها على حياتي، فهي البرد الذي يهبط من كوة مفتوحة أبداً، لأ ا المنفذ الوحيد إلى الدنيا، ففي أثناء الليل أشعر بتيار يريد فتح جنبي الأيمن أو الأيسر كلما تقلبت، وأين المفر؟...

وتضرعت إلى السجان بعد أن آنست منه نظرات عطف أن يصنع لي شيئاً، فأتاني بقطعة خيش كبيرة، جعلتها على "الأسفلت"، واتخذت "البطانيتين" المهلهلتين غطاءً...!

وأحس الإخوان المسجونون بمقدمي، وكان بعضهم يتطوع مع الموظفين الرسميين في الخدمة والنظافة، فاتفقوا على إراحتي من كنس المكان الذي أعيش فيه، ومن رمي فضلاته بعيداً، وعرفت بعد أن الذي قام عني ـذه المهمة مدرس بإحدى المدارس الثانوية...

في غبش الفجر يوماً ما جاء المدرس النبيل، ومعه أخصائي اجتماعي معتقل مثله،وأخذا يؤديان عملهما! ونظرت إلى أنضر شباب مصر يهانُ عمداً لأنه مسلم! وهزني الألم، بيد أني تماسكت حتى انصرفا، فوضعت وجهي تلقاء الجدار، وبكيت في صمت! فلما سمعت خفق أقدامهما عائدين أصلحت هيئتي بسرعة، وكلّماني فرددت عليهما، ونم صوتي عما بي، فإذا هما يقولان: أكنت تبكي؟ فقلت: والله من أجلكما!

فضحكا وقالا: لا تعذيب هنا، نحن هنا في راحة، التعذيب في السجن الحربي، وفي القلعة، وفي... وذكرا أماكن أخرى... الأهوال هناك، أهوال من وراء الخيال!

إنني في كتابي قذائف الحق نقلت أطرافاً من صنوف النكال الذي نـزل بأولئك الشباب فهلك، وفقد من بقي صوابه أو سكينته، أو طعم الحياة نفسها إلى أن يلقى الله، وذلك كله لتنصرف الأمة عن دينها، لتنسى الإسلام، وتسكت عن المناداة بكتابه وسنته!

ومع المحن السود التي مرت بالعاملين لهذا الدين إبان هزيمته؛ فإن ألوفاً مؤلفة من الشباب الأبرار ظلوا أوفياء للحق مخلصين لله، والغريب أن ضرب الإسلام وبنيه أصبح عادة مألوفة لكل وغد يملك السلطة، هذا يخدم الشيوعية، وذاك يخدم الصليبية!

وكلتا الجبهتين تخدم اليهود، وترى أن إسرائيل خلقت لتبقى... وكلتاهما تعتمد في منهجها السياسي على عقيدة صلبة، أما العقيدة عندنا –وهي الإسلام- فمنكورة محصورة، يستطيع أي تافه أن يتناولها بالهمز واللمز، ثم يمضي لشأنه كأنه لم يفعل شيئاً!

وعدت من خواطري إلى الواقع الذي يحيط بي، وتذكرت أهلي وأولادي وعزلتي، ثم لمت نفسي سريعاً على هذا الضعف، إنني استودعتهم الله، فلا معنى للخشية، ولقد بقيت في منفى الطور قريباً من عام فماذا حدث لهم؟ وهذا فلان ترك ابنته طفلة، ثم خرج من السجن فوجدها تزوجت، إنه غاب عنها طويلاً، فهل غاب الله عنها لحظة؟ كلا! وعادت السكينة إلى نفسي، وقررت أن أنكب على تدبر القرآن الكريم ما بقيت هنا، وأن أضع نصب عيني قول الله لنبيه: واذْكُرِ اسم ربك وتبتلْ إِلَيهِ تبتِيلاً. رب الْمشرِقِ والْمغرِبِ لا إِلَه إِلا هو فَاتخِذْه وكِيلاً (المزمل:8-9).

وشرعت في إنفاذ خطتي العلمية، مستبعداً الأمل في مخرج قريب! وبعد أن صليت العشاء سمعت ضجة غير معتادة، وانفتح الباب، وتدلّى سلك من الكوة فيه مصباح كهربي، ودخل ضابط كبير عرفت أنه رئيس المعتقل، وسألني:شيخ غزالي: تطلب شيئاً؟ قلت: الملابس عندكم! فأمر فجيئ ا! وشرعت أرتديها، واقتادوني إلى إدارة السجن، فشربت كوباً من الماء لأول مرة من عشرة أيام في

إناء زجاجي! ثم نقلتني سيارة إلى وزارة الداخلية، فقلت في نفسي: الآن يبدأ التحقيق...

ووقفت أمام ضابط جالس في ركن الحجرة، وقفت على بعد منه، و يأت للأسئلة، وإذا هو يقول لي:تفضل! فنظرت حولي فلم أجد كرسياً أجلس عليه!

فأعاد الأمر: تفضل! فقلت له: ماذا أفعل؟ قال: تفضل عد إلى بيتك!

فخرجت وأنا لا أصدق نفسي ولا ما حولي، وسرت قليلاً بجوار الوزارة فوجدت عمارة شاهقة مكتوباً عليها اسم الجلالة مناراً بالكهرباء...

شعرت برغبة عميقة أن أقبل اسم اللّه لكن كيف؟ طويت حبي في قلبي، وأخذت سيارة إلى بيتي، وكان منظر القاهرة غريباً أمام عيني، لقد كنت في الجب، والآن أن على ظهر الأرض، وعلى قيد الحياة، ما أجمل الحرية! وما أجملها مع الأمن والإيمان!

إذا كان الله قد فك إساري فليكن شكري لنعمائه أن أسعى في فك إسار الآخرين، لأقل للناس: إن الله حق، وإن الجهاد في سبيله مضمون الثمرات في الدنيا والآخرة، صحيح أني أهون المؤمنين عذاباً، بيد أني أسرعهم إلى الله كلما دهمني كرب، ومازلت أرجو عافيته، وأفرح ا لنفسي ولغيري من عباد الله...!

وفيما أنا أستعد لاستئناف نشاطي، جاء بيتي المهندس أحمد عبده الشرباصي، والشيخ أحمد حسن الباقوري، فخفَفت لاستقبالهما... فقال لي الشيخ الباقوري بعد التهنئة بالإفراج: تدري من أخرجك؟ فقلت بصوت عالٍ عجل متحمس: الله!

وكانت اللهجة مفعمة باليقين والتقدير لرب العزة!

فساد صمتٌ طويل، احتراماً لهذا الإيمان، ثم قال المهندس الشرباصي بلطف: حقاً إن الله وراء كل فضل، وهناك مفاتيح للخير، تكون سبباً فيه، وهناك من أجرى الله علىيده! قلت في استغراب!: من؟ قال: جمال عبد الناصر، إنه لما حضر من مؤتمر المغرب، بلّغ بمن اعتقُلوا في غيابه، وكنت أحدهم، فسأل: ماذا حدث منه؟ فلم يلق من أحد جواباً! فأمر بإخراجك فوراً... فنفّذ أمره ليلاً ساعة صدر...!

ألجم هذا الخبر لساني، وكان له دوي هائل في نفسي، ثم قلت: إذن سأذهب إلى قصر عابدين، وأكتب شكري في سجل الزيارات... غداً الجمعة، سأؤدي واجبي بعد غد!

ولكن يوم السبت لم يجيء حتى أُلقي القبض على زوج ابنتي الكبرى، وزج به في السجون مع آخرين، فقلت: أهذا يليق؟ علام الشكر بعد هذا؟ لن أذهب!

وبقي صهري في السجن أربعة أشهر، ثم أفرج عنه،ما سئل في شيء، ولا نسب إليه شيء!

أحسست أن العمل للإسلام مضطرب، وأن التقوى عقبة أمام صاحبها، تعترض طريقه، فلا يمضي إلى الأمام أبدا، وأن الكفاية الشخصية جريمة ترشح من أصيب ا للخلف، والاستخفاء، وخلَت مساجد من الشبان فما يصلي الفجر فيها إلا الشيوخ الفانون!

الحكم الفردي يأبى أن يسمع من بشر هذه الكلمة:

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة علي يداً أُغضي لها حين يغضب!

إنه يفضل رجلاً له زلة يسترها عليه، لينكّس ا رأسه أبدا، ويقفه أمامه عبداً، أ/ا ذو الكفاية الشامخ الذي يناقش طباً للحقيقة ويقررها غير هياب، فهذا لا مكان له، ولا ينبغي أن يبقى...!

العملة السائدة هي الملق والزلفى، ألملق والزلفى، أما الخبرة والنـزاهة فتلك عاهات لا أوسمة!

وقد فُرضت هذه السياسة على كل شيء فيمصر، وأول الميادين نصيباً من هذا البلاء، الجيش، ثم الأزهر...

كنت واحداً من الذين حاربوا الإقطاعيين أيام الملك السابق، وها أنا ذا في عهد الثورة، وقد ذهب الإقطاع القديم فماذا أرى؟

إن عبود باشا اغتنى من إنشاء شركات أسمدة، وبواخر، وسكر. إلخ، فكيف اغتنى فلان، وأصبح عضواً في مجلس الشعب؟ قالوا: من تجارة المخدرات...!

أكان الأول عدوا للشعب لأنه اغتنى من طرق قانونية، والآخر صديقاً للشعب لأنه اغتنى عن طريق الحرام والملق والرشوة؟

ثم ما بال أولئك المنفيين في الواحات والسجون النائية؟ أيكتب الشقاء على كل امرئ منهم، لأنه قال: أريد الحكم إسلاميا!

إلى متى يرسفون في قيودهم؟

تساؤلات كثيرة كانت جس ا نفسي، وأنا أمشي على صراط أحد من السيف، وأدق من الشعرة، كي أستبقي للدعوة وجوداً وسط هذا الظلام...!

ثم جاءت سنة 1967، وجنينا الحصاد علقماً، لكني ما فكرت قط في أن الخزي الذي نـزل يحمل كل هذا السواد، ويلفنا في عارٍ لا أول له ولا آخر...

يا أسفاً على بلدي المحروب وأمتنا المغشوشة؛ في عشرين دقيقة فقط، دمرت مطاراتنا كلها، واحترقت طائراتنا وهي جاثمة على الأرض!

ولما كان لدينا أعظم جهاز للكذب في دنيا الناس، فقد خرج الغلام الموجه بجناحيه: الصحافة والإذاعة يقول للناس: إننا دمرنا طائرات اليهود...!

وما هي إلا أيام تعد على الأصابع، حتى كان الجيش بين قتيل وأسير وهارب، ما أغنى الكذب عنه شيئاً!

غالطت نفسي يوماً، وقلت لها: صحيح أن الحريات لا بد منها لضمان مصالحنا المادية والأدبية، أما يمكن أن يكون تول العسكر الحكم ضرورة مقبول لمواجهة إسرائيل؟ سيبنون جيشاً قوياً، ويوجهون مواردنا كلها لكسب الحرب، وهذا ميدا م الذي تخصصوا فيه!

وجاءت الأحداث تقول:إن الحكم الفردي الجائر لا يكسب معركة أبدا! بل الغريب أن أعظم هزائمه كانت في الميدان الذي تخصص فيه...!

إن جمال عبد الناصر لم يكسب معركة قط، إلا المعركة التي أدارها ضد إخوانه، وضد الإسلام، وضد كرامات الناس!

في هذه المعركة قدر على تخريب آلاف البيوت، وسجن الألوف من الأبرياء، واستطاع أن يدفن في أرض اليمن مائة ألف مسلم، عدا الذين قتلوا سراً وعلنا في مصر!

أسدٌ علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفي الصافر...!

هلاّ برزت إلى غزالٍ في الوغى! بل كان قلبك في جناحي طائر...!

وإن تعجب فاعجب لجهاز لكذب الذي بقي يعمل دون توقف...!

قيل لنا: أتظنون أننا ا زمنا؟ كلا، إن العدو لم يحقق هدفه! إنه كان يريد إسقاط جمال فخاب سعيه!

أرأيت صفاقة أوقح من ذلك؟

وعلمت بعد أن هذا الإسفاف منقول عن دعايات البعث العربي، بعد الهزيمة التي مني ا هو الآخر!

إن إسرائيل تدفع أضعاف ميزانيتها بضع سنين، كي يقع انقلاب عسكري من هذا الطراز، في كل بلد عربي...! لأنه يضاعف رقعتها،ويؤكد سلامتها، ويحفظ حاضرها ومستقبلها...

وفي الأزهر والأوقاف أخذت الدعاية تعمل تحت عنوان:"نكسة أحد"! بالله ما صلة هزيمة 1967 بما أصاب المسلمين في أحد؟

ما صلة السكارى والحشاشين، بالصديقين والشهداء؟

ما صلة ناس لم يخسروا شبراً من أرض، ولم يضيعوا ساعة من الوقت بعد خطأ تورط فيه تعضهم، فاحتشدوا على عجل، وخرجوا يطاردون العدو الذي أصاب منهم غِرة، ما صلة هؤلاء بمن فقدوا كل شيء دون سبب واضح إلا الغفلة والسف؟

إن الدين مرغ في الوحل كي يرضى الحاكم الصغير عن بعض الناس...!

الواقع أن حالة الجيش كانت رديئة، لأن أحسن الكفايات أبعدت عنه عمداً، ولو تمّ تحقيق نــزيه في حالة مصر كلها، لظهر أن مصر بعد ربع قرن من الانقلاب العسكري، كانت تترنح من الناحية الروحية والخلقية، والاجتماعية والاقتصادية...

وإذا كانت الظروف قد كشفت تخلفنا السياسي والعسكري، فهي المصادفات التي أزاحت الغطاء عن المستور.

ورأيي أننا تقهقرنا إلى أيام الخديوي إسماعيل، وأن تخلفنا الحضاري لا يستره ازدياد عدد السكان، وارتفاع المقادير المستهلكة من الطعام والشراب...

لاحظت أنا الحس الديني عند المصريين جعلهم يردون الهزيمة إلى هجران الدين ومحاربة أهله! فماذا فعل جمال عبد الناصر ليعلن انعطافه إلى الدين، وصلحه مع الله؟ انتظر أول حفل لمولد النبي ﷺ، فذهب إلى مسجد الحسين ليشارك فيه! ذهب بعد صلاة الغرب، وانصرف قبل صلاة العشاء!

إن الرجل انقطعت علاقته بالإسلام من أمدٍ بعيد، وأظن ذلك يرجع إلى صداقته مع تيتو وسوكارنو و رو وغيرهم، فقد حسب أن أولئك الرهط من الرؤساء على درجة عالية من الثقافة والمكانة، فأحب التشبه م، والنسج على منوالهم!

ولم تكن لديه حصيلة من المعرفة واليقين تنأى به عنهم، فألحَد مثلهم ليكون عظيماً هو الآخر!

ولعل مما أعانه على مروقه شيوخ الأزهر الذين ازدلفوا عنده طلاب دنيا... ولو كان فيهم من يهاب الله لتماسك الإيمان قليلاً في نفس هذا البائس... وحدثت بعد الهزيمة تمثيلية الاستقالة والنكول فيها، ورأى الناس في مجلس الأمة المصري منظراً نقِلَ إلى القارات كلها لما يصرخ به من دلالة مهينة، فقد وقف عضو في المجلس يرقص! لعودة الرئيس في استقالته...!

والعضو الراقص يفعل فعلته تلك وعشرات الألوف من جنودنا أسرى لم يطلق سراحهم، وآلاف القتلى والجرحى يملأون البيوت أحزاناً...

إن هذا العضو لا يحسن تمثيل نفسه ولا أسرته، ولكن النظام الذي وضعه الحاكم الفذ الذي استكثر من هذا النوع، وجعله –وهو الجدير بأن يحجر عليه- قواماً على شؤون الأمة!

إنه يرقص لأنه سيبقى هو، فلو جاء حكم شرعي لا زيف فيه، لعاد إلى الفلاحة أو إلى أي حرفة آلية يأكل منها، وحسبه ذلك...

إن الاستبداد الأعمى يحتاج في سناده إلى أشخاص غير طبيعيين يتبادل معهم المنفعة، يسترون نقصه ويتجاوز عن قصورهم، ويتعاونون جميعاً على قيادة القافلة... إلى الهاوية...

الحق يقال إن سوق الجهل نفقت في هذه السنوات العجاف، انهزمت الرجولة والخبرة والديانة، وتقدم مجيدوا الانحناء والتزوير والاستغلال!

إنني أعتبر أن جمال عبد الناصر مات سنة1967، وإذا كان قد تأخر سنتين عن ترك هذه الدنيا، فإنه على أية حال ورث العرب عاراً تسود له الوجوه، وورث اليهود نصراً لم يحلموا به يوماً، وورث المسلمين مشكلات أعقد من ذَنب الضب...!

مع أنور السادات

عدت من محاضرة تدريبية لأئمة المساجد إلى وزارة الأوقاف، كي أنجز الأعمال الإدارية المطلوبة مني، فوجدت موظف الاستعلامات ينتظرني بصبر نافذ، ويقول: إن الوزير انتظرك كثيراً لتذهب معه إلى رئيس الجمهورية، وأوصى أن تلحق به فور مجيئك، فإنه وشيخ الأزهر على رأس وفد سيلقى الرئيس السادات!

وكان الموظف من الإخوان، وكان حريصاً على ما يراه الخير، فلما وجدني فاتراً في الاستماع إليه، أقسم علي أن أذهب، وأمر سائق السيارة أن ينطلق بي للحاق بالوفد...

إن أنور السادات لم يكن أفضل زملائه بعد جمال عبد الناصر، ربما كان أقلّهم، غير أن الأقدار جاءت به، برغم أنوفهم جميعاً، وقد قبلوه على مضض، وزين لهم الرضا به أن الأمور ستكون في أيديهم، أي أنه سيكون رئيساً صورياً...

والحق أن الجيش كان في أيديهم، والشرطة، والإعلام، وكل ما يورث القوة، على حين كان السادات مجرداً من أي دعم! ومع ذلك فقد ا زموا أمامه، وتغذى م قبل أن يتعشوا به...!

ما السبب؟ ألذكاء السادات ودهائه؟ لقائل أن يقول ذلك! أما رأيي فهو أن خذلان الله للقوم حرمهم من كل توفيق، فانتحروا، ولا أقول: انتصروا! إ م جميعاً اضربوا عن العمل ظانين أن أجهزة الدولة ستتوقف!

فما توقف جهاز، بل ظل كل شيء يدور وفق العادة، كما ظل جن سليمان مسخرين في العلم، يتلقون الهوان، وسليمان ميت!

وانتهز السادات الفرصة، وتفاهم مع بعض الرجال الناقمين، واستولى على السلطة، وزج بخصومه في السجن جنباً إلى جنب مع الإخوان المسلمين...

وكان منظراً عجباً أن الذين كانوا يضربون الإخوان أمس، يتلقون العذاب معهم اليوم!

وبعد ما انفرد السادات بالسلطة، هرعت الوفود للتأييد! ألا ما أحقر الحياة! وقادتني السيارة على عجل فلحقت بوفد الأزهر، وعلى رأسه الشيخ محمد الفحام، ووفد الأوقاف وعلى رأسه الدكتور عبد العزيز كامل...

والواقع أن استقبال السادات بالترحاب كان صادقا، فإن العصابة الذاهبة ما تركت وداً في قلب، وبديهي أن يعد الرئيس الجديد بتغيير شامل، وأن ينتظر منه الخير!

كنت أنا حاضراً بجسدي، أما فكري فهو سارح في ذكريات مضت عليها سنون، لكن الرئيس السادات لما وقع بصره علي، حياني بتقدير خاص، وتساءل: أين أنت...؟

وفهم الحاضرون أني موضع الرضا، فعاملوني باحترام أكثر! وقد فهم السادات من الدكتور عبد العزيز أن يضم إلى ذلك إعطائي سلطات وكيل الوزارة في عملي...!

قررت أن أؤدي عملي الجديد بأمانة وقوة، وأن أنوه بصنيع الرئيس معي وأشكره علانية!

إن الجهود المبذولة لخدمة الدعوة في وزارة الأوقاف حسنة جداً، وقد تعاونت فيها قوى كثيرة، فنحن ندرب كل إمام شهراً تقريباً في المدينة الأزهرية التي تعيش فيها البعوث الإسلامية...

في مبنى خاص يجتمع عشرات الأئمة، ويتلقون المحاضرات في العلوم التي لم يستكملوها في الأزهر، ويعطيهم أعظم المفكرين ثمرات تجار م، ويظلون في عزلتهم العلمية هذه المدة، ثم ينصرفون إلى وظائفهم بعد اختبار يفيدهم في مستقبلهم...

وهناك نشاط علمي آخر، ففي كل عام تجري مسابقة في عدة كتب مختارة، توسع أفق قارئها، وتزيد خبرته بعمله، ويعطى بعدها جائزة حسنة بعدما تختبر معلوماته...

وقد رأينا أن ننتقل نحن إلى الأقاليم،فنجتمع برجال الدعوة شهرياً لنتدارس ما ينبغي سلوكه لأداء الرسالة على وجه أفضل...

ورأينا إمداد المساجد بمكتبات تيسر الاطلاع وتقرب المعرفة...

وقد تعاونا مع أهل الصدق في النهوض بالدعوة، فإن الشكليات المرعية تقتل الحقيقة، وتعصف باللباب، بيد أن أهل الصدق قليلون...

أذكر أن وكيل الوزارة كلفني يوماً أن أضع خطبة محترمة في تحديد النسل، لأن المشروع موشك على الفشل! فقلت له: إن مشكلة الانفجار السكاني في العالم لا تحلّ على حساب المسلمين وحدهم! قال: ماذا تعني؟ قلت: التعليمات صدرت لغيرنا أن يتكاثروا، فلا أعمل أنا على تقليل المسلمين!

فقال في عبوس: أنت موظف، وقد أمر الرؤساء بشيء فيجب تنفيذه!

فقلت في صرامة: أنا لست موظفاً في بيت أحد الرؤساء، أنا وأي رئيس موظفون في جهاز إسلامي حسيبنا فيه الله، فأنا أرعى ربي قبل أي امرئ آخر، أنا ورئيس الدولة نأخذ مرتباتنا من وعاء واحد، من مال المسلمين، أنا لا آخذ مرتبي من كيس أحد حتى أجعل ولائي له من دون الله...!

فأشاح معرضاً، وانصرف مغضباً، وانصرف مغضباً، وبعد أيام أرسل إلي، وقال: يا سيدي كتب الخطبة غيرك! قلت: ليكتب من شاء ما شاء، أما أنا فلا أبيع ديني لأحد...

إنني أكره الشيوخ الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهلاء، إ م يدورون –في القاهرة وفي كل عاصمة- بذممهم، كما يدور سائقو سيارات الأجرة بعربا م، يتلفتون:هل من راكب؟ قبحهم الله، وقبح من كلّفهم، وقبل منهم...!

وفي أحد الأيام جاءني صديق كثير الدعابة يقول لي:لقد وقعت في شر أعمالك! أتدري أن الدكتور عبد الحليم محمود عين وزيراً للأوقاف؟ قلت: وأي ضير في هذا؟ قال: ألم تكتب في مجلة لواء الإسلام تصحيحاً لحديث نشره؟ قلت: بلا! ولو أن امرؤاً صحح لي خطأ بنية حسنة ما وسعني إلا شكره! قال:سنرى! ودخل الدكتور عبد الحليم الوزارة، وخشيت أن أكون بين مستقبليه حتى لا يقع ما يسوؤني!

وبعد قليل جاءني رسول من الدكتور الوزير يطلبني، فذهبت إليه، فأخذني ناحية وقال لي: إنني أريد أن أبدأ عملي في وزارة الأوقاف بخدمة كتاب الله، فأُعلِن عن مسابقة بين طلاب الأزهر، وأرتب جوائز سخية لمن يحفظون القرآن الكريم، وأريد أن أمضي القرار الوزاري بذلك اليوم!

فحمدت له هذا الاتجاه، وتمّ إنجاز ما ينبغي، وافتتح الرجل الطيب أعماله بتقديم ذلك الخير للمسلمين! لقد كانت علاقتي به حسنة، وكان مستحيلاً في شمائل الرجال أن يضيق بتصحيح علمي قمت به...

وأرسل إليّ الدكتور عبد الحليم بعد ذلك، يخبرني أنه قد وقع اختياره علي، لأخطب الجمعة في مسجد عمرو بن العاص، فقلت له: إنه ليس بمسجد...! لقد تغيرت معالمه، فأصبح أرضاً فضاء بين جدران بالية، وكثيراً ما تطفح مياه ا اري في صحنه!

قال: ولهذا اخترتك! قلت: لماذا لا أعود إلى إلقاء خطبة الجمعة بالأزهر، وقد ظللت بضع سنين أتطوع بذلك؟ قال: اليوم الأربعاء بعد غد سأصلي وراءك في مسجد عمرو بن العاص، فاستعد!

وجاء يوم الجمعة، وكنت في المسجد مبكراً، لأشرف على يئة مكان للصلاة! كانت أكوام القمامة حول المسجد تصل السقف بالأرض، وكانت

هناك سحب من الدخان تغطس المسجد من "الفواخير" المبعثرة إلى جواره، وكان صحن المسجد قطعة من صحراء مهجورة، يشيع فيا التعرج والالتواء، ونظرت إلى المساحة الشاسعة التي تقع بين أجنحة المسجد المتداعية، ثم قلت:ماذا أصنع في هذا المكان الذي تعوي فيه الرياح...

وصلّيت مع الدكتور وألقيت خطبة عادية، ودعا لي هو بخير! وبدأنا الكفاح الصعب، فإذا المسجد يتضاعف رواده، وبعد أن كانوا بضع عشرات لا تصح صلاة الجمعة م –في بعض المذاهب- أصبحوا مئات، ثم آلافا، وقدرت وزارة الداخلية المصلين في بعض الجمع بثلاثين ألفا..

والسر أني اهتممت بالموضوع الذي أعرضه على الناس، وإذا تجاوزنا المناسبات التي تفرض نفسها، فإن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم كان شغلي الشاغل، وقد تأسيت في أسلوب العرض، بالشيخ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز، في كتابه النبأ العظيم.

والحق أن المصلين يكرهون الخطب التي ترسل للآذان رنين الفراغ، أو التي تتضمن موضوعاً سياسياً تافها...

إنني أنا استفدت مزيداً من العلم والتدبر في كتاب الله، والارتباط بالله سبحانه وتعالى، إذ كانت الخطبة ذكراً لله، وإحياء لأوامره.

والرجل الذي يرجع إليه الفضل في عمران المسجد هو السيد حمدي عاشور الذي أمر بتنسيق الميدان حوله، والذي أزال مصادر الدخان، وسخر النقلة فحملوا بعيداً عن المسجد نحو ألف عربة من القمامة، ثم ألّف لجنة تتولى البناء لما دم، والصيانة لما أهمل، فإذا المسجد مثابة للمسلمين من كل فج، ومدرسة يلتقي فيها الجامعيون أساتذة وطلاباً، ويقصدها العابدون من الوجهين القبلي والبحري...

ولما كان السيد حمدي عاشور محافظاً للقاهرة، فإنه أُبعد عن منصبه من أجل هذا الشعور الديني الغالب!

وفي أيامي الأخيرة رأى الأستاذ الدكتور زكرياء البري أن يكشف الحيف النازل بي، وأن يجعلني وكيلا لوزارة الأوقاف، وقدر على إقناع أنور السادات بذلك؛ وأنا أرى أن المناصب فرص متاحة لعمل خير كثير، وكلما كبر المنصب كانت دائرته أرحب في نفع الأمة، وما أخشى أن أكون في منصب ما، ما

دمت أنوي تسخيره فيما أنشئ من أجله، والمناصب أنشئت للنفع العام وحده...

وسألني أحد الناس: لمن سيكون ولاؤك؟ قلت: لله بداهة! قال: وإذا وكّلت بمدح الحكام وتسويغ سياستهم؟ قلت: ليس هذا عملي، أنا أعمل للإسلام وحده!

قال: إنك تعرف السادات وتنقد سياسته! قلت: ولم أتغير...! فمضى عني يائساً...

ولما بدأت تسلم عملي، كان الأمر أعجل مما أتصور، فقد واجهني اختبار لم أر معه بداً من ترك منصبي، مع حرصي على أن أبقى فيه لأخدم ربي وديني! لقد تركته بعد يومين اثنين على طريقة "ما سلّم حتى ودع"!

إن الرؤساء في أمتنا المحرومة يحسبون أ م اشتروا رجلاً عندما أسندوا إليه منصباً، وقد نظرت إلى ميدان الأعمال الدينية والأنشطة الإسلامية فوجدت أن الذي تخير الرجال في هذا الميدان كان حاذقاً في رمي الإسلام بكل مصيبة!

وما هي إلا أيام حتى كان النشاط الإسلامي كله في مهب عاصفة هوجاء تركته شذر مذر...

وقال لي أحد العارفين بالسياسة: كان لا بد أن يقع هذا الدمار في دوائر العمل الديني، فإن الرئيس السادات عاد من أميركا بغير الوجه الذي ذهب به! قلت: كيف؟ قال: إن اليهود يطلبون أن تكون العلاقات بينهم وبين مصر طبيعية، لا عداء ولا جفاء!

ويقضي هذا بتغيير مفاهيم دينية وتاريخية، وتحوير أوضاع اجتماعية واقتصادية...!

وما دام التيار الإسلامي في مصر قوياً نامياً مهيمناً على الشباب، ومؤثراً في مجرى الأمور على النحو المشهود في مصر، فمعنى ذلك كله أن معاهدة "مخيم داود" التي فصلت مصر عن العرب قد فشلت! وأن أيام السادات معدودة بعد هذا الفشل!

قلت: كأن الرجل بضرب الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية يريد توكيد وجوده، واستبقاء حياته، وإشعار بين إسرئيل –ومن ورائهم أميركا- بأنه قوي جدير بثقتهم، قال: ذلك ما يقصد، وهذا سر صياحه: أنا صاحب القرار، أنا وحدي! أنا سأعلمكم كيف تحترمون الحكام! وهو سر حلفه بعد ما

اعتقل رئيساً للإخوان:والله لن أرحمه...! وسر تعليقه على حبس الشيخ الذي ندد بكثرة استراحاته، فقال بعدما أمر بسجنه: إنه مرمي في السجن كالكلب!

يقولون: إن طالب القوت ما تعدى، ويبدو أن طالب الرياسة كذلك، يفقد العقل والخلق والدين وراء ما يشتهي!

كل هذا الهوان ينــزل برجال الإسلام لأ م يرفضون الصلح مع اليهود...!

والطريف في تلك المأساة أ ا تتم باسم الشعب، أي شعب؟ لعله الشعب اليهودي!

الملاحظ على السادات أنه تحت عنوان كراهية العيب ألغى الرقابة الإدارية في مصر، وغض الطرف عن فضائح مالية...

وتحت عنوان تقاليد القرية غَشِي أحفالاً راقصة يسهل فيها تقبيل النساء وكسر التقاليد القروية والمدنية! والمعروف أن امرأته من أسرة مالطية هاجرت إلى مصر أخيراً، وقيل إ ا اعتنقت الإسلام...! والأمر عندي موضع ريبة...

إنه رجل غريب الأطوار، ندع حسابه إلى الله...

تعريف موجز بكتب الشيخ محمد الغزالي

1) الإسلام والأوضاع الاقتصادية

تقع الطبعة السابعة من هذا الكتاب في 214 صفحة وقد صدرت عن دار الصحوة (القاهرة) 1987, وكانت الطبعة الأولى من الكتاب عام 1947، أول ما أصدر الغزالي من كتب، وقد كتب المؤلف مقدمة الطبعة السابعة مؤكداً أن في الكتاب لمحات وجب إعادة النظر فيها، وأن كثيراً من مواطئ الأقدام تحتاج على تبيين، وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، مع ما أفاده المؤلف من تجربة العقود الماضية

ومن عناوين الكتاب: الطبقات المترفة والطبقات البائسة، الصراع بن الخير والشر، هل للرذائل أسباب اقتصادية؟ هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي، سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة، ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام، هل تغني ضريبة الأرض عن زكا ا؟، ا تمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين، قيمة العقل والدين.

2) الإسلام والمناهج الاشتراكية

يقع الكتاب ف ي270 صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة) 1960، وهذا الكتاب صيحة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر ومن ديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة ممتلئة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد موقفه من العلم والنظام السياسي، والنظام الاقتصاديين والنظام الاجتماعي ومواقفه من المذاهب الحديثة.

ومن أبرز عناوينه: الإسلام في أوطانه، شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد، التأمين الاجتماعي، مجتمع مثالي، عمل الدولة، فلسفة الغنى والفقر، القعود عن الدنيا هد للدين، الفساد السياسي أخبث علل المسلمين، توزيع الملكيات، موضع الفرد من الحياة العامة، نظام ملكية الأرض في الإسلام، الدين والربا، الاحتكار، الصراع بين الشيوعية والإسلام.

3) الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

يقع الكتاب في 178 صفحة، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عن دار الكتاب العربية في القاهرة عام 1950. ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب "كادت هذه الصحائف تضيع في أثناء الأزمة العصبية التي أصابت الفكر والقلم وطمست الحقوق والحريات، على عهد الاحتلال الداخلي للإدارة المصرية، أيام حكم الأقليات السياسية في الفترة 1944-1949... (وقد تم) استنقاذ هذه الصحائف من براثن العدم، برغم أن كثيراً من غيرها ضاع في خلال الإرهاب المنظم الذي خرب البيوت وفتح المعتقلات... ولقد نشرت في الكتابين السابقين لهذا الكتاب بحوثاً مستفيضة عن حقيقة النظام الماليّ في الإسلام أو ما أسميناه على سبيل التجوز "الاشتراكية الإسلامية". وأستطيع القول بأننا أسخطنا الرأسماليين والشيوعيين ﺑﻬذا المنهج الذي جنحنا إليه".

وقد نشر أغلب الكتاب من قبل فصولاً متفرقة، على نحو ثلاثين عدداً من إحدى ا ﻼت الدينية. ويؤكد المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة أن الكتاب وأخواه من قبل "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" و "الإسلام والمناهج الاشتراكية" أول ما خط في اللغة العربية من كلام في هذا الموضوع، وأن هذا الكلام كان مستغرباً في ميادين الدين والأدب والسياسة. وأنه أي الشيخ الغزالي بدأ السير وحده في هذا الميدان ثم أدركه بعد من أربى وأجاد.

والكتاب في مجمله كشف جريء للمظالم الاقتصادية المؤلمة، التي تئن تحت وطأ ا الشعوب في البلدان الخاضعة للاستعمار الأبيض والأحمر على السواء... وقد جاءت مقالات هذا الكتاب قصيرة مختصرة، ولكنها مجمعة في فصول عامة بالعناوين التالية: الحضارة بين الإيمان والإلحاد، دعائم الأخوة العامة، نماذج العدالة في الإسلام، الفقه الإسلامي يساير التطور الاقتصادي، المتحدث الرسمي باسم الإسلام، دروس من السماء.

4) الإسلام والاستبداد السياسي

يقع الكتاب ف ي227 صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الإسلامية (القاهرة(، الطبعة الثالثة 1984. وأصل الكتاب محاضرات ألقاها الغزالي في معتقل الطور عام 1951. ونشر بعضها فيما بعد في بعض ا ﻼت لم تجمع في كتاب إلا بعد بضع عشرة سنة، وكان لها دوي بعيد المدة في إقلاق

الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون. وقد هتك المؤلف بهذا الكتاب أستار الإقطاع المدبر، وحذّر الشعوب من مغبة الاستسلام له في أحوال المجتمع والدولة.

ويؤكد الشيخ الغزالي في الكتاب أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري، بل كانت تعاليمه ومبادئه تدعو إلى الشورى والرأي الجماعي، وذلك كان حال المسلمين في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كما حثّ الإسلام على الجهاد فجعله واجباً على كل مسلم لديه القدرة على الجهاد، ثم يتناول الشيخ الغزالي بعض القضايا الإسلامية المعاصرة ليقول رأيه فيها.

ويتضمن الكتاب: الشورى، الجهاد، الرق في الجاهلية، قضايا معاصرة، قضايا إسلامية.

5) من هنا نعلم

يقع الكتاب في 143 صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة)، الطبعة السادسة 1965. وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الغزالي على كتاب "من هنا نبدأ" للأستاذ خالد محمد خالد، لما فيه من شطط وخلط للمفاهيم الإسلامية؛ لأن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ والسكوت عليه. وبين المؤلف أن علاقة الدين بالدولة في الإسلام وحده لا تقبل التجزئة، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه، من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء. ولم يكن الكتاب مجرد رد لشبهات أثارها الشيخ خالد بقدر ما كان دفاعاً عن تعاليم الإسلام وبياناً لقيمه. ومع أن الشيخ الغزالي شديداً في هجومه فإنه كان رفيقاً مع الشيخ خالد، بل استمر في علاقته به بعد الكتاب ورفض فتوى الأزهر بتجريده من شهادته.

ويتضمن الكتاب ردود الشيخ حول الحدود وضرورة إقامتها، وبدعة فصل الدين عن الدولة، وعن دور المرأة الاجتماعي، وعن الكهانة والإسلام،وعن الديمقراطية، وتحديد النسل، والقومية العربية والإسلام.

6) تأملات في الدين والحياة

يقع الكتاب في 157 صفحة (طبعة دار الدعوة الثانية بالإسكندرية 1992)، وهو مجموعة من المقالات والخواطر والبحوث واللفتات، عالجت أموراً لا تزال تستحق المزيد من النقد والنظر، وخير ما فيها أنا عرضت الدين

على الناس نابضاً بالحياة والحركة، ونشدت للحياة ضوابط الإيمان والتقى. وكتب كثير منها عندما كان الغزالي يحرر مجلة الإخوان المسلمين وبعض مقالات الكتاب ظهرت فيما بعد عن شكل كتب مستقلة. ويتحدث الشيخ الغزالي في مقدمة الكتاب عن بعض ملامح شخصيته، التي تبدو للناس مختلفة عما ألفوه في الدعاة ورجال الدين، كما يسمونهم. فهو لا يطيق التزمت ولو تكلفه ما أحسنه، وأنه يجنح إلى المرح ويتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء، وأنه شعبي في تصرفه... وأنه يحب الناس، ويتمنى لهم الخير ويثق في صدق جماهير العامة من المسلمين ونقائهم... ويؤكد أن من الدعاة من مشوا في آثار النبوة وصدقوا الله جهادهم؛ لكن في بعض الناس زهاداً متصنعين ودعاة محترفين!

من عناوين الكتاب: سياسة الحرية والكفاح، ذكريات من الريف، في صميم السيرة، نقد وتوجيه، صور من الماضي.

7) عقيدة المسلم

يقع هذا الكتاب في 262 صفحة، صدر عن دار القلم (دمشق 1987)، وأصدرت الطبعة الثالثة، دار الدعوة (الإسكندرية) عام 1990، ويحوي بحوثاً ميسرة في العقيدة الإسلامية، معززة بأصولها العلمية، وسائرة في هدي نصوص الكتاب والسنة. وهذا الكتاب يمتاز عن كتب الفلاسفة والمتكلمين في أنه يخاطب العقل والقلب، ويثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظ للقوى الذهنية، وهو عملٌ حاسم في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي.

وقلد حاول المؤلف وهو يكتب عن العقيدة أن يرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم يتكلف لذلك إلا أن جعل نصوص الكتاب والسنة نصب عينيه. ولذلك أكثر من الاستشهاد بهذه النصوص على خلاف أمهات الكتب الكلامية التي لا تكاد تعثر فيها على آية أو حديث إلا ما ندر.

ومن عناوين الكتاب: الحقيقة الأولى، الوحدة المطلقة، كمال الأعلى، القضاء والقدر، العمل أساس الإيمان، الخطيئة والمثاب، النبوات، والخلود.

8) خلق المسلم

طبعة دار القلم السادسة (دمشق)، سنة 1987، في 248 صفحة. هذا الكتاب عبارة عن نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم ا دينه، وتصلح ا دنياه وأخراه جميعاً. وقد مهد المؤلف لها وعقب عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل.

ويعد الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب عقيدة المسلم، ليكون جزءاً من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

ومن عناوين الكتاب: أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نحو عالم أفضل، الإنسان بين الخير والشر، الحدود على الجرائم الخلقية، دائرة الأخلاق تشمل الجميع، الصدق، الأمانة... القصد والعفاف، النظافة والتجمل والصحة، اختيار الأصدقاء، العلم والعقل، الانتفاع بالوقت، والاتعاظ بالزمن.

9) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام: دحض شبهات ورد مفتريات

يقع الكتاب في 366 صفحة، من منشورات دار التوزيع والنشر الإسلامية (القاهرة)، الطبعة الثانية 1993. قام أحد المسؤولين المسيحيين بالطعن في الإسلام فتصدى له الغزالي في ذلك الوقت العصيب، فكان هذا الكتاب. وقد تعهد الشيخ أن لا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده. إنّ الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام. وقد ألف هذا الدين منذ بدأ، أن يعاشر غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد، والإسلام المقيم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائِهم. وأهم موضوعات الكتاب: المسلمون وأهل الذمة، دخول المسيحية مصر، الاسم بين التعصب والتسامح، افتراءات المستشرقين على الإسلام، تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى.

10) فقه السيرة

يقع في 498 صفحة صدر عن دار الكتب الحديثة (القاهرة) 1976، كما أصدرته دار الريان للتراث في القاهرة عام 1987. كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة

في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم. واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكراً له جهده، وموضحاً وجهة نظره في هذه الأحاديث. جمع الغزالي في كتابه هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجلّ من الوقائع.

وبذلك جعل المؤلف ـذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع، وبذلك كانت السيرة عنده شيئاً ينمي الإيمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح، وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عند قائده أو تلميذ عن أستاذه، وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الأعلى.

11) في موكب الدعوة

يقع في 262 صفحة، (دار الكتاب العربي (القاهرة) الطبعة الثانية عام 1957). في هذا الكتاب يستثير الشيخ الغزالي مشاعر الدعاة ويستنهض هممهم ويستصلح أوضاعهم ويحارب الوهن. ولم يكتب الشيخ هذا الكتاب ليعبر عن مذهب خاص به في الحياة وإنما ليبرز رأي الإسلام فيما اعترضه من شؤون.

ويظهر الشيخ في هذا الكتاب حزنه، لأن تخلف بعض القادة، في ميدان الدعوة، واضطراب أقدامهم في ميدان الواجب عثر القوى الإسلامية وأربكها. والكتاب في جملته نقد لسياسة الجبهة الإسلامية الداخلية؛ باعتبار أن تراخي تلك السياسة واعوجاجها مكن للدجالين والمنافقين.

من أهم عناوينه: موت الأبطال في الطريق، من صور القوة في القرآن، الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة، من أخلاق النبوة، هل الحك الشرعي كلام فارغ؟ نعم... دين الدولة الإسلام، الإسلام جامعة، جهاد وتربية، استغلال، فتنة لا تعليم، تحريف الكلم عن مواضعه، ذكرى.

12) ظلام من الغرب

يقع في 343 صفحة، صدرت الطبعة الثانية عن دار الكتب الحديثة (القاهرة) 1965، وأصدرته دار الاعتصام (القاهرة)، طبعة (1979)، الكتاب رد على "المستشرقين المصريين" الذين ولدوا في بلادنا لكن عقولهم تربت في الغرب، فهم كفار بالعروبة والإسلام وسفراء للغرب. يهدف الكتاب إلى تجلية هذا الصنف من المستشرقين وتنحيته عن الحياة العامة.

ويتتبع المؤلف في الكتاب الحركات العليلة، والنيات المدخولة والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبله على يد هؤلاء؛ إما عن فساد في عقولهم أو فساد في ضمائرهم. ويشير المؤلف كل ذلك لصد الجاهلية الحديثة عن اجتياح ديننا وأمتنا.

من أهم عناوينه: بين العقل والعاطفة، عروبة وإسلام، تيارات متدافعة، في ميدان التشريع، جاهلية حديثة، كيف تصان الأخلاق، الأمم بين النماء والفناء، نحو وحدة إسلامية كريمة، الإسلام والمدنية الحديثة.

13) جدد حياتك

يقع الكتاب في 232 صفحة، (القاهرة دار الدعوة الطبعة الأولى لسنة 1410ھ/1989م). هذا الكتاب هو محاولة إنارة الطريق لمن يحب أن يبدأ صفحة جديدة في حياته.

وهو مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وهو محاولة لرد كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" للعلامة "ديل كارينجي" إلى أصوله الإسلامية.

وقد شرح المؤلف فيه وظيفة الفطرة السليمة في تعرف الحق وتعريفه، ذلك أن كثرة البضاعة من نصوص السماء، لا تغني في نفع صاحبها، أو في نفع النسا بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة، كما لا ينفع المنظار المغرب، أو المبكر لدى امرئ فقد بصره. بينما سجلت الفطرة السليمة في كتاب "كارنيجي" من التجارب والاختبارات ما يعد صورة لحكمة الوحي على لسان رسول الإسلام؛ فاتفق بذلك وحي التجربة ووحي السماء.

ومن عناوين الكتاب: عش في حدود يومك، كيف نـزيل أسباب القلق وآفات الفراغ، لا تبك على فائت، لا تنتظر الشكر من أحد، روحانية الرسول، بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك، حساب نفسك.

14) ليس من الإسلام

يأتي الكتاب في 262 صفحة، وقد صدرت الطبعة السادسة منه سنة 1991، عن مكتبة وهبة بالقاهرة، وفي هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علماً بأصول لا بد منها، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام. وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية مجتهداً في التقريب والتوضيح.

اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة التي أضافها المسلمون إلى دينهم، كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها الصحيحة، فلا نقص ولا ضم، ولا انكماش ولا ـور، مقتفياً آثار البدع والخرافات فيفضحها.

ويريد المؤلف أن يوسع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق، ويقرب من جماهير المسلمين ألواناً من العلم حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة؛ فإن التعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام وإعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكراً على المتخصصين. ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين وسوف يرون الكتاب امتداداً لجهاد أئمة طال كفاحهم في إيقاظ العقل الإسلامي.وأما أبرز عناوين الكتاب فهي: الشريعة الإسلامية، أهداف ومناهج، اختراع الدين، في الفكر الإسلامي، من بدع العقائد: وحدة الوجود، النـزعة القومية، بدع العبادات، بدع العادات.

15) الثقافة الإسلامية

كتب مشاركة مع الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني، نشرته جامعة الملك عبد العزيز (جدة) 1980، ورد الكتاب ضمن سلسلة الكتاب الجامعي، ويعتبر أحد الكتب الدراسية لمادة الثقافة الإسلامية، وشملت الدراسة: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والقرآن والسنة والحديث والإجماع والاجتهاد.

16) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث

يقع الكتاب في 200 صفحة (دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1984). يرى المؤلف أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور التي سبقته لا يسأل عنه أعداءه قدر ما يسأل عنه أبناؤه؛ ذلك أن الخمول والتفريط والقصد المدخول والشهوات المطاعة، لا يمكن أن تتنـزل عليها نصر الله... خصوصاً إذا فشت هذه الرذائل في جبهتنا، وكانت الجهات المقابلة ظاهرة

النشاط والتجرد. والغزالي في هذا لا يلوم قومه فحسب وإنما يسارع إلى الاعتراف بتقصيره. لكنه يؤكد أن لن يتوانى عن موقفه في كشف الأخطاء التي انتشرت بين صفوف العاملين لهذا الدين. ولذلك فهو يعيد نشر هذا الكتاب والكتاب الآخر في موضوعه وهو دفنها، لكنه يرى أن من الخطل إسدال الستار عليها، فهي جزء من تاريخ يجب تدبر أحداثه والإفادة منها.

ومن موضوعات الكتاب: سنن مضطردة (حقائق العلاقة مع بني إسرائيل)، ضد الإسلام (وأقلام تحارب الإسلام تحت ستار محاربة التعصب)، دروس (الإسلام مقياس الحكم والتقويم)، السلام المسلح، العلم يدعو إلى الإيمان، بين الغيبة والنقد، طبيعة الإسلام.

17) كيف نفهم الإسلام

يقع في 218 صفحة، صدر أولاً عن دار الكتب الإسلامية (القاهرة) 1983، ثم أصدرته دار الدعوة، سنة 1991. في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة أو عرفها القليل وكان ينبغي أن يعرفها العامة. ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع وتوطنت، وما كان ينبغي أن تظهر ولا أن تبقى طويلاً. وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لو سمع ا الجمهور لفغر فمه في دهشة فهي غريبة عليه بينما حلت مكانا تقاليد ما أنزل الله ا من سلطان فإذا حاولت تغييرها سمعت صيحات الفزع، كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية.

من أهم عناوينه: حول التعريف بالإسلام، مساوئ التعليم الديني، علوم الحياة ونشاطها، الجهل بالدنيا والسقوط فيها، الانفصال التاريخي بين العلم والحكم، العقيدة صلة إلهية ومنهج إنساني، التجديد والاجتهاد، في دائرة السنة، لماذا أنا مسلم؟

18) الاستعمار أحقاد وأطماع

يقع الكتاب في 268 صفحة، وأصدرت (دار الكتب الإسلامية (القاهرة) الطبعة الثالثة 1983). يتحدث الكتاب عن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم خصومة ويصف مآسيه، يورد أحداثاً مخزية عن أفاعيل الاستعمار، ثم يبحث في الإسلام والسلام، ليعرف الناس أي عدلٍ مضاعف كان لدينا، وأي حيف مضاعف وقع علينا ويعرض لحركة الارتداد الخلقي والثقافي والتشريعي التي أحدثها الغزو الثقافي في بلادنا... لحساب الصليبية الغازية... فالاستعمار أحقاد

دينية وأطماع دنيوية... ولم تعرف الدنيا أناساً أوتوا المقدرة على إخفاء أحط النيات وراء معسول الكلمات، كما عرفت ذلك في تجار الاستعمار الحديث.

ويؤكد الغزالي أن مستقبل أمتنا لين يضيء إلا إذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين.

من عناوين الكتاب: كيف يفتكون بنا؟ ـويد وتنصير، القتل أو الاستغلال، سلام مسلّح...

19) نظرات في القرآن

يقع الكتاب في 254 صفحة، الطبعة السادسة، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة 1986، وهو الكتاب الثامن عشر في ترتيب مؤلفات الغزالي. وفيه جملة معارف حسنة عن القرآن ا يد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين رشدها جميعاً نظام يوائم الأسلوب الذي استحلاه المتفقون اليوم وألفوه في مجالي العلم والأدب.

ويمس الكتاب قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصة، وبال العالم عامة. فإن العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في مكتب الغزالي ولا في لبه؛ والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبداً، فما نـزل إلا ليخطئ أو يصوب من أفكارها! وإلا ليمحوا أو يثبت من أحوالها!

ومن عناوين الكتاب: هذا القرآن: كيف نـزل ولماذا خلد، وكيف جمع، نماذج وصور في القرآن: الإنسان، الحياة، الثروة، والألوهية، والنبوة، والقصص. الإعجاز القرآني: النفسي والعلمي والبياني، القرآن وأهل الكتاب، ودراسة حول النسخ.

20) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة

الطبعة الأولى لدار القلم بدمشق 1989، ثم أصدرته أخبار اليوم (القاهرة) 1992. هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألّفه الشيخ الغزالي لهم ودرس جملة من أبوابه معهم، حين كلفته مشيخة الأزهر بأن يحاضر لطلبة الدعوة والإرشاد. ويتضمن عدداً من الفصول في كل منها مباحث عديدة ومن عناوين فصوله: التعريف بالدعوة، السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين، حملة الدعوة، وسائل الدعوة، مقاومة الهدامين، نماذج حية في وجوه الدعوة من القرآن والسنة، أقوال الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة.

21) معركة المصحف في العالم الإسلامي

يقع الكتاب في 357 صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة)، 1971. وهذا الكتاب هو جهد رديف للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف المُهاجم وأمته المعناة في أنحاء الأرض، إنه كتاب لا يخص قطراً إسلامياً بعينه، بل إنه يتناول حاضر ومستقبل أمة عاث الاستعمار السياسي والثقافي في أرجائها فساداً.

يرى المؤلف أن المسلمين يعتقدون أن ما بين دفتي المصحف الإنسانية حتى النهاية وأن المصحف صورة تامة للحق في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ومعادها هناك. ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب وخلق الأمل في النجاح وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ومن أهم عناوينه: المصحف للنفس وا تمع والدولة، العبادات وسطان الدولة، الإسلام يصبغ الحياة العامة في أغلب تاريخه، حراسة الحق معيار الإيمان، التجديد الإسلامي في ميدان السياسة، هذا الاستعمار الثقافي، حول مركز المرأة فيا تمع.

22) كفاح دين

يقع في 312 صفحة، (الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة (القاهرة)، 1991)، أظهر المؤلف في الكتاب ما يقع للإسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار في إقامة حكومات موالية له. وتتبع آثار الاستعمار في البلاد التي أكره على الرحيل منها، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضي وبقي ممدود لرواق في نفوس ى تزال يحتلها ويلقي خيامه فيها. وذكر أمثلة عديدة على ذلك ونماذج متنوعة.

تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن شعوره بأن الأمة قد وصلت إلى مرحلة عظيمة نحو التخلص من الاستعمار، وأن يقظة العروبة وآمالها وحقوقها أصبحت حركة ناجحة، وناقش الجوانب لإسلامية في مفهوم القومية العربية والحياد الإيجابي التي كان يتحدث عنهما الرئيس جمال عبد الناصر، بما يكشف عن سعادة الشيخ الغزالي ـذه الشعارات وامتدادا ا لكنه حذر في هموم قوى الرؤوس الفارغة من الدين أن تجعل من هذه الكلمات غطاءً لما ترسب فيها من بقايا الاستعمار. ويؤكد أن هذه الشعارات لا يمكن أن تغلب الطابع الأجنبي،

أو ـون من الروح الديني، أو تضعف الأدب العربية، أو تشوه التاريخ الإسلامي وتسوغ الانحلال الأخلاقي؛ لأن ذلك يعد خروجاً عن الدستور، وتعويقاً لثورة البلاد.

ويبدو أن تلك القوى المعادية التي أفرغت الشعارات من مضمونا الإسلامي، هي التي قادت مصر في عهد جمال عبد الناصر إلى ما انتهت إليه مصر من التمكين للفاسدين، الذين قادوا مصر إلى الردة. فكتب الغزالي في مقدمة كتاب قذائف الحق، يؤكد أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله، وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله كرومر.

ومن عناوينه: التعاون بين الإسلام والمسيحية، اتجاه الصليبية الحديثة، ثقافة مهجورة، في عالم الملذّات.

23) الإسلام والطاقات المعطلة

يقع في 214 صفحة الطبعة الرابعة من منشورات دار الكتب الإسلامية بالقاهرة 1983، في هذا الكتاب مقارنة بين طبيعة دين، وواقع أمة، اعتمد فيها المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام، والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بعد الشقة ويرى أسباب التفاوت.

ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق بساط من الأرض الطيبة، التقت فوق تقاليد الدنيا ومفاتيح العمران. وفي قبضة يدها رخاء العالم، ولو أحسنت استغلال ما تملك، لما احتاجت إلى أحد، ولاحتاجت سائر الأمم إليها. فإن شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها.

كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام. ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية.

من أهم عناوينه:تفجير الطاقة الإنسانية، فساد عاطفة التدين، الكفر بالإنسان، الاستبداد يشل القوى، أثر الثقافات الرديئة، المرأة في ا تمع الإسلامي، الإسلام أساس حياتنا وسر قوتنا، دين المستقبل، البيان الإسلامي العالمي، أزمات الحضارة المعاصرة، التضامن الإسلامي، أطر النظام الإسلامي، تحرير الأراضي الإسلامية.

24) حقوق الإنسان: بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة

طبعة دار الدعوة (الإسكندرية) 1993 في 266 صفحة. يتناول هذا الكتاب الذي كتب في الستينيات مبادئ حقوق الإنسان: الحرية، المساواة، العدالة، الكرامة. ويبين الكتاب أن الإسلام دعا الناس –كل الناس- للحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو لون أو مال أو جاه، فقد سوى الإسلام بين العربي وغير العربي حاكماً أو محكوماً. وبين الكتاب أن الدول الكبرى لا تلتزم حقوق الإنسان كمكيال ثابت، لكن الإسلام التزم جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وأن آخر ما وصلت إليه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان حقوق الإنسان هو ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تعلمناها من رسول الإنسانية محمدَ . ومن أبرز عناوينه: المساواة العادلة، الحقوق القضائية، الحريات، الرجل والمرأة في ا تمع، كتاب الأسرة، الهجرة واللجوء، الكرامة الاقتصادية، المستوى الثقافي، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام، وحقوق الإنسان في الإسلام.

25) خطب الشيخ محمد الغزالي

وقد وردت الخطب في عدة مجلدات وأصدر ا دار الاعتصام (القاهرة) 1980. وكما عهد في الشيخ فإن الخطب تقوم على التثبت والتنوع والتعمق.

26) نظرة على واقعنا الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

أصدرته دار ثابت (القاهرة) 1983، ويتطرق الكتاب للإسلام وحال المسلمين مع مطلع القرن الخامس عشر ومحنتهم في بعض بلدانه.

27) هذا ديننا

يقع الكتاب في 213 صفحة، أصدرته دار الكتب الإسلامية (القاهرة)، سنة 1985. يأتي الكتاب جامعاً لتعاليم الإسلام مع إتسامه بالإيجاز والوضوح والاستيعاب. وقد أثبت المؤلف في كتابه هذا خلاصات واضحة ومليئة لما سبق أن تناوله من حقائق الإسلام مع إضافة دلائل جديدة. كما ضم أبواباً أخرى من البحث والدراسة تعين على تحقيق رغبة الكاتب في تقديم صورة وسيمة الملامح لهذا الدين العظيم.

وأما أبرز عناوين الكتاب: العقائد: التوحيد، القضاء والقدر، حرية العقل لا حرية الشهوة، حرية الاعتقاد، ضروب العبادت وصورها، الأسرة، الأخوة، الاجتهاد، الإجماع، فقه العبادات، شرائع المعاملات.

28) الخديعة: حقيقة القومية وأسطورة البعث العربي

يقع هذا الكتاب في 283 صفحة، دار الكتب الحديثة (القاهرة) 1977، كما أصدرته دار الروضة للنشر والتوزيع (القاهرة) سنة 1993. من حق أي مسلم مخلص أن ينفر من التدليس، وأن يعد القومية العربية ذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصية الإسلام وتاريخه، والمحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام تارة بتسويغ الارتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال العروبة مكانه بعد تحريرا من رابطة الإيمان، لتكون مفهوماً فارغاً ميتاً، ثم افتعال يقظة عربية ، وتفسير القومية العربية على هذا الأساس بعد استجابة صريحة للغزو الاستعماري بكل ما يحمله من أحقاد وأطماع.

وإذا كان حديث الغزالي عن العروبة ذه الحدة في هذا الكتاب، فذلك لأن العروبة التي عرفناها من قديم، وأزرنا نضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم ولدت، شيء آخر غير العروبة لتي نسمع الآن لفظها ن بعض الساسة والكتاب، فنسمع له رنيناً كرنين النقد المزيف. المؤلف في الوقت الذي يعبر عن جزعه من هذا الانحراف يلفت النظر إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية التي أحدثها البعثيون والقوميون ذا المسلك، الذي كان جسراً عبر عليه الاستعمار ليعبث فساداً في أرجاء حياتنا كلها.

ويتناول الكتاب خصائص العروبة ودعائم ا تمع وعصور الازدهار، وعصور الانيار، وقضية البعث العربية، وقضية الشعوبية في العصر الجديد الحديث.

29) الجانب العاطفي من الإسلام

بحث في الخلق والسلوك والتصوف، يقع الكتاب في 299 صفحة، (طبعة دار الدعوة الطبعة الأولى 1990). هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من مواريثنا العلمية الثمينة تفتقر له الحياة المعاصرة وهو الجانب العاطفي والنفسي والخلقي وتكامله مع الجانب العلمي والفكري. وهو محاولة لإخراج التصوف من صومعته، ليكون طاقة محركة. ويلفت المؤلف النظر إلى أن هذا الجانب على جلالته مغموط الحق، لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى.

وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات؛ فالتعاليم المدنية تزحف من كل فج وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها. وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإنّ الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف.

ومن عناوين الكتاب: في باب الإسلام والإيمان والإحسان: الإلحاد خرافة علمية، قوانين الإحسان وأخطاره، وف يباب دعائم الكمال النفسي: إشارات الطريق: التوبة، الورع، الخوف، الرجاء، الحب.

30) عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

من إصدارات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1980)، وهذا البحث كان ضمن بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، ركز فيه الشيخ الجليل على أن عالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديدة بالإكبار.

31) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

يقع في 259 صفحة، الطبعة الخامسة لدار الكتب الإسلامية عام 1988. الكتاب مناقشة حرة للمستشرق المجري "جولد تسيهر" في كتابه "العقيدة والشريعة" الممتلئ بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام. وهذا المستشرق مكث بضع عشرة سنة يقرا ويتعمق ويحيط بمفاهيم الإسلام حتى أخرج كتابه بعنوان "العقيدة والشريعة في الإسلام". وقد افترى هذا المستشرق، باسم التحقيق التاريخي، على الإسلام افتراء لا حد له. وأحصى عشرات الشبهات ونظمها في سلك واحد باسم التطور العقدي والتشريعي. وأعمال المستشرقين يصعب أن تخلو من العيوب؛ فذلك يتنافى مع وظيفة الاستشراق الذي يمهد للاستعمار، كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة،. وقد كشف الغزالي أن كتاب هذا المستشرق من شر ما كتب عن الإسلام وأسوأ ما وجه إليه من طعنات. وقد كان رد الغزالي على هذا الكتاب مناسبة لاستيفاء الحقائق العلمية والتاريخية التي يزخر بها تراث أمتنا.

من عناوينه الرئيسية

محمد رسول الله: الانقياد لله طبيعة الأديان كلها، لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة الهجوم على السنة، تطور الفقه الإسلامي: عموم الرسالة وخلودها، بين الشريعة والقانون الروماني، التطور في العقيدة: معنى المتشابه في

القرآن، الزهد والتصوف: الإسلام يخدم الروح والجسد، الفرق: طبيعة الخلافات بين المسلمين، وراثة الخلافات حماقة، حول الوحدة الإسلامية، المسلمون... بين الاستعمار والصهيونية.

32) ركائز الإيمان بين العقل والقلب

طبعة دار الاعتصام 1979 في 288 صفحة. وضع المؤلف هذا الكتاب لخدمة الثقافة الإسلامية مستهدفاً أمرين، أولهما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة، متحرياً الحق جهده، ومتلقفاً الحكمة حيثما وجدها، وماحياً الشبهة في صمت ما استطاع. وثانيهما: تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القراء على خبئها، حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يوماً. والكتاب استكمال لما كان قد وضعه المؤلف في كتابه "الجانب العاطفي في الإسلام"، ومن عناوينه: التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي، العلم ظهير الإيمان، الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالوهم ولا إيذاناً بالفوضى، صدق المعرفة ووحدة الوجود، وحدة الوجود خرافة، ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة، فين العزلة والاختلاط، نبوة وكتاب وأمة وراثة.

33) حصاد الغرور

يقع في 207 صفحات، (المختار الإسلامي (القاهرة) 1979) ودار القلم (دمشق) 1988، الكتاب رصد لأحوال الأمة قبل الهزيمة أمام اليهود عام 1978وبعدها، واستشعار لمدى قر ا أو بعدها من دينها، ومدى قوة التيارات الأجنبية على التطويح ا، ورد على التوجيهات الزائفة والتعليقات المنحرفة.

ويؤكد المؤلف أن العراك بيننا وبين بني إسرائيل سوف يمتد سنين عدداً، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر فالطريق إليه بينة. أما إذا كررنا أنفسنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره! ويظهر المؤلف قلقه وخشيته على الإسلام نتيجة لموقف العرب من هذا الدين؛ فهم يريدون أن يدخلوا في معركة دينية بغير دين! ومع أن مطارق الهزيمة التي وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم، إلا أن عملاء الشيطان يسميتون في مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة جنن اعتناق العرب للإسلام، كلاً لا يتجزأ...

ومن أهم عناوينه: صراع بين رسالتين، يهودية وصهيونية، من أين ب رياح التغيير، هل عن الإسلام غنى؟ متى تنتهي هذه الأحقاد؟ جذور المعركة

القائمة، (القيم الروحية) كلمة غامضة مبهمة، أجيال النصر وأجيال الهزيمة، بواعث الحقد على لغتنا، تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها، تزوير التاريخ، مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين، إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء.

34) الإسلام في وجه الزحف الأحمر

يقع في 206 صفحات، صدر عن مكتبة الأمل (القاهرة) "بدون تاريخ"، وصدر عن المختار الإسلامي (القاهرة) 1976. كتب الغزالي كتابه هذا في ظروف صعبة شديدة، حيث كان عدد من الحكومات العربية قد تبنت الشيوعية وتحالفت مع الاتحاد السوفيتي، ويقول في مقدمته "إنني كتبت هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته. وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات ميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام". وفي حوار شفهي قال عن الكتاب: "كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتابة "الإسلام والزحف الأحمر" ... بئست حياةٌ أدفن فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين، لموت في هذه الحال أشرف وأجلّ...".

ومن عناوينه: بداية الصراع، الشيوعية والدين، الشيوعية والحريات، الأحوال الاقتصادية في ظل الشيوعية، المسلمون في الاتحاد السوفياتي، الإسلام بين الحياة والموت، فلسطين والشيوعية وواجبنا العام.

35) قذائف الحق

يقع في 242 صفحة، من منشورات المكتبة العصرية (صيدا-لبنان) (بدون تاريخ) لكن المؤلف أعد مقدمة الكتب وهو في الرباط عاصمة المغرب يستمع إلى أخبار القتال بين العرب واليهود عام 1967. وأصدرته ذات السلاسل (الكويت) 1980.

إن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعاداً جديدة مخوفة، وأن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر، ووقف بوادر الشر قبل أن تستفحل، ويرى المؤلف أن قوى الإسلام قد وهنت، وأمسى الإلحاد ذكاءٌ والإيمان غباءٌ... أما كهان البوذية ولنصرانية فمكانتهم لا تمس... وكما استعان الاستعمار العالمي بالكنائس الغربية على إذلال الإسلام من قبل فإنه يوسع دائرته ليشرك الكنيسة الشرقية في ذلك. ويعد الغزالي بأنه في هذا الكتاب يلتزم جانب الدفاع ومستعد لوقف المعركة إذا توقف المعتدون.

من أهم ما جاء فيه، العقل أولاً... ثم ننظر فيما يقال، العهد القديم وافتراءاته على المرسلين، تحرك ضد عقيدة التوحيد، ماذا يريد الأقباط؟، الإسلام وجماعة الإخوان، صفحات من مذكرات معتقل / الحقائق تدلكم، نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية، القومية العربية ومعناها، حديث الذباب، الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام، العقيد الناصري، سياسة الحكم والمال في الإسلام، العرب بدون الإسلام صفر، لا دين حيث لا حرية، محنة الضمير الديني هناك.

36) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر

يقع في 210 صفحات، طبعة مكتبة وهبة الثالثة عام 1990. ألّف الغزالي هذا الكتاب استجابة لطلب جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، بمناسبة انتهاء القرن الهجري الرابع عشر، وقد ضمنه وصف العلل التي تكتنف الدعوة والدعاة في شتى الآصار والأمصار. ويتهيأ الشيخ الغزالي في هذا الكتاب لاستقبال القرن الخامس عشر بإلقاء نظرة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضي الطويل، لنحاكم أنفسنا إلى مبادئها الثابتة، ولنعرف ما لنا وما علينا بدقة، كما قدم فيه وصفاً لشعَبِ الهجوم المعاصر على الإسلام، والطريقة المثلى لمواجهته في شتى الميادين.

ومن أهم عناوينه: شبهة مردودة، الدعوة وأحوال الدولة الداخلية، الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية، أسباب انيار الحضارة الإسلامية، ذبول الأدب العربي الفساد السياسي، أبعاد الهزيمة الإسلامية، كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة، ولاؤنا لمن؟ الأبعاد الجديدة: بعد ما صعدوا هبطنا.

37) أزمة الشورى في ا تمعات العربية والإسلامية

دار الشروق (القاهرة) 1990. يتحدث الكتاب عن افتقار عالمنا العربي والإسلامي في ممارسة الشورى، الأمر الذي يعتبر من أهم الركائز التي يقوم عليها ا تمع الإسلامي والقانون الدستوري الإسلامي.

38) فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

يقع في 179 صفحة من منشورات المكتبة العصرية ببيروت (الطبعة الثانية 1980)، وكذلك دار الاعتصام (القاهرة) 1980. في هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، هو جانب الذكر والدعاء. فمن يقف بين يدي النبي الخاتم ﷺ، وهو يدعو ربه، يشعر أنه أمام فن في الدعاء

ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر عن مثله من المصطفين الأخيار. وهذه حقيقة علمية رأى المؤلف أن يثبتها في هذا الكتاب.

ومن أهم عناوينه: كيف عرفنا محمد بالله، الحب أساسه والشوق مركبه (يصف فيه قوة العاطفة ودفقها في مناجاته عليه الصلاة والسلام)، أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة (يتأمل فيه صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام)، أرق الدعوات بعد الطعام والشراب، مجالس النبوة، ليل أبيض (يصف فيه عبادة الليل)، في خضم الحياة (دعوات تتناول شؤون الحياة المختلفة) بناء البيت المسلم، معركة الخبز (دور الذكر عندما تضطرب أحوال العيش)، في السفر والعودة، متاعب الدنيا، هل الدعاء من الأسباب العادية؟ الأركان العامة (أركان الإسلام وأدعيته عليه الصلاة والسلام فيها)، ذكر وتذكير، نبي الرحمة ونبي الملحمة.

39) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين

يقع في 239 صفحة، طبعة دار القلم الأولى عام 1987، كما أصدته دار الوفاء (المنصورة) 1992. ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا الذي يصفه الغزالي بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري، فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل وتوضح الهدف. وهذا العمل هو تأصيل لتلك المبادئ وشرحها على ضوء تجارب المؤلف، المستفادة خلال أربعين عاماً في ميدان الدعوة، حيث إنّ الظروف التي بدأ فيها حسن البنا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حيناً وكثيف حيناً آخر. وإذا كانت الأصول العشرين للإمام البنا هي المبادئ التي خاطب ا الجماعات الدينية في مصر على عهده، من أجل التأليف والتقريب بينها، فكانت مصاغة صياغة وسطية حكيمة،فإن الغزالي في هذا الكتاب قد أضاف إلى هذه المبادئ عشرة مبادئ أخرى، تختص بجوانب حياة ا تمع الإسلامي في داخله وفي علاقاته بغيره من ا تمعات. وتتعلق هذه المبادئ بوضع المرأة، وطبيعة الأسرة، وحقوق الإنسان، ووظيفة الحكام، وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون الدولي ودور المسلمين فيه.

من أهم عناوين الكتاب: هيمنة الإسلام على الحياة كلها، الكتاب والسنة معاً، بين النص والمصلحة، أخبار الآحاد ووزنا العلمي، الاجتهاد الفقهي علامة صحة، التعصب المذهبي، نحو سلفية واعية، الخلافات الموروثة: قيمتها وأثرها،

التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز، الانحرافات النفسية والبدنية، الحب والبغض في الله.

40) واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر

يقع هذا الكتاب في 80 صفحة. صدر في القاهرة عن دار ثابت عام 1983. يتناول الكتاب قضية المؤامرات التي تدبر لهذا الدين ولأتباعه، والجهود التي تبذل لصرف المسلمين عن دينهم وتراثهم وعقيدتهم، حتى يزول ويتلاشى. ويتحدث عن واقع العالم الإسلامي وانهياره أمام هذه القوى والمؤامرات، ويشير بوجه خاص إلى قضايا الاستبداد السياسي والفساد الإداري، وامتهان حرية الرأي، وحقوق الإنسان المهدورة في واقعنا الإسلامي، والفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.

41) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

يقع في 143 صفحة: صدر أولاً عن طريق دار البشير (القاهرة) 1989، ثم عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة) 1966. وهو متابعة للنشاط الإسلامي المعاصر، ودراسة شاملة لأسباب تقهقر المسلمين المدني والعسكري، والعناصر الحيوية التي فقدوها حتى دهاهم ما دهاهم. وفي الكتاب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الإسلامي، ومن عناوينه الرئيسية: صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة، في الثقافة والتربية والأخلاق، كلام في الإسلام، محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها، بين الاعتدال والتطرف، المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة، فقه الدعوة الإسلامية ومشكلة الدعاة.

42) هموم داعية

يقع الكتاب في 173 صفحة، من منشورات دار البشير (القاهرة) الطبعة الثانية 1985. في هذا الكتاب نماذج محدودة لمثار الشكوى ومصدر هموم الداعية، حيث إن الثقافة الإسلامية المعروضة إلى تنقية شاملة، والدعاة والعاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لينعدم السقط، وينفى الغلط.

ومن أبرز عناوين الكتاب: السلفية التي نعرف ونحب، لا سنة من غير فقه، هم بنو إسرائيل فبنوا من نحن؟ أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى، عدوان من البشر أم عقاب من القدر، عوائق مزعومة أمام الإسلام، أين الإسلام في هذا الركام؟ مستقبلنا رهن بوفائنا لديننا، حقائق خفية وراء حرب تعيسة، على مسار الدعوة.

43) مائة سؤال عن الإسلام

يقع هذا الكتاب في مجلدين، وهو من منشورات دار ثابت للنشر والتوزيع، عام1984، ويتضمن هذا الكتاب مائة سؤال في نواحي الإسلام المختلفة، حيث يقوم الشيخ الغزالي بالرد عليها. وكلها من أهم الموضوعات التي تدور حولها استفسارات المسلمين.

ومن الموضوعات التي وردت الاستفسارات عنها: الإجماع في الإسلام، والمعالم الأولى للدولة الإسلامية ومتى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ وهل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟ وما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتها بالإنسان وما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟ وهل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟ وما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو لها؟ وما هي نظم الحكم في الإسلام؟ وما موقف الإسلام من تحديد النسل؟ وما حكم النقاب في الإسلام؟

44) علل وأدوية

يقع في 283 صفحة، أصدرته دار القلم (دمشق) 1988، كما صدر عن منشورات دار الدعوة (القاهرة) 1991. يتناول دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لم وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء. ومن أهم عناوينه: الإنسان في القرآن، كيف غير الإسلام سار العالم، أولو الألباب في كتاب الله، وجهة نظر في أقدار الرجال: مالك، محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، مدرسة رائدة وإمام العلم، المعالم الأولى في عظمة محمد، رحلة من العلم إلى الإيمان، التعليم الأصلي، أسرار وراء تخلفنا، وظيفتنا العالمية، الثقافة الإسلامية في محنة، الأمانة في نقل التراث.

45) مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟

يقع الكتاب في 202 صفحة، دار الشروق 1984، وصدر كذلك عن مؤسسة الشرق للعلاقات العامة (عمان) 1984. يحاول الكتاب أن يجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل أدى المسلمون رسالتهم في إبلاغ الإسلام ونفع الناس به؟ وهل تقوم الدعوة الإسلامية على سياسة مرسومة وأجهزة منظمة وجهود منسقة، ودراسة لأحوال الأمم التي ندعوها؟ وهل نحسن عرض أنفسنا على

الآخرين؟ أم أننا نظلم الرسالة الخاتمة بسوء العرض حيناً، وبسوء الفهم حيناً آخر؟

من عناوين الكتاب: غربلة المعارف قبل تقديمها إلى الناس، شخصية المسلم المعاصر، هل تفيد الدعوة؟ لكي تنجح دعايتنا، أهل القرآن وأهل الحديث.

46) قصة حياة: مقتطفات من مذكرات الشيخ

مخطوطة بخط اليد، وهي منشورة في هذا العدد: تقدم نبذة مختصرة عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ويحكي لنا الغزالي كيف برز إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وفي أيام كئيبة، كان الإنجليز فيها يحتلون مصر، وأقطاراً أخرى فيحاء من أرض الإسلام الجريح، وكيف كان القرن الذي ولد فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، فلم يبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال، قد رمى "الخلافة الإسلامية" فأصبحت شبحاً لا روح له. ثم يتكلم المؤلف عن تعليمه الديني والمدني، وعن الاضطرابات السياسية التي عاصرها، حيث يتحدث عن تعطيل الدستور على يد محمد محمود باشا، ثم إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقي باشا عندما تولى الحكم، ثم الإتيان بدستور جديد.

ومن عناوين الكتاب: ذكريات الطفولة، التعليم الديني والمدني، من السجن إلى المعتقل، الانتفاع بالحريات الديمقراطية، الأصول السياسية، جماعة الإخوان المسلمين.

47) سر تأخر العرب والمسلمين

طبعة دار الريان للتراث 1987 في 187 صفحة. لاحظ المؤلف أن مشكلات الدعوة الإسلامية تتكرر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. فأزمة الدعاة الواعين شديدة، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والمسلمون الحريصون يسيؤون أحياناً إلى أنفسهم وأهليهم... لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تملكهم العاطفة المنفصلة عن التعقل، فتضر ولا تنفع.

والكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم. ومن عناوين الكتاب: أين الخلل؟ بعض سنن الله الكونية من القرآن، أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية، العلم المغشوش، حد أدنى لثقافة المسلم، مرتبة أخرى من المعرفة الدينية، جيل يذهب ضحية العجز

والغدر، أحوال اليوم وآمال الغد، والوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة.

48) الطريق من هنا

يقع الكتاب ف ي160 صفحة، صدر عن دار الصحوة (القاهرة) 1985، ثم عن دار الشروق (القاهرة) 1992. في هذا الكتاب صور متنوعة لمفارقات بين واقعنا وديننا في الماضي والحاضر، يدعو الشيخ إلى أن تجد حظها من التدبر والوعي فإن المستقبل –كما يقول- منوط ذه اليقظة.

ومن أهم العناوين فيه: دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع، لماذا جفّت ينابيع هذا العلم؟ قضية الأخلاق عندنا في عالم المرويات، أمة يجب أن تؤدي رسالتاها، أما لهذا الحق من حد، حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ، الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع.

49) جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج

يقع في 192 صفحة، صدر عن دار الصحوة (بدون تاريخ) كما صدر عن دار القلم (دمشق) 1991، مجمل الكتاب أن الجهاد الإسلامي هو دفاع عن الأرض والعرض، والحاضر والمستقبل، والتاريخ والشخصية، والدين والدنيا، ولا يقتصر الإسلام على الطبيعة العسكرية؛ فالانتصار لله ورسوله يكون في ميدان الإعلام، وفي ميدان المال والعلم، مدنياً كان أو عسكرياً، وفي ميدان السياحة والكشوف، وفي ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية.

ومن أهم عناوينه: واقع لا نتجاوزه، أوهام سيئة، تأويلات الجاهلين، ما يسمونه آية السيف، الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي، الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ.

50) الحق المر:

صدرت للمؤلف ذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات عديدة منها طبعة لدار الشروق (القاهرة) 1993، وهي حصاد ثمرات قلم الشيخ الغزالي، ومع أنا كلمات قصيرة لكنها فواتح لمعان جمة عند أولي الغيرة على دينهم وأمتهم... تغوص في واقعنا الحي لتشد أزو ا اهدين في سبيل الله، وتحق الحق وتبطل الباطل، وستظل هذه الكلمات وميضاً يبرق بالإيمان ويحامي عن الحق. وهذه السلسلة من الكتب مجموعات من مقالات قصيرة ذات

موضوعات شتى تستمد سطورها من الواقع وما يستجد على الساحة من قضايا، وتستهدف إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام ويوضح الطريق. وما أكثر الأخطاء التي تستقر بين الناس لأننا لم نجد من يصححها إن الجهل بالحقيقة له دخل كبير في صياغتها عندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة فلن تجدي في مقاومته إلا قذيفة مثله. ولا بد أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز واحد يقظ يكشف كل شبهة ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب، فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية.

50) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا

يقع هذا الكتاب في 424 صفحة، صدر عن مؤسسة الشرق للعلاقات العامة (عمان) 1985، وكذلك عن دار الشروق (القاهرة) عام 1985، وينطلق الكتاب من فرضية أن هناك فراغاً حقيقياً في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام طفولي وسطحي، يستقي من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه وبين عهود الازدهار تارة. ويصرح المؤلف أنه –ومن منطلق إسلامي- يرفض التبعية النفسية للآخرين، وكذلك يرفض ما ينسب للإسلام من تصورات هي ليست منه. والكتاب يصارح المسلمين بما هم عليه من قصور في الفهم يسهم في تسهيل الغزو الثقافي الخارجي.

ومن موضوعات الكتاب: الإسلام دين المفكرين، التحدي الثقافي، دين يكره الحضارة وحضارة تكره الدين، غزو مزدوج وأمة تافهة، أمة وراثة أم وراثة أمة، نباتات سامة في حقول الإصلاح، متناقضات قاتلة.

51) المحاور الخمسة للقرآن الكريم

يقع في 244 صفحة، دار الصحوة (القاهرة) 1989، ودار القلم (دمشق). يعالج الكتاب المحاور الخمسة التي أفاض القرآن بذكرها، وانتهى المؤلف إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: الله الواحد، ومن عناوينه الفرعية: التوحيد، القدر والجبر في القرآن الكريم تنقية للعقائد والسلوك.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه، ومن عناوينه الفرعية: الروحانية في لإسلام، ارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، هل عزلة المؤمن هي الحل؟

المحور الثالث: القصص القرآني، من عناوينه الفرعية: أبعاد الإسلام النفسية والاجتماعية، التعصب للعرب، قصة العلم والحكم في تاريخنا.

المحور الرابع: العلوم الإنسانية، كعلم التاريخ، والسياسة والثقافة.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع، من عناوينه الفرعية: الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، الإحسان، الربا، خيانة وعذر.

52) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث

يقع الكتاب في 160 صفحة، الطبعة الأولى لدار الشروق عام 1989. وهو من الكتب التي كلف الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله- تأليفها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وذلك إنصافاً للسنة النبوية. وذوداً عنها جراءة القاصرين وذوي العقول الكليلة.

وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علماً بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره ونسوا جذوره.

ولقد ساهم هذا الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثراً حميداً عند كثير من المسلمين والمسلمات الذين ردت إليهم حلاوة الإيمان وبرد اليقين بعد أن انـزاحت عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

ومن موضوعات الكتاب: في عالم النساء، الغناء، الدين بين العادات والعيادت، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولاً، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

53) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

يقع الكتاب في 218 صفحة، دار الشروق الطبعة الخامسة 1994. في هذا الكتاب خواطر منثورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة، لكنها جميعاً تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير.

من عناوين الكتاب: حسنوا صورة المرأة المسلمة، الدور الغائب للمرأة، المساواة ثابتة في القرآن، المرأة في الأدب والعلم. في باب مفاهيم يجب أن تصحح: العديد من المفاهيم المتعلقة بموضوع المرأة وليس لها أصل من الإسلام.

54) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

يقع في 224 صفحة، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الطبعة الرابعة 1417هـ/1996م)، والكتاب هو حديث حول العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها، وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة ا. يقع الكتاب في عشرة فصول عناوينها: إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية، أبعاد الوحي الأعلى، أغلفة تغطي الحقيقة العظمى، توضيح الصورة ومنع الغبش، حقائق في التربية، لمحة عن الابتداع، إعادة كتابة التاريخ، على هامش التفسير، على هامش السنة، مستقبل العربية وآدا ا.

55) كيف نتعامل مع القرآن الكريم

يقع الكتاب في 236 صفحة، الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي عام 1992، كما أصدرته دار الوفاء (المنصورة) 1993. في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة. وهذا الكتاب عبارة عن مدارسة حول مناهج فهم القرآن ا يد وقضاياه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديماً وحديثاً، وكيفية كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وعلمه ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة تبعاً لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها، وذلك في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية تقارب ضوابط المنهج التحليلي الناقد.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى تؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

ومن عناوين الكتاب: من آثار هجر القرآن، العودة إلى القرآن، من تجربتي الذاتية، شمول الرؤية القرآنية، أبعاد المنهج المطلوب، الحاجة على فقه السنن القرآنية، الآثار المدونة لتعطيل قانون السببية، انفصال العلم عن الحكم، الفقه الحضاري، إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وسيلة الشهود الحضاري، والشهود التاريخي.

56) صيحة تحذير من دعاة التنصير

يقع الكتاب في 155 صفحة، دار الصحوة (القاهرة) لعام 1991. ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن اطلع على كتاب التنصير الذي يمثل سجلاً للممارسات والمحاورات والمقترحات والنتائج التي انتهى إليها أحد المؤتمرات التبشيرية في أمريكا، وهو المؤتمر الذي تخصص في قضية تنصير المسلمين في العالم، وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار.

يؤكد المؤلف أن هذا المؤتمر مستنكر الأهداف والوسائل، ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن يتنادوا بأخذ الحذر والتأهب للدفاع. والكتاب محاولة لمراجعة المواقف السابقة، وبيان أسباب الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين الإسلام والنصرانية، والتي عند التحقيق ينكشف أننا لسنا المسؤولين عنها. وهي دعوة للعقلاء والمخلصين للبحث عن الحقيقة في عصر العقل وبالثوابت الدينية التي تتفق عليها كل الرسالات السماوية.

من عناوين الكتاب: مبادئ قبل النقاش، ليس عيسى إلهاً، المسلمون أتباع الأنبياء جميعاً، نموذج للتنصير الرسمي، قضية المرأة عندنا وعندهم، المرأة في أوربا وأمريكا.

57) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

طبعة دار الشروق الثانية 1996 في 560 صفحة. هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب، أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الحقيقية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها، والتفسير الموضوعي حلقة من التفسير، ولا يغني عن التفسير الموضعي بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة.

وعناوين الكتاب تشمل كل سور القرآن الكريم، حيث قدم المؤلف – رحمه الله- تفسيراً موضوعياً مختصراً لكل سورة من سور القرآن الكريم.

58) من كنوز السنة: تحت الطبع.

كتب عن الشيخ محمد الغزالي

1- دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي ، د. أحمد حجازي السقا.

2- الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم.

3- الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارف الفكرية، د. محمد عمارة.

4- الشيخ محمد الغزالي ومعركة المصحف، أ. محمد شلبي.

5- الشيخ محمد الغزالي كما عرفته في نصف قرن، د. يوسف القرضاوي.

6- نظرات في فكر الغزالي، د. عامر النجار.